مكتبة

يوجين ثاكر

في التشاؤم

ترجمة: أنور الشامي



في التشاؤم



الكرمة

alkarmabooks.com

facebook.com/alkarmabooks

twitter.com/alkarmabooks

instagram.com/alkarmabooks

الطبعة الأولى ٢٠٢٤

المؤلف: Eugene Thacker

العنوان الأصلي:

Infinite Resignation

First published in the UK and USA by Repeater Books, an imprint of Watkins Media Limited

www.repeaterbooks.com

ثاكر، يوجين

في التشاؤم / يوجين ثاكر؛ ترجمه عن الإنجليزية أنور الشامي - القاهرة: الكرمة للنشر، ٢٠٢٤.

٢٦٤ ص؛ ٢٢ سم.

تدمك: 9789778678376

١ - الفلسفة.

أ- الشامي، أنور (مترجم).

ب- العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٩٤٠٨ / ٢٠٢٣

٢ ٤ ٦ ٨ ١ ٠ ٩ ٧ ٥ ٣ ١

تصميم الغلاف: أحمد فرج

يوجين ثاكر

في التشاؤم

ترجمة

أنور الشامي



على سبيل الاستهلال. بحكم طبيعته، ليس لمثل هذا الكتاب من أمل يُرتجى - فوجوده ذاته مشكوك فيه. وإذا كان كل شيء لا طائل من ورائه، فما الداعي إذن لتجشم عناء كتابته؟ ما دمنا حبيسين في حلقة مفرغة وعالقين في السخافات المنطقية التي يقوم عليها وعي ذاتي مرتبك.

ويبدو أن هناك أحد خيارين: إما التعبير عن هذا الموقف وإما البقاء صامتين. ويتمثل إخفاق الكُتَّاب في كونهم يدركون أن عليهم أن يختاروا الثاني، ولكن لا يسعهم إلا أن يجربوا الأول. ويُعزِّي الكُتَّاب أنفسهم (وكذلك القراء... حين يوجد قراء...) بتسمية هذا الإخفاق: دفاعًا أو اعترافًا أو شهادة أو مقالة أو تاريخًا أو سيرة ذاتية أو حياة. ولكن التراكم المستمر لذلك الشيء الذي لا يمكن التعبير عنه بالكلمات، دائمًا ما يعيدنا إلى إدراك أساسي وحيد مفاده أنه فيما يتعلق بالبشر، فإن الصمت هو أبلغ شكل من أشكال التعبير.

هنالك، إذن، دربان. وفي النهاية يحلم الكُتَّاب بألا يسلكوا أيًّا منهما، وبأن يتركوا جميع الدروب ويلوذوا بالعزلة وينعموا بالسكينة. ولكن هيهات.

فلسفة توجد بين البديهية والتنهيدة.
التشاؤم هو التأرجح والمراوحة بينهما.

~ * ~

حين يحدث التشاؤم وكيفما يحدث، فليس له سوى أثر واحد، وهو كونه يضفي تواضعًا ما على التفكير. ويوهن ما لا حصر له من مواقف الاغترار بالذات التي يتشكل منها الإنسان. التشاؤم هو تواضع النوع البشري الذي أسمى نفسه بنفسه، وظن خُفية أنه سوف يعثر على أغلال ضعفه فوق أجنحة اللاجدوى السوداء. (وهل في ذلك جدوى...؟).

~ * ~

التشاؤم هو الجانب المظلم من التفكير، وهو ميلودراما تنبعث من لاجدوى العقل، وحماسة غنائية كُتبت في مقبرة الفلسفة. لا أحد قَطُّ يحتاج إلى التشاؤم، كما احتياجه إلى التفاؤل، مثلًا، لتحفيزه على طلب أعلى الغايات والنهوض من بعد عثرة يتعثرها، وكما احتياجه إلى نقد بنَّاء ومشورة ورأي

وكتب ملهمة أو مجرد ربتة على كتف (وإن كنت أميل إلى تخيل فكرة التشاؤم بوصفها إرشادًا ذاتيًّا). والتشاؤم موقف يتعذر تسويغه فلسفيًّا. وما من فيلسوف يعتد بذاته يمكن أن يصف نفسه بأي حال بأنه متشائم - فذلك سيكون اتهامًا أكثر منه فلسفة. ومع ذلك، ومن دون أي استثناء، فقد تعيَّن على الجميع، في مرحلة ما من حياتهم، مواجهة التشاؤم، إن لم يكن كفلسفة فليكن إذن كشكاية من الذات أو الغير، ومن حياة المرء أو من أحواله، ومن الوضع العام أو من العالم عمومًا.

والتشاؤم كلما قارب النقاش الفلسفي، يغدو أشد إثارة للطرافة والتهكم، عبر مقولات من قبيل: «لا نجاة لنا أبدًا»، أو: «نحن هالكون لا محالة». ويصبح كل سعي مآله الفشل وكل مشروع محكومًا عليه بعدم الاكتمال وكل فكرة مآلها التلاشي وكل حياة محكومة بالانمحاء.

~ * ~

حين تأتي الحلول بمشكلات، وحين يترنح التفكير في غيبة النظام والوحدة والغاية، وحين يتحول الشك الإيجابي إلى سخرية مَرضية - فهنا عادةً ما يدخل التشاؤم إلى حلبة الصراع. وتكمن المشكلة في أن التشاؤم حين يدخل نقاشًا فلسفيًّا، فغالبًا ما لا يجدي نفعًا أبدًا. بل في واقع الأمر يزيد الوضع سوءًا. ومع ذلك، وخلال نُواحه اللانهائي، يحدث أحيانًا شيء لافت: وهو كونه يؤجج النقاش ويوسع نطاق الأشياء بما يتخطى مستوى المنفعة الذاتية لبشر يعيشون في عالم بشري، وبما يتخطى رغباتنا وحاجاتنا، وبما يتخطى زهونا بذواتنا، فرديًّا كان ذلك أو جماعيًّا. ثم إننا لم نكن نحسب حقًّا أن باستطاعتنا أن نفهمه، أليس كذلك؟ إنه فلسفة غريبة، إذن - الأكثر ملاءمة والأقل جدوى.

~ * ~

هل هناك أي فلسفة لا تقوم، بطريقة ما، على خيبة الأمل، ولا تتحطم، في نهاية المطاف، تحت وطأتها؟ وخيبة الأمل مثلها مثل غناء وترنيمة وتعويذة وصوت منفرد أحادي النغمة تصبح غير ذات قيمة في غمرة الاتساع الداخلي[١] الذي يحيط بها.

~ * ~

لا أحد لديه متسع من الوقت للتشاؤم. وعلى أي حال، ليس في اليوم سوى عدد محدود من الساعات. ومهما كانت حالتنا المزاجية، مبتهجين أو محزونين، مندمجين أو منعزلين، فإننا نميز التشاؤم حين نسمعه. والمتشائم عادةً ما يُنظر إليه باعتباره الشاكي، الذي يظل يشير دائمًا إلى العلل التي تعتري العالم من دون أن يطرح حلولًا قَطُّ. ولكنَّ المتشائمين هم غالبًا الأخفت صوتًا بين الفلاسفة، حيث يوارون تنهيداتهم عبر اللامبالاة المنبثقة عن الشعور بالاستياء. ولا أحد يعبأ بالصوت الخافت الذي يصدر عنهم – «لقد سمعت كل ذلك من قبل» و«أخبرني بشيء لا أعرفه»، فصوت وغضب، لا يعنيان شيئًا.

~ * ~

ستكون الأمور على ما يرام، هكذا أحدث نفسي، ولكنها ليست على ما يرام تمامًا. لا شيء يبدو منطقيًا – وينبغي أن يكون كذلك (أليس كذلك؟). صحيح أن الأمور لم تكن من قبل مثالية تمامًا، ولكنها قطعًا باتت أسوأ

---

(١) يحيل المؤلف هنا إلى مفهوم «الاتساع الداخلي» بمعناه الشعري لدى الفيلسوف الفرنسي جاستون باشلار في كتابه الشهير «Poetic of Space» الذي يحلل الفضاء من منظور فلسفي ظاهراتي، وقد تُرجم الكتاب إلى العربية بعنوان «جماليات المكان». (المترجم).

الآن (... أو هكذا تبدو). ويضاف إلى كل ذلك أمر في غاية البساطة، وهو أن ثمة حياة عليَّ أن أعيشها.

~ * ~

بطرحه مشكلات من دون حلول، وأسئلة من دون إجابات، وبركونه إلى مقام الشكوى الانعزالي والخاوي، يصبح التشاؤم مسؤولًا عن أسوأ الجرائم التي لا تغتفر في المجتمعات الغربية - ألا وهي جريمة التوقف عن الادعاء بأن كل ما يحدث إنما يحدث لسبب ما. إن التشاؤم يعجز عن تلبية أبسط مبادئ الفلسفة وهي «كأنما». فكِّر كأنما سيكون التفكير مفيدًا، وتصرف كأنما ذلك سوف يُحدث فرقًا، وتحدث كأنما لديك ما تقوله، وعش كأنما أنك، في واقع الأمر، لست تُعاش من قِبل عدم يدمدم دمدمة مبهمة وملتبسة.

~ * ~

النقطة المضيئة حيث يغدو عندها المنطق تأملًا. ونستغرق في التفكير. ونهيم عبر فضاء سحيق. وننام نومًا لا تخالطه أحلام.

~ * ~

تصاحب التشاؤم حالة من التشكك، سواء في الحياة اليومية أو عبر تاريخ الفلسفة. وعادةً ما يُنظر إلى التشاؤم باعتباره نقيضًا للتفاؤل، وسلبيًّا في مقابل إيجابي، والأسوأ في مواجهة الأفضل، والكوب نصف فارغ أم الكوب نصف ممتلئ. وبمقتضى هذا الفهم، تظل مستويات التفاؤل والتشاؤم تتأرجح جيئة

وذهابًا إلى الأبد، بحسب مواقفنا وظروفنا وحظوظنا السعيدة وحظوظنا العاثرة. انظر أي معجم فلسفي، وستجد فيه على الأرجح تعريفًا للتشاؤم، وبعد أن يأتي على ذِكر فيلسوف القرن التاسع عشر آرتور شوبنهور، سيقدم غالبًا أحد تعريفات ثلاثة: «الرأي بأن هذا العالم هو الأسوأ بين جميع العوالم الممكنة»، أو «الرأي بأن الحياة لا تستحق أن تُعاش»، أو حتى «الرأي بأن اللاوجود أفضل من الوجود» (وعادةً ما يضيف القاموس «انظر أيضًا: التفاؤل»). ولكن التعريف الذي يصور التشاؤم أفضل تصوير هو تعريف يعود إلى فيلسوف متمرد هو سيدني ووترمان: «أن أرى نصف الكوب ممتلئًا، ولكن بالسم».

~ * ~

يحاول التشاؤم بجدية أن يقدم نفسه عبر النغمات الخافتة والمتتابعة في قداس للموتى، أو في الدمدمة القوية المصاحبة لترنيمة بوذية. ولكنه في أحيان كثيرة، تصدر عنه نغمات متنافرة وفي الوقت ذاته حزينة وتستثير الشفقة. وغالبًا، ما يتحشرج صوته وتتحول كلماته الثقال فجأة إلى مجرد شظايا لصوت مبحوح.

~ * ~

إذا كنا نعرف التشاؤم حين نسمعه، فهذا لأننا سمعناه من قبل - ولم نكن بحاجة إلى سماعه في الأصل. الحياة صعبة بما يكفي. ما تحتاج إليه هو موقف مغاير ورؤية جديدة ومنظور مختلف... وفنجان من القهوة.

إذا كنا لا نتقبل التشاؤم، فذلك لكونه يرى كل شيء يفيض باحتمالات سلبية وبارتطام مزاج معتل بعالم لا يبالي. وإذا كان التشاؤم غالبًا ما يُنتقص

من شأنه، فهذا لأنه غالبًا ما يكون محالًا أن نفرق بين «مزاج معتل» وبين افتراض فلسفي (ألا تنبثق جميع الفلسفات عن مزاج معتل؟).

~ * ~

تاريخ وجيز جدًّا للفلسفة. لطالما شعرت أن هناك في الأساس نوعين من الفلسفات: تلك التي تبدأ بالدهشة وتلك التي تبدأ باليأس. تبدي فلسفات الدهشة تعجبها من العالم وتنجذب إلى حضوره المتلألئ فيما يحدوها الفضول الذي ينحو مبتهجًا نحو اكتساب المعرفة. وعلى النقيض، تنفر فلسفات اليأس من العالم، وتحيرها وتضجرها في الوقت ذاته هشاشته وزائليته. وتمضي مدفوعة بشك يفضي إلى شك أكبر منه، حتى لا تبقي غالبًا على شيء. فلسفات الدهشة تعانق العالم، وأما فلسفات اليأس فترتاب به.

وسيكون من المغري وصف فلسفات الدهشة بأنها «تفاؤلية» وفلسفات اليأس بأنها «تشاؤمية»، لولا حماسة الثانية.

~ * ~

يوحي مصطلح «التشاؤم» في ذاته باتجاه فكري أو حركة أو حتى جماعة مشتركة. ولكن التشاؤم دائمًا لا يضم في عضويته سوى فرد واحد – وربما اثنين (أحدهما من وحي الخيال). وفي الوضعية المثالية، بطبيعة الحال، لن يضم أحدًا في عضويته، ولن توجد سوى رسالة كُتبت في عجالة وبخط غير مقروء، ثم تُركت في غابة منسية منذ زمن.

~ * ~

هنالك أمور كثيرة للغاية ممكنة، وأمور قليلة للغاية ضرورية. وللأسف، نادرًا ما تتقاطع الثانية مع الأولى.

~ * ~

يفترض الناس غالبًا أن مقولة «تطلَّع إلى الأفضل وتوقَّع الأسوأ» هي مقولة تشاؤمية، لكنها ليست كذلك. إنها ببساطة تفاؤل من الباب الخلفي. فأفضل ما يمكنك التطلع إليه هو الأسوأ.

~ * ~

تشريح التشاؤم. للتشاؤم وجهان رئيسيان وهما التشاؤم الأخلاقي والتشاؤم الميتافيزيقي، وهما يمثلان قطبيه الذاتي والموضوعي، وينطويان على موقف إزاء العالم وادعاء حياله. بالنسبة إلى المتشائم الأخلاقي، كان الأفضل هو ألا يولد بالمرة، وبالنسبة إلى المتشائم الميتافيزيقي، هذا العالم هو الأسوأ بين جميع العوالم الممكنة. وفي التشاؤم الأخلاقي، تكمن المشكلة في ذاتوية[1] البشر، وأن العالم صُنع على مثال صورتنا المختنقة، وأنه عالم وُجد لأجلنا. وفي التشاؤم الميتافيزيقي، تكمن المشكلة في ذاتوية العالم، المنغلق والمبهم، والمعاكس الذي ينعكس كعالم في حد ذاته. ولكن التشاؤم الأخلاقي والتشاؤم الميتافيزيقي يتوافقان فلسفيًّا، فهما يعجزان عن موضعة البشر ضمن عالم لابشري أكبر.

---

(١) الذاتوية أو «Solipsism» هي فكرة فلسفية تقول إن وجود الذات هو الشيء الوحيد الحقيقي وإن المعرفة بأي شيء خارج عقل الفرد ليست يقينية. (المترجم).

تفكير مصحوب بموسيقى صاخبة، وهروب مندفع نحو أفق وعده الوحيد أن كل شيء سوف يذهب هباءً، وبغض مُعمَّم للبشر يغيب عنه البشر. وحول هذه اللاجدوى يتمحور التشاؤم.

~ * ~

وصف كيركجور ذات مرة الحياة الدينية بأنها علوق بين حالتين قام بتمثيلهما عبر الصورتين الرمزيتين لـ«فارس الإيمان» و«فارس الاستسلام اللامتناهي». والإيمان، عند كيركجور، يتخطى نطاق العقل، والاستسلام هو عجزنا عن قبول ذلك أو استيعابه. وعلى الرغم من أن المرء قد يسعى جاهدًا لبلوغ الإيمان، فإن هناك إحساسًا بأن الاستسلام هو دائمًا القدر المقدور للمرء (تمامًا كما أن كل «وثبة»، مهما علت، لا بد لها من سقوط في النهاية).

وعلى الرغم من أن كيركجور لم يكن على وعي به، فقد رسم منحنى للتفكير التشاؤمي. وفيه يوجد بين الاستسلام والسكينة صدع دقيق أدق ما يكون. وفي ذلك الصدع يكمن التشاؤم.

~ * ~

ملانخوليا التشريح[١]. ينتقل منطق التشاؤم عبر ثلاثة رفوض: أن تقول لا للعالم كما هو عليه (أو دموع شوبنهور)، وأن تقول نعم للعالم كما هو عليه (أو ضحك نيتشه)، وأن ترفض أن تقول «نعم» أو «لا» (أو نوم سيوران).

---

(١) يحيل عنوان هذه الشذرة بطريقة عكسية إلى عنوان كتاب روبرت بيرتون الشهير في حقله وهو «Anatomy of Melancholy» أو «تشريح الملانخوليا». (المترجم).

بكاء وضحك ونوم - أي استجابات أخرى يمكن أن تلائم عالمًا يبدو شديد اللامبالاة؟

~ * ~

التشاؤم الكوني. وهذا نمط آخر يقع خارج نطاق التشاؤم الأخلاقي والتشاؤم الميتافيزيقي، وهو تشاؤم ليس ذاتيًّا ولا موضوعيًّا، ولا يتعلق بالعالم الذي صُنع من أجلنا ولا بالعالم في حد ذاته. إنه تشاؤم من العالم من دوننا. ويمكنني أن أسمي ذلك بالتشاؤم الكوني... لكن هذا النوع يبدو مفعمًا بمهابة شديدة وبدهشة بالغة وبشعور كبير بالمرارة إزاء العالم الآخر. الكلمات تتعثر. وكذلك الأفكار. ولذلك لا يتبقى لنا سوى تشاؤم مخفَّف، تشاؤم يتمحور أولًا وأخيرًا حول الكون، وارتياب في حتمية النظام وإمكانية تحقيقه. ويتطلب هذا التشاؤم تعظيمًا أو تحقيرًا للرؤية الإنسانية، وتخبطًا في الفضاء السحيق والزمن العميق، وكل هذا يخيم عليه انسداد وضآلة بدائية واستحالة تفسير الوجود العارض للمرء كما ينبغي - كل ما يتبقى هو رغائب لوجدانيات لا عاقلة - تكتسي طابعًا صراعيًّا وتأتي جامدة ومتحدية ومنعزلة ومشبعة بالأسى فيما تتخبط في مباراة شطرنج ذات نسق معماري تُسمى الفلسفة، تخبُّط يحاول التشاؤم أن يرتقي به إلى مستوى الفن (على الرغم من أن ما ينشأ عن ذلك عادةً ما يكون كوميديا هزلية).

~ * ~

... كيف تتجنب الكتابة عن التشاؤم...

~ * ~

أنشودة اللاجدوى. الفشل هو شرخ في صميم العلائق، وانفصام بين السبب والنتيجة، تجري مواراته سريعًا عبر بذل المحاولة تلو المحاولة. وحين يقع الفشل، هنالك دائمًا من اللوم الكثير الذي يكفي الجميع. هذا ليس خطئي، هناك خلل فني وسوء اتصال.

وبالنسبة إلى المتشائم، الفشل هو مسألة «متى» وليس «هل» - يذوي كل شيء ويصير إلى ظلمة أحلك من الليل، كل شيء بدايةً من الانهيار العنيف الذي يلحق بحياة شخص ما وحتى اللحظات العادية العابرة التي تصنع كل يوم. كل ما جرى جرى، وكل ما قيل أو عُرف مآله إلى غياهب النسيان.

والفشل حين يُمد حتى منتهاه المنطقي، يصبح نهاية حتمية. والحتمية هي التباس العلاقة بين السبب والنتيجة. في الحتمية، كل ما تفعله، أيًّا ما كان، يفضي دائمًا إلى غاية محددة، وفي نهاية المطاف إلى النهاية - على الرغم من أن هذه الغاية، أو الوسيلة التي تفضي إلى تلك الغاية، تظل محاطة بالغموض. وحينما نحدد هدفًا ونخطط له سلفًا ونعتني بكل الأمور، نحاول عبر جهد إبداعي يومي، تحويل الحتمية كي تصبح في صالحنا وإلقاء نظرة خاطفة داخل نظام يبدو مطمورًا في عمق سحيق داخل نسيج الكون.

وتختلف اللاجدوى عن الحتمية، وتختلف أيضًا عن الفشل البسيط (على الرغم من أن الفشل لا يكون بسيطًا أبدًا). قد تَخفى علينا سلسلة السبب والنتيجة، لكن ذلك فقط لأن الفوضى هي النظام الذي لم نبصره بعد، وكل ما هنالك أنها معقدة ومتناثرة وتتطلب لإدراكها الاستعانة برياضيات متقدمة. ولا تزال الحتمية تتشبث بما يكفي من كل ما هو موجود... وحين تتخلى الحتمية حتى عن هذه الفكرة، تغدو لاجدوى. وتنشأ اللاجدوى من الارتياب المقبض بأن وراء حجاب السببية الذي نسدله على العالم، ليست هنالك سوى لامبالاة بما هو موجود وبما هو غير موجود، وحيث المعنى واللامعنى يحجب كلاهما الآخر، وما تفعله يفضي في النهاية إلى

صدع لا يمكن رأبه بين التفكير والعالم. واللاجدوى تحول فعل التفكير إلى لعبة صفرية.

~ * ~

أنشودة الأسوأ. في صميم مصطلح «التشاؤم» (pessimism) تكمن كلمة «بسيموس» (pessimus) اللاتينية التي تعني «الأسوأ»، وهي كلمة نسبية بقدر ما هي مطلقة. والأسوأ يعني ما هو سيئ إلى أقصى الحدود، ويمثل صورة زائفة من «الأفضل» وقد حجبها مرور الزمن أو تقلبات الدهر وتصاريف الزمان. وبالنسبة إلى المتشائم، الأسوأ هو نزوع إلى المعاناة يعطل شيئًا فشيئًا كل لحظة من لحظات الحياة، حتى يحجبها تمامًا، ويجعلها تتطابق كليًّا مع الموت (... الذي لا يعود الأسوأ بالنسبة إلى المتشائم).

إن «الأسوأ» يعني ضمنًا حكمًا تقديريًّا، يصدره المرء استنادًا إلى أدلة قليلة وخبرة ضئيلة. ولعل ذلك هو السبب في كون المتفائلين الحقيقيين هم المتشائمين الأشد صلابة - إنهم متفائلون قد نفدت خياراتهم. وغالبًا ما ينغمسون في الأسوأ انغماسًا منتشيًا، وهو ما أسماه نيتشه ذات مرة «التشاؤم المبهج».

ويبدو أننا عاجلًا أو آجلًا، محكوم علينا جميعًا أن نصبح متفائلين من هذا الصنف.

~ * ~

أنشودة الكآبة وأنشودة المصير المحتوم. ليس المصير المحتوم هو الإحساس فقط بأن الأمور جميعها سوف تؤول إلى السوء، ولكن بأن جميع الأشياء إلى زوال محتوم، بغض النظر عما إذا كانت ستزول فعلًا أو لا. وما ينشأ

عن المصير المحتوم هو إحساس بالعالم اللابشري باعتباره عنصرًا جاذبًا وأفقًا ينجذب إليه الإنسان بشكل محتوم. إن المصير المحتوم يعني تسليم ما هو بشري إلى ما هو لابشري في عمل من أعمال إنكار الذات.

والكآبة هي أجواء ومُناخ بقدر ما هي انطباع، وحين تعتري الكآبة الأشخاص أيضًا، يكون ذلك ببساطة نتاجًا ثانويًّا لأجواء مسكنة لا تشمل البشر إلا على نحو عارض. وترتبط الكآبة بظواهر المناخ أكثر مما ترتبط بالظروف النفسية، وهي مفهوم يرتبط بسماء قاتمة وضبابية ومكفهرة، وبأطلال وبمقابر غطاها العشب، وبضباب كثيف وراكد يتحرك بالوهن ذاته الذي يتملكنا، وتبدو جاثمة ومتجهمة وهي تستمع إلى عالم لا يبالي.

الكآبة هي النظير المقابل للمصير المحتوم - واللاجدوى لدى الأولى، تصبح حتمية لدى الثاني. يرتبط المصير المحتوم بعنصر الزمن، فجميع الأشياء منجذبة على نحو خطر إلى نهايتها - فيما ترتبط الكآبة بقسوة السكون، حيث تبدو الأشياء جميعها حزينة وراكدة ومعلقة، فيما يخيم دخان متعرج فوق أحجار أُشن باردة وأشجار رطبة.

وفي الكآبة والمصير المحتوم إماتة للفلسفة. وأنا أميل إلى أن أتصور أن هذا الإدراك وحده هو الخيط الذي يربط طائفة «الأجوري»[١] ساكني القبور بشعراء «مدرسة المقابر»[٢].

~ * ~

أنشودة الضغينة. ينطوي التشاؤم على تعصب لا يعرف حدودًا. في التشاؤم، تبدأ الضغينة بالتركيز على شيء بعينه - شخص لا يكاد المرء يعرفه أو شخص

(١) طائفة هندية تسكن المقابر وتشتهر بطقوسها الغريبة ما بعد الوفاة. (المترجم).

(٢) مجموعة من الشعراء الإنجليز الذين عاشوا في القرن الثامن عشر واستحضروا في أشعارهم موضوعات الموت والفقدان والمقابر. (المترجم).

يعرفه المرء تمام المعرفة، وهي ضغينة تجاه هذا الشخص تحديدًا أو ضغينة تجاه البشرية جمعاء، ضغينة هائلة أو عادية، ضغينة تجاه جارٍ مزعج أو كلب نائم أو ثلة متشردين، وأحمق متسكع يتحدث في هاتفه ويمشي أمامك، واحتفالات صاخبة، ومظالم أليمة في أي مكان بالعالم تتكرر مثل سيرك إعلامي، وضغينة تجاه هؤلاء المستغرقين في ذواتهم والواعين بذواتهم ممن يتحدثون بصوت عالٍ للغاية على الطاولة المجاورة، والمشكلات التقنية وإصلاح الأعطال، ووسم كل شيء باللاجدوى، وضغينة تجاه رفض أحدهم الاعتراف بأخطائه وتجاه كتب إرشاد الذات وتجاه الأشخاص الذين يعرفون كل شيء ويحرصون على إخبارك، وتجاه جميع الناس وجميع الكائنات الحية وجميع الأشياء والعالم والكوكب البغيض وتفاهة الوجود...

الضغينة هي محرك التشاؤم لأنها تقوم على مساواة شديدة وتعيث فسادًا وتجد أفكارًا حدسية لا يمكن اعتبارها فلسفية إلا على مضض. وتفتقر الضغينة إلى ما يميز الكراهية من ثقة ووضوح، لكنها أيضًا تفتقر إلى الحكم العميق غالبًا في الكره. وبالنسبة إلى المتشائم، يمكن أن تكون أهون التفاصيل دليلًا على لاجدوى ميتافيزيقية هائلة وحزينة حتى إنها تتخطى التشاؤم نفسه - وهي ضغينة يضعها التشاؤم بعناية خارج أفق المفهومية مثل تجربة الغسق أو مثل عبارة «إنها تمطر جواهر وخناجر».

~ * ~

أنشودة الأسى. وجَّه نيتشه ذات يوم تقريعًا شديدًا إلى شوبنهور لكونه ليس متشائمًا بما يكفي. ويكتب قائلًا: «كان شوبنهور، على الرغم من أنه متشائم، يعزف حقًّا على الناي. في كل يوم، بعد تناوله العشاء. وعلى المرء أن يعود في ذلك إلى سيرته الذاتية. وهو بالمناسبة، متشائم، أي شخص ينكر وجود الإله وينكر العالم ولكنه أمام الأخلاق يتوقف عن ذلك - إنه يدعم الأخلاق

ويعزف على الناي... ماذا؟ أحقًا هذا... متشائم؟». نعرف أن شوبنهور كان يقتني مجموعة من الآلات الموسيقية، ونعرف أيضًا أن نيتشه نفسه قد ألَّف الموسيقى. ولكن بالنسبة إلى المتشائم الذي يقول «لا» لكل شيء، ومع ذلك يجد راحة في الموسيقى، فإن قول «لا» التي يمثلها التشاؤم يمكن أن يكون مجرد صيغة ضعيفة لقول نعم - وهو أخطر اتهام تقوضه الإجابة الأشد طيشًا. وأقل ما كان يمكن أن يفعله شوبنهور هو العزف على الباص جيتار.

لست من عشَّاق الناي، أو، في هذا الأمر، لست من عشَّاق آلات النفخ عمومًا. ولكن ما لا يذكره نيتشه هو الدور الذي أداه الناي تاريخيًّا في التراجيديا الإغريقية. في التراجيديا، لا يُعَد الناي آلة للتعبير عن البهجة والفرح، بل عن الوحدة والأسى. ولا يعبر الناي اليوناني «أولوس» عن الأسى الناجم عن الخسارة المفجعة فحسب، بل إنه يفعل ذلك بطريقة تجعل البكاء والغناء غير منفصلين بعضهما عن بعض. ويشير الباحثون في التراجيديا الإغريقية إلى هذا باسم «صوت الحِداد». ولأنه يختلف عن الطقوس المدنية الرسمية للحداد الجنائزي، فإن صوت الحداد في التراجيديا الإغريقية يهدد باستمرار بتحويل الأغنية إلى نحيب، والموسيقى إلى أنين، والصوت إلى موسيقى مضادة وبدائية مفككة. ويمثل صوت الحداد جميع صور المعاناة من دموع وبكاء ونواح ونحيب وأنين، وكذلك اضطرابات التفكير التي تُختزل في غموض متأصل.

هل أنقذنا شوبنهور من نيتشه؟ على الأغلب لا. ربما عزف شوبنهور على الناي كي يذكر نفسه بالوظيفة الحقيقية لصوت الحداد - وهي أسى وتنهيدات يتعذر تمييزها عن الموسيقى وتفتت البشري إلى اللابشري.

~ * ~

أنشودة الرعب. كانت إحدى أعظم الأفكار الحدسية لدى كيركجور هي فهم

الرعب المصاحب للتجربة الدينية. وفي إعادة سرده للقصة التوراتية التي تحكي سيرة [النبيين] إبراهيم وإسحاق، لا يركز كيركجور على التضحية البطولية العظيمة التي يصبح إبراهيم مستعدًّا لتقديمها، ولكن على كل ما يسبق هذا القرار. وفي الواقع، إن خاتمة هذه الحكاية هي الجزء الأقل إثارة للاهتمام بها والذي يشهد تدخل العناية الإلهية، هذا إن وُجدت بأي حال. إن ما يسترعي انتباه كيركجور هو عجز إبراهيم عن اتخاذ القرار والتنفيذ وتصديق الرؤية. يؤمَر إبراهيم بأن يذبح ابنه باسم إله قاسٍ، ولكن ما من سبب يدعو لذلك، ولا حتى سبب الإيمان. وإبراهيم ليس بطلًا تراجيديًّا، يضحي بابنه في سبيل مصلحة قومه العليا، وهو حائر ومرتبك ويتملكه رعب من أمر علوي فوق بشري وغريب تمامًا على العالم البشري والمجتمع والأفعال الاعتيادية التي يُنظر إليها باعتبارها دينًا. وبالنسبة إلى إبراهيم، لا خيار لديه في القرار، تمامًا كما لا قيمة لقراره ولا ثواب أو عقاب: «إنه يكابد كل ما يكابده البطل التراجيدي من ألم ويجهض سبب بهجته في العالم ويتخلى عن كل شيء...» ويرى كيركجور أن هذه هي اللحظة الحاسمة وليلة الكرب والهجران المظلمة - لا لأنها بمنزلة الطريق لتأكيد الإيمان، ولكن لأنها تجعل الإيمان بعيد الاحتمال وغير ذي صلة ولا يُعتد به.

ويصل كيركجور إلى هذه الخلاصة لا عبر قفزات سريعة، ولكن، كأي فيلسوف جيد، خطوة خطوة. هناك رعب التناقض الذي يكمن في عجز إبراهيم عن اتخاذ القرار والتنفيذ (الشريعة الدينية تحرم عليَّ قتل ابني ولكن الإله يأمرني أن أفعل)، وهناك الرعب الناجم عن انعدام قيمة أي قرار (أيًّا كان ما أفعله، سأتسبب في أذى وسأنتهك محرَّمًا)، وهناك رعب اللامبالاة، وشعور المرء وكأنه دمية عالقة في متاهات لاهوت سياسي (كل ما أفعله هو مقدَّر سلفًا بالفعل ضمن تدبير إلهي محجوب عني)، وأخيرًا رعب الضآلة، نفسيًّا وكونيًّا، ضآلة قيمة الفعل البشري أمام تدبير إلهي لا سبيل لمعرفته أساسًا.

لا شيء من هذا يمكن لإبراهيم أو لأي أحد منا أن يحتمله. لا يمكننا أن نعيش في هذا التناقض وهذا الانعدام للتأثير وهذه الضآلة إزاء الكون. ولذلك، في النهاية، يتدخل الإله ويخلص إبراهيم وتكتسب القصة الدلالات الأخلاقية الكريهة التي تحملها حتى يومنا هذا. لكن رعب إبراهيم لا يتلاشى. وهكذا يمكن أن يقول كيركجور: «على الرغم من أن إبراهيم يثير إعجابي، فإنه في الوقت نفسه يرعبني». إن ضياع إبراهيم النهائي وانغراسه التام في وحل هذا الرعب الكوني يضفي على تجربته طابعًا دينيًّا، لكنه طابع يرفض أي دين: «لا يمكن للمرء أن يبكي على إبراهيم. فالمرء يقترب منه محملًا برعب ديني...».

~ * ~

أنشودة اللاشيء. في البوذية، تتلخص أولى الحقائق الأربع النبيلة في كلمة «دوكها» (dukkha) باللغة البالية، والتي عادةً ما تُترجم إلى «معاناة» أو «حزن» أو «بؤس». وتحتوي نصوص «شريعة بالي» (Pāli Canon) أيضًا على قوائم لأنواع مختلفة من السعادة ومنها «سعادة التخلي» و«سعادة الانفصال» الغريبة. لكن البوذية تَعُد حتى هذه الأنواع المختلفة من السعادة جزءًا من «دوكها»، وذلك لأنها هي نفسها عابرة وسريعة الزوال.

ويرجح أن شوبنهور، في أثناء قراءته للنصوص البوذية التي أتيحت له، قد أدرك قرابةً ما، تجمعه بمفهوم المعاناة «دوكها». لكنه مصطلح متعدد الأوجه. هناك، بالتأكيد، «معاناة» بالمعنى المعتاد للمعاناة والصراع اللذين ينشآن عن عيش الحياة. لكن هذا، بدوره، يعتمد على التناهي والزمانية، والوجود بوصفه زائلًا ومعيبًا. وبعيدًا عما هو أسوأ عندي، وبعيدًا عن كونه عالمًا قُدر له أن يكون الأسوأ، هنالك نوع من المعاناة اللاعاقلة... دموع الكون.

ربما كان شوبنهور يفهم البوذية على نحو أفضل حتى مما كان يحسب. ولكن الأمر المؤكد هو أننا لا نجد لدى شوبنهور ذلك المحيَّا «الباسم دائمًا» والغامض الذي لدى بوذا – أم تُرانا نجده؟

~ * ~

وصف «إميل سيوران» ذات مرة الموسيقى بأنها «فيزياء من الدموع». إذا صح ذلك، فربما تكون الميتافيزيقا هي شرحها. أو دفاعها.

~ * ~

الثقوب السوداء والمادة المظلمة والزمكان المشوه والأوتار والبوزونات... من المفارقة أن الفيزياء قد حلت محل الميتافيزيقيا. بل الكون أشد لامبالاة مما كنا نظن في البداية (وهو أشد لامبالاة أيضًا تجاه التفكير).

~ * ~

نخطئ إذا ما اعتقدنا أن الضغينة نحو شخص ما أو شيء ما تعني بالضرورة الرغبة في عدم وجوده. ليوباردي: «كارهو البشر الحقيقيون لا يوجدون بمعزل عن الناس بل في أوساطهم، لأن تجارب الحياة العملية، لا الفلسفة، هي ما يجعلنا نكره». ولذلك، وخلافًا للمعهود، فإن حب العزلة يستتبع كره كراهية البشر. «وإذا اعتزل مثل هذا الشخص المجتمع، فإنه باعتزاله يمتنع عن كراهيته للبشر».

~ * ~

كان التشاؤم سيصبح أعظم سموًّا لولا انهزاميته. وبمعنى من المعاني، فإن المتشائمين في واقع الحال زُهادٌ خاب أملهم.

~ * ~

مزاج معتل (١). يعجز التشاؤم دائمًا عن أن يكون فلسفيًّا. يوجعني ظهري وتؤلمني ركبتاي، ولم أستطع النوم الليلة الفائتة، وأشعر بتوتر شديد، وأظنني سأصاب بمرض ما في النهاية. يرفض التشاؤم جميع المزاعم التي تشير إلى نظام - وإلى نقاء التحليل وشرف النقد. لم نكن نعتقد حقًّا أنه يمكننا اكتشاف ذلك، أليس كذلك؟ لقد كان ذلك لمجرد تمضية الوقت وشيئًا يجب عمله ولفتة جريئة جرى القيام بها بكل ما تحمله من هشاشة، ووفقًا لقواعد مفادها أننا قد توافقنا على نسيان أننا قمنا بها في الأساس. إن كل فكرة تتسم بانعدام فهم مبهم يسبقها، ولاجدوى تقوضها. وكون التشاؤم يتحدث، بأي صوت كان، هو شهادة مغنَّاة على هذه اللاجدوى وهذا الانعدام للفهم - «جرِّب حظك واخرج، وضحِّ ببعض النوم وقل إنك جربت...».

~ * ~

أنت والليل والموسيقى. في فقرة موحية، قال شوبنهور ذات مرة إن «الموسيقى هي اللحن والعالم هو كلماته».

وبالنظر إلى رؤية شوبنهور للحياة - وهي أن الحياة معاناة، وأن حياة الإنسان عبث، وأن العدم السابق لميلادي يعادل العدم اللاحق لمماتي - لطالما تساءلت أي موسيقى تلك التي كان شوبنهور يقصدها حين وصف الموسيقى بأنها اللحن والعالم كلماته - هل كانت أوبرا أو قداس موتى أو

غناء المادريجال[1] أو ربما أغنية من أغاني الشراب؟ أو شيئًا يشبه معزوفة «ليلة موسيقية قصيرة»[2] وهي موسيقى ليلية قصيرة تناسب غسق التفكير و«مقطوعة حالمة» حزينة تعبر عن الوجه المظلم للمنطق، وحقبة أجنحة حزينة[3] تغنيها جنية وحيدة.

ربما كانت الموسيقى التي يقصدها شوبنهور هي موسيقى مصفَّاة إلى حدٍّ تصبح معه لاموسيقى. وهمسة يمكن أن تكفي. ربما تنهيدة تعب أو استسلام أو ربما آهة يأس أو حزن. ربما يكون الصوت واضحًا بدرجة تكفي لأن يُسمع كي يتبدد.

~ * ~

علمني كيف أضحك وسط الدموع.

~ * ~

هنالك شبح ينمو في أحشائي، ويَتلف في أثناء تكوينه. مطاردة انطلقت من الضرورة، بصورة مبهمة وخافتة. وحيثما يمنح الهدوء الحزين لأرقنا كل فكرة، يوجد حقل مضيء بقصور ذاتي رمادي وأحلام من السبج تحترق عبر الطريق.

~ * ~

(١) نمط غنائي سبق ظهور فن الأوبرا في أوروبا. (المترجم).

(٢) معزوفة من تأليف الموسيقي النمساوي الشهير ولفجانج أماديوس موتسارت. (المترجم).

(٣) الإحالة هنا إلى أغنية «An Era of Sad Wings» للمطرب الياباني كيجي هاينو. (المترجم).

بعد يوم طويل، أستلقي كي أنام. وبجواري «پ»[1] تقول لي بفتور، «أجمل ما في اليوم هو انقضاؤه...».

~ * ~

مشاهدي المفضلة في رواية «كانديد» لفولتير هي تلك التي يحاول فيها بانجلوس المتحذلق أن يعلِّم «كانديد» الساذج - وإن كان لا يزداد مع ذلك إلا تشككًا - أن هذا العالم هو الأفضل بين جميع العوالم الممكنة. ويسأل «كانديد» ببراءة بعد تعرضه لمحنة تلو أخرى: «إذا كان هذا هو الأفضل بين جميع العوالم الممكنة، فكيف إذن هي العوالم الأخرى يا ترى؟».

~ * ~

الجمعة، ١:٥٥ ظهرًا. أجلس إلى طاولة زاوية بمقهى «دانتي». الطقس بارد وممطر بالخارج. يوجد أمامي فنجان من الاسبريسو وكوب صغير من الماء وهاتفي وهذا الدفتر الذي أكتب فيه. المقهى هادئ الأجواء وشبه فارغ، لولا عجوز يطالع جريدة وشاب وشابة، لعلهما طالبان. أسمع من حين إلى آخر قعقعة أكواب وأطباق، فضلًا عن دوي خافت لكل ما تبثه محطة المذياع. يطبق المقهى قاعدة «الحاسوب المحمول ممنوع»، وهي لافتة مكتوبة بخط يدوي باهت وملصقة على النافذة المواجهة للرصيف. يمر الناس والدراجات والسيارات غير عابئين عبر شارع «ماكدوجال» بالخارج. كنت قد تناولت لتوي الغداء بالمنزل، وعلى غير العادة أجد قهوة «الاسبريسو» اليوم طيبة المذاق. ليتني كان

(١) في سياق بعض الشذرات يرمز المؤلف إلى أشخاص التفاهم أو جمعته بهم بعض الأحاديث بحروف أبجدية تُوضع هنا بين تنصيصين. (المترجم).

بوسعي الجلوس هنا مع القهوة وبحوزتي دفتري - دفتر لا تنفد صفحاته أبدًا وكوب من «الاسبريسو» يظل ساخنًا دائمًا. لكنك تعرف الباقي. لقد كنت أتوق بشدة إلى هذه اللحظات ولا يخطر لي أني ربما أجد فيها المتعة أيضًا. أتوقف، وأدرك أنني لا أقدِّر هذه اللحظات حق قدرها فحسب، بل إن هذا الإدراك مبتذل على نحو يجعلني أشعر بالنفور منه. يجب أن أسجل ذلك... ثم ماذا بعد؟ الوقت يمضي - ويمكنك الشعور بذلك من دون النظر في الساعة. يتغير الضوء بالخارج وتسطع الأنوار الداخلية، ويبدأ الناس بالإسراع بسياراتهم والضغط على الأبواق، وأتذكر أن عليَّ الذهاب إلى البقالة والصيدلية والرد على رسائل بريد إلكتروني، وما إلى ذلك. أعتقد أن ظهري بدأ يؤلمني مرة أخرى.

~ * ~

جثامين لا تتحلل. يتحدث رجال الدين كثيرًا عن عدم قابلية جثامين القديسين للتحلل، لأنها جثامين حظيت بلمسة العناية الإلهية وأصبحت بطريقة إعجازية عصية على التحلل الذي يحدث بفعل الزمن. وتَعُد الكنيسة الكاثوليكية جثامين زهاد من أمثال كاثرين الجِنوية ويوحنا الصليب وتيريزا الأفيلاوية من تلك الجثامين التي لا تتحلل. أما أنا، فعلى النقيض، أود أن أكون قابلًا للتحلل تمامًا - وأود ألا يبقى أي شيء من جسدي، ولا حتى الشعر أو الأظافر أو الدفتر الذي أكتب فيه. وفي النهاية تتلاشى جميع الكلمات والذكريات، من دون أن تترك حتى صدى أو أثرًا. إنه أمر غرائبي، أدرك ذلك - ولكنه لا يقل غرائبية عن هؤلاء الذين لا تتحلل جثامينهم.

~ * ~

لا أسأم مطلقًا من إعادة قراءة «رسائل من تحت الأرض». فهي إحدى أعظم الروايات التجريبية. وفيها استغنى دوستويفسكي عن الغرور البشري البشع وتشابكاته المعقدة اللانهائية التي تثير الغثيان، والتي يبدو أنها موجودة في «كتب ضخمة» كثيرة. في «رسائل من تحت الأرض»، أسقط الحبكة والشخوص وحتى الدوافع، ولم يدع من كل ذلك سوى بقايا مراقب مرتبك يعجز عن فهم مجموعة أحداث شديدة الإرباك. ووجدتُ ذلك - وما زلت أجده - مقنعًا تمامًا.

أعشق الافتتاحية، والطريقة التي يضبط بها دوستويفسكي نبرة هي في آنٍ واحد معًا شعرية وساخرة وفلسفية ومضجرة وميلودرامية وهزلية: «أنا رجل مريض... أنا رجل شرير. رجل منفر. أظن أن كبدي مريضة...». حين قرأتها للمرة الأولى وأنا طالب، اجتذبني على الفور الجزء الأول من الرواية بمونولوجه الداخلي وتجريدية أفكاره وصرامة استبطانه. والآن لديَّ ولع أكبر بالجزء الثاني من الرواية، الذي يكاد ينعدم به تمامًا أي نقاش فلسفي وبدلًا من ذلك يسرد أحداثًا مملة تكتسب معاني عميقة على نحو يبعث على السخرية - مثل تمشية بسيطة في الحديقة والخصومات السرية التي دُفنت هناك ولقاءات التعارف الاجتماعي والاستعراض التمثيلي للغرور، والمساعدة التي تحول شخصًا إلى منافق متحذلق.

ومع ذلك يضم الكتاب في ثنايا الجزء الأول «ذي الطابع الفلسفي» فقرات لا يزال صداها يتردد في ذاكرتي:

«... والمتعة هنا تكمن تحديدًا في الوعي الحاد لدى المرء بمذلته، وفي شعوره بأنه قد بلغ الحائط الأخير، وبأن ذلك على الرغم من سوئه الشديد، لا يمكن أن يكون خلاف ذلك، وبأنه لا مَخرج لك، وبأنك لن تتحول أبدًا إلى شخص آخر، وبأنك حتى لو كان لديك من الوقت والإيمان ما يكفي لأن تغير نفسك إلى شيء آخر، فإنك على الأرجح لن ترغب في التغيير، وحتى لو رغبت به، فلن تفعل

شيئًا على الرغم من ذلك، لأنه ربما في واقع الأمر ليس هناك ما يمكنك أن تتحول إليه».

~ * ~

ميزان التفاؤل والتشاؤم ذو الكفتين المتأرجحتين، أيهما بحاجة إلى أسباب وأيهما بحاجة إلى إيمان؟

~ * ~

هنالك نوعان من التشاؤم: «أرى النهاية قد دنت» و«أمَا من نهاية لذلك أبدًا؟».

~ * ~

كتاب فرناندو بيسوا «اللاطمأنينة» هو أحد أبرز الكتب غير المكتملة فيما أعرف. ويبدو وكأنه وُضع بطريقة تضمن له الإخفاق في أن يغدو كتابًا. كانت المخطوطة قد عُثر عليها داخل صندوق وُجد في شقة بيسوا بعد وفاته، وكان يحتوي المئات من الأوراق، التي جُمع بعضها في ملزمة فيما كان بعضها مفككًا، وكُتب بعضها بآلة كاتبة وبعضها بخط يدوي، وكان بعضها مؤرخًا فيما تُرك بعضها من دون ذلك. وحوى الصندوق أيضًا أوراقًا بالبرتغالية والفرنسية والإنجليزية وترجمات متنوعة، وكذلك دفاتر وأدوات كتابة ومظاريف وإعلانات ومقاطع نثرية وشعرية وفلسفية ونقدًا أدبيًّا وبيانات ومسرحيات وموضوعات صحفية، بل وخرائط فلكية. تغطي النصوص حياة كاملة. (وعلاوةً على ذلك كله، فإن الكتاب بأكمله، حسبما يقال لنا، هو في الحقيقة مخطوطة منسوبة إلى شخص اسمه «برناردو

سواريز»، وهو كاتب حسابات مغمور في لشبونة، التقاه بيسوا ذات مساء بمحض المصادفة).

لا شيء مما سبق يمكن أن يبعث على الدهشة، إذا ما علمنا أن بعض الموضوعات الحاضرة في كتاب «اللاطمأنينة» هي موضوعات الضجر واللاجدوى والرفض والحزن والاغتراب والتعب والشك. ولا يقدم الكتاب حكاية واحدة بذاتها، بل مجموعة من النصوص الشذرية التي يتداخل بعضها مع بعض، وينفرد بعضها الآخر أو ينفصل عن النصوص الأخرى، فيما تربطها جميعًا شعرية رقيقة ورشيقة لا هي أدبية خالصة ولا فلسفية محضة.

وتصور إحدى هذه الشذرات على نحو رائع منطق التشاؤم وما يستثيره من شفقة:

> «يمكن للنظريات الميتافيزيقية أن تمنحنا وهمًا لحظيًّا بأننا قد فسرنا ما لا يمكن تفسيره، ويمكن للنظريات الأخلاقية أن تخدعنا لساعة واحدة وتجعلنا نحسب أننا أخيرًا عرفنا أيًّا من الأبواب الموصدة يفضي إلى الفضيلة، ويمكن للنظريات السياسية أن تخدعنا ليوم واحد بأننا قد حلَلنا مسألة ما، وإن كانت لا توجد مسائل قابلة للحل إلا في الرياضيات... ربما يتلخص موقفنا من الحياة في هذا النشاط الذي نعي عقمه، وفي هذا الانشغال الذي لا يمنحنا أي متعة ولكنه على الأقل يجنبنا الشعور بوطأة الألم».

وتُختتم هذه الشذرة كما يلي:

> «لا توجد علامة أدل على أن حضارة ما قد بلغت أوج ازدهارها من شيوع الإدراك، بين أبنائها، بأن كل مسعى سوف يذهب هباءً، لكوننا محكومين بقوانين صارمة، لا شيء يمكنه أن يبطلها أو يعوق مسارها».

~ * ~

التشاؤم هو إضفاء طابع التواضع على التفكير. ولكن كيف لنا أن نميز بين التواضع واللاجدوى؟

~ * ~

تأثير الموسيقى في شخص ما يجبره على صوغ تجربته بالكلمات. وحين يعجز، تكون النتيجة هي تفكير مترنح، وذلك في حد ذاته موسيقى من نوع ما.

~ * ~

... أقواس لامعة من الارتباك، تحلق في مكان ما فوق الأسطح المائية المنخفضة لنجوم البحر الهشة...

~ * ~

إذا كان لمفكر مثل شوبنهور أي مآثر يُحمد عليها، فهي أنه كشف الكذبة الكبرى للحضارة الغربية، وهي تفضيلها الوجود على اللاوجود. وكما يقول، «لا أحد قَطُّ سوف يرغب، حين تحين نهاية حياته، إذا صدق القول وكان في كامل قواه العقلية في الآن ذاته، في أن يخوض غمارها مرة أخرى. وبدلًا من ذلك، سوف يميل بشدة إلى اختيار اللاوجود كليًّا». وما ينطبق على الأحياء يسري أيضًا على الموتى: «إذا ما طرقنا أبواب القبور وسألنا الموتى عما إذا كانوا يرغبون في العودة إلى الحياة مرة أخرى، فسوف يهزون رؤوسهم بالنفي».

ويشيع في الثقافات الغربية عمومًا أن يحتفي المرء بواقعة الولادة ويحزن لحدوث الموت. لكن لا بد أن ثمة خطأً هنا. ألن يكون أكثر منطقية أن تُختص الولادة بالحداد والموت بالاحتفاء؟ وإن كان ذلك قد يبدو غريبًا،

لأن الحداد على الولادة سوف يستمر على الأرجح طوال حياة المرء، مما سيجعل الحداد والعيش الشيء نفسه.

~ * ~

إن افتراضات التشاؤم تحمل كل سمات الجدية التي تحملها نكتة رديئة.

~ * ~

معظم المتشائمين ليسوا متشائمين بسبب تمرين فلسفي ولكن بمحض المصادفة.

~ * ~

غالبًا ما أشعر أن «الفلسفة» ليست سوى شهادة مُطوَّلة ومضجرة على الغرور البشري... وأنا أشعر بالحسد إزاء الفيلسوف القادر على الادعاء بثقة أن الفلسفة هي قمة الوعي البشري أو ذروة الإدراك البشري، أو أنها هي تلك التي نضمن بها نبل النقد. وذلك مما لا يعجبني. ودائمًا ما تُختزل الفلسفة في أشياء ثلاثة: وظيفة علاجية (جعلتنا نشعر بأننا أفضل أو أذكى أو أحكم)، ووظيفة تفسيرية (هكذا يسير العالم وهذه هي قوانينه ومتغيراته)، ووظيفة تأويلية (آها! إذن هذه هي الأسباب التي تجعل الأشياء تبدو على ما هي عليه). والفلسفة بوصفها إرشادًا للذات ودليلًا لحياة أفضل وخريطة للعالم الذي صُنع على مثال صورتنا. رهاب الحبس.

~ * ~

وصف فولتير ذات مرة التفاؤل بأنه «فلسفة قاسية تحمل اسمًا يبث الطمأنينة»، مما يوحي على الفور بما قد يكونه التشاؤم: فلسفة تبث الطمأنينة وتحمل اسمًا قاسيًا.

~ * ~

سيوران: «ليس لخيبة الأمل حدود».

~ * ~

التاريخ المنسي للتشاؤم. في تاريخ الفلسفة الغربية، أصبح مصطلح «التفاؤل» مادة للسجال قبل مصطلح «التشاؤم» بوقت بعيد. وهذا ما يجب أن يستوقفنا قليلًا، لأنه يشين الفلسفة نفسها والمشروع الفلسفي بقدر ما يشين التشاؤم، ذلك الوافد الكئيب الذي أتى متأخرًا إلى مأدبة الفلسفة.

ومع ذلك، في أواخر القرن التاسع عشر، أصبح التشاؤم فجأة موضوعًا لكتب ومقالات ومحاضرات لا حصر لها، وغالبًا ما يتجاوز أروقة النخب الجامعية. وفي عام ١٨٧٧، نشر عالم النفس البريطاني جيمس سولي كتابًا بعنوان «التشاؤم: تاريخ ونقد» (Pessimism: A History and A Criticism)، وفيه يقدم تحليلًا شاملًا للتشاؤم في ستمائة صفحة، من خلال تجلياته «المنطقية» (وتحديدًا الفلسفية) و«اللامنطقية» (وتحديدًا الشعرية أو الفنية). وما يجعل كتاب سولي فريدًا ليس الموقف الذي اتخذه حيال التشاؤم (حيث اعتبره مرضًا)، بل لأنه وضع التشاؤم بشكل واعٍ ضمن سياق تاريخي، وبدلًا من السؤال عما إذا كان التشاؤم خيارًا صائبًا، سأل كيف ينبغي للمرء أن يضع التشاؤم في إطار تاريخ الفلسفة ككل.

ولكن كيف ينبغي للمرء أن يكتب تاريخ فلسفة هي، في كل منعطف،

تعوق مسار الفلسفة ذاتها؟ يبذل سولي جهدًا كبيرًا لحلحلة هذه المعضلة، كما في التعريف التالي، وهو أحد تعريفاته العديدة ذات النبرة التدريسية:

> «ومن ثَمَّ، لا بد أننا نقصد بالتفاؤل والتشاؤم، الفرضيتين القائلتين إن العالم في مجمله جيد، أو يقود إلى السعادة، وهو لذلك خير من اللاوجود، وإن العالم في مجمله سيئ، أو يفضي إلى الشقاء، وهو لذلك شر من اللاوجود».

تسمح هذه الفروق الواضحة لدى سولي بخلق تاريخ للتشاؤم، تمتد «أشكاله البدائية» إلى أسفار العهد القديم وعصور اليونان والرومان وأساطير بلاد فارس وفلسفة الهند. ويدرج سولي أيضًا، ضمن خليطه المتنافر من المتشائمين، شكاكين يونانيين وإبيقوريين ورواقيين وآباء للكنيسة ونُساك الصحراء وعقلانيين عصريين وتجريبيين ومثاليين ومفكرين تنويريين وشعراء رومانيين وهيوم وكانط وبالطبع شوبنهور. وفي النهاية، فإن قائمته تشمل الجميع تقريبًا – وينتهي الأمر بسولي إلى تقديم القليل من تاريخ التشاؤم والكثير من إعادة صياغة الفلسفة العالمية على الجملة باعتبارها تشاؤمية. ولعل ذلك كان مقصودًا. وأيًّا كان الأمر، فإن النطاق الواسع الذي يغطيه كتاب سولي واضح منذ البداية، وفيه يبدو متشككًا فيما إذا كان «التشاؤم» يصف أي شيء على الإطلاق: «نحن لا ننظر إليهم [المتشائمين] باعتبارهم أعضاءً بمدرسة فكرية يتبنون فيما بينهم مبادئ أولية مشتركة، ولكن بالأحرى باعتبارهم شخصيات غريبة يجمعها ميل واضح إلى تبني رؤية قاتمة للعالم وشؤونه».

ولم يكن سولي أول من حاول أن يضع تاريخًا للتشاؤم. فعلى سبيل المثال، في عام ١٨٥٥، تضمنت الموسوعة البريطانية بابًا عن التشاؤم، كتبه وليام والاس (وهو أيضًا مؤلف كتاب «حياة شوبنهور»). وأما إدموند فلايدرور في كتابه «التشاؤم الحديث» (١٨٧٥)، وأجنيس تاوبير

في كتابه «التشاؤم وخصومه» (١٨٧٣)، وأولجا بلوماخر في كتابها «التشاؤم بين الماضي والحاضر» (١٨٨٣)، فإن كلًّا منهم يَعُد التشاؤم ظاهرة معاصرة، تمتد جذورها إلى التراث الفلسفي الألماني الذي أعقب كانط والرومانتيكية الألمانية. ويتبنى آخرون وجهة نظر أوروبية أكثر اتساعًا، كما في دراسة إيلم ماري كارو (Elme-Marie Caro) التي تحمل عنوان «التشاؤم في القرن التاسع عشر» (١٨٨٠)، ووجهة نظر فرانسيس باومان التي تحمل عنوان «الفلسفة الحديثة من ديكارت إلى شوبنهور وهارتمان» (١٨٧٧)، وتعطينا الدراستان وجهتَي نظر من فرنسا وإنجلترا على التوالي.

يستهل كارو كتابه بفصل عن «التشاؤم عبر التاريخ»، متتبعًا النزعة التشاؤمية وصولًا إلى التراجيديا الإغريقية القديمة والنصوص البوذية ونصوص «الأوبانيشاد». كانت هذه الاستراتيجية سوف تتيح لـ«كارو»، لاحقًا في الكتاب، أن يصف فلسفة شوبنهور بأنها «بوذية حديثة». كما أعطت كارو الفرصة لربط التشاؤم بجذوره الكونية القديمة واستخلاص التداعيات المظلمة لـ«الانتحار الكوني» الحديث. ويمكن العثور على مناهج مماثلة في كتاب «فلسفة خيبة الأمل» (١٨٨٥) للكاتب الأمريكي إدجار سالتوس، وفي «جوانب التشاؤم» (١٨٩٤) للفيلسوف الاسكتلندي آر. أم. وينلي. وحتى «هارتمان» نفسه، الذي بدا، لوهلة قصيرة، أنه الناطق الرسمي باسم التشاؤم، فقد ألَّف كتاب «تاريخ التشاؤم وأصله» (١٨٨٠). ومع ذلك، بدت كل هذه الأعمال منقسمة حول مسألة تاريخ التشاؤم: هل كان تجربة عابرة في الفلسفة الألمانية التي اكتست بطابع الكآبة والسوداوية في القرن التاسع عشر، أم كان اتجاهًا عالميًّا ظهر في جميع الفلسفات، قديمة أو حديثة، وشرقية أو غربية؟ على الرغم من مقارباتهم المختلفة، فإن الشيء الذي اتفقت عليه جميع هذه

الأعمال هو حالة التشكك التي صاحبت التشاؤم عبر تاريخ الفلسفة. ومن جانبه، أوضح سولي من دون مواربة، «أنه قد تبين، بعد تمحيص بسيط، أن المدخل الميتافيزيقي، إذا جاز التعبير، لهذا الصرح المظلم والقاتم يحوي عديدًا من الشقوق والعيوب». ويخلص إلى أن التشاؤم «يقوم على مجرد فرضيات خيالية بحتة تتضمن مفاهيم غير متماسكة ومتناقضة فيما بينها». وحين يروي المرء تاريخ الفلسفة التشاؤمية فإن تكلفة ذلك هي اكتشاف مكانتها شبه الفلسفية. ويقول سولي مرة أخرى: «... تثبت سيكولوجية التشاؤم، حين تُفكك شبكة أفكارها غير الممحصة، أنها سيكولوجية متهافتة في جوهرها».

«متهافتة في جوهرها». ولربما حتى المتشائم نفسه يَعُد ذلك مبعثًا للفخر.



يمثل الإنذار النهائي لب التفكير التشاؤمي. وبالنسبة إلى التشاؤم، هو طريقة لدفع التفكير نحو استنتاجات تبعث على السخرية في النهاية. «في النهاية، وعند الضرورة، وحين يحين الوقت، وما أقصده حقًّا، وبالأساس»... هذه هي بديهيات التشاؤم، وهي بديهيات تصل إلى إنذارها النهائي عبر تحويلها التشاؤم ذاته إلى هراء. وحين أقول ذلك، بشكل أساسي، وفي النهاية، فإن الفلسفة ليست سوى أناس يحملون درجات علمية وأستاذية ويمارسون لعبة المنطق البيزنطي التي أرسوا قواعدها، ويقدمونها بطريقة احتفائية بين أغلفة مجلدات كبيرة تبعث المهابة في النفوس وتحمل عناوين متضاربة (الكينونة والزمن، والسيرورة والواقع، والحقيقة والمنهج، والاختلاف والتكرار، والوجود والحدث، وما إلى ذلك) وحين أقول ذلك، بخبرة ضئيلة وببرهان أقل، وبقدر متساوٍ من المرح والجدية، يصبح ذلك ممكنًا عبر الإنذار النهائي، وهو شكل خيالي محض من منطق يشتهيه

التشاؤم، كما يشتهي المرء الأشياء التي تصنع ضريحًا - أو كما يشتهي المرء نكتة ظريفة حقًّا.

~ * ~

«والحياة إذن تُمنح بوصفها هبةً، فيما من الجلي الواضح أن أي أحد كان سيرفضها شاكرًا، لو قُدر له النظر فيها ومعاينتها سلفًا...». (شوبنهور).

~ * ~

أوضح نيتشه ذات يوم أن هناك فئتين من المتشائمين، هؤلاء الذين يعانون عوزًا في الحياة، وأولئك الذين يعانون فائضًا في الحياة. في الفئة الأولى، الحياة تتجاوز مقدرتي على تقبلها، وفي الثانية، العكس صحيح، قدرتي على تقبل الحياة تتجاوز مقدرتي على عيشها. وبمعنى من المعاني، أنا لا أعيش في أيٍّ من الحالتين حقًّا، بل أعاني (فائضًا في الحياة، ونقصانًا في الحياة). وهكذا فإن المعاناة هي تعزية عن عدم التمكن من عيش الحياة، ويصبح التشاؤم شكلًا غريبًا من أشكال العزاء. ومع ذلك، فإن هناك قلة هي أفضل حظًّا ويتمنون لو استطاعوا أن يغادروا تمامًا لعبة المعاناة، إلى شطآن الصمت والسكون الأبعد وربما الأوضح.

~ * ~

التشاؤم هو استكانة المنطق وصرخة شبه منطقية في قلب فضاء ليلي شاسع غير مكترث حتى إنه لا يُسمع لها صوت.

~ * ~

فلسفة التحلل. ينشغل الكتابان الرئيسيان لدى شوبنهور - «العالم إرادةً وتمثلًا» (١٨١٨) و«الحواشي والبواقي» (١٨٥١) - وهما مجلدان كبيران في الفلسفة الألمانية، عبر صفحات وصفحات بتبيان أن الأفضلية هي لعدم الوجود. بل إن شوبنهور أضاف أقسامًا إلى كتابه «العالم إرادةً وتمثلًا»، ضاعفت حجمه في طبعته الثالثة التي صدرت في عام ١٨٥٩. وتستعين فلسفته الموسوعية بالمثالية (العالم بوصفه غير حقيقي وبوصفه تمثلًا وبوصفه حجاب المايا)[1]، وبالإلحاد (العالم بوصفه إرادة مجهولة ولا مبالية)، وبالمادية («جسدي وإرادتي هما شيء واحد»)، وبالتصوف (إنكار الذات والاستسلام بوصفه سبيلًا «للإرادة السليبة»)، وبالعدمية (أساس العالم باعتباره بلا أساس، وبلا سبب كافٍ)، وحتى بالبراجماتية (ممارسات الزهاد والنساك). وفي النهاية، كان على العمل أن يلتهم نفسه. بل وحتى السيرة الذاتية أُدرجت فيه، مما سمح لشوبنهور أن يصب جام غضبه على الفلسفة الأكاديمية والصَّرَعات الثقافية والموسيقى السيئة والجيران المزعجين.

~ * ~

عدم الإيمان بإله. يرى نيتشه أن مفتاح فهم موقف شوبنهور المتذمر يكمن في أنه «كان أول ملحد معترَف به بيننا نحن الألمان ولا تلين له عريكة...». وبحسب شوبنهور فإن «غياب الألوهية» كان أمرًا جليًّا، بدايةً من أحقر الحشرات وحتى أوج الاغترار البشري بالذات. وعلى

(١) حجاب المايا (حجاب الوهم) هو أحد مفاهيم الحكمة الهندية ويستشهد به شوبنهور في كتابه «العالم إرادةً وتمثلًا» معتبرًا أن رفع هذا الحجاب يعني ذوبان الثنائيات وزوال التقسيمات حيث لا يعود المرء يميز بين ذاته وبين الآخرين، وإنما يهتم بآلام غيره كما بآلامه. (المترجم).

الرغم من قناعة شوبنهور الراسخة بذلك، فقد كان، حين يعترضه أحد، تثور ثائرته ويفقد رزانة الفيلسوف، ويستسلم لسَورة الغضب والسخط وعدم التصديق.

~ * ~

في صباحات الشتاء، تخيم أشكال مشكوك فيها وذات ألوان زاهية في صمت على أدنى صوت. وتتجاهل توسلاتنا النباتات الزاحفة تحت الأرض والمتدفقة. وتنمو غابات بأكملها.

~ * ~

هل الحياة محنة؟ هذا هو السؤال البلاغي الذي يُطرح قرب نهاية كتاب إدجار سالتوس الصادر في عام ١٨٨٥ «فلسفة خيبة الأمل». يرى سالتوس أنه كان هناك خط متصل من الغضب الشديد الذي امتد من البوذية والتراجيديا اليونانية وصولًا إلى شوبنهور وأتباعه الذين أصبحوا الآن في طي النسيان. لكن سالتوس في سرديته حريص على الإشارة إلى تنوع التشاؤم. ويستشهد بالمتشائمين السوداويين، «الذين يميلون إلى تبني رؤية تشاؤمية للأشياء لعسر هضم أو لخمول كبدي أو لحدة طبع عام». وهناك التشاؤم المزاجي الذي «يظهر في نوبات سخط على هموم الحياة». وعلى النقيض من هذا، هناك تشاؤم الاستسلام، «عَقْد الذراعين في هدوء... وانتظار الموت بعينين لا تدمعان ومن دون تذمر». وهناك المتشائمون البائسون، «الذين يتذمرون ويتجهمون، والذين يعذبون أنفسهم ويعذبون الآخرين». وأما التشاؤم العابر، فهو «الذي يُظهِر نفسه في يوم ممطر أو حين تهبط سوق الأسهم». والقائمة تطول. ويختتم سالتوس

بصنف أخير: «... وأخيرًا، هناك وسواس المرض، وهذا ينتمي حصرًا إلى علم الأمراض».

إن القاسم المشترك بين جميع هذه الفئات هو افتراض مفاده أن التشاؤم ينشأ لدى ذات بشرية مفكرة وشاعرة - وعند سالتوس، فإن هذا الافتراض هو ذروة الغرور البشري. «ليس لدى الضحايا في أيٍّ من هذه الفئات أدنى شك في أن هناك مغزى فلسفيًّا ما لمعاناتهم». أنا نتاج للتشاؤم ولست سببه. ويدفع ذلك سالتوس إلى القول، وإنْ ببعض الحرج، بـ«تشاؤم علمي»، وهو نهج «يستند إلى دحض فكرة أن السعادة بأي شكل من الأشكال قد نالها أو سوف ينالها أي فرد أو العالم بأسره». ربما تكون هذه هي رؤية التشاؤم «العلمي» أو الفلسفي، وهي أنه يثير افتتانًا عميقًا باللاشخصي الذي يتعذر التحقق منه أو إرضاؤه. بل إن مجرد ذكره يُعَد عجزًا.

ومع ذلك، فإن فكرة وجود تشاؤم علمي تكاد تبدو مضحكة، وشيئًا مأخوذًا من حكايات كافكا أو جاري أو ألبرت روسيل. ما نوع القياسات وما نوع المنهج العلمي وما أنواع الأجهزة المعملية التي سيُستعان بها؟

~ * ~

التفاؤل أو التشاؤم - ببساطة مسألة قياس...

~ * ~

الحظ السعيد حظ سيئ بما أنه لا شيء يدوم. والحظ السيئ حظ سيئ بما أنه أسوأ مما جاء قبله.

~ * ~

واقعة الولادة بوصفها الفشل الأعظم. والعيش بوصفه ذريعتها.

~ * ~

لحظة كشفٍ عابرة. خاض الفلاسفة، القدامى منهم والمحدثون، نقاشات مطوَّلة حول ما يجعل البشر متفردين عن الكائنات الحية الأخرى. وقاموا بحشد ترسانة كاملة من الصفات السامية في هذا المشروع، كي يضمنوا للإنسانية هيمنتها: العقل والوعي واللغة والذاكرة والعاطفة والعمل واللعب بل وحتى الملل. لكنه مشروع قديم وعابر كما الجنس البشري ذاته.

في معظم الأيام أشعر بيقين كبير أنه ليس لدى البشر، ناهيك بثقافتهم، أي شيء فريد أو يستحق الذكر. وفي نهاية البحث كل ما يبقى هو هذه الهوة البادية من اللامبالاة التي تفصل بين إنسان وآخر ومبدأ وآخر ورأي وآخر.

لكن بعد ذلك، وبنشوة محبَطة، أدرك أن ذلك أيضًا يفشل، وأن الأمر كله حيلة متقنة احتلت فيها على نفسي، وأن ما يجعل البشر متفردين هو قدرتهم على الإحساس بخيبة الأمل. أشعر بقدر ضئيل من الرضا. (وعندئذ أنظر إلى قطتنا، وهي متكورة على الكرسي). مكتبة سُر مَن قرأ

~ * ~

إن القول بأنه كان من الأفضل ألا نُولد لا يغدو مؤثرًا إلا إذا كان موجهًا إلى أحد بعينه - وإلا فإن شخصًا ما سيكون عليه أن يأخذه على محمل شخصي.

~ * ~

صمت العالم. «ليست هناك حقًّا سوى مشكلة فلسفية واحدة، ألا وهي

الانتحار». هكذا يستهل كامو أسطورة «سيزيف»، ببيان له من الثقل ما كان له حين صدر كتابه في عام ١٩٤٢. وربما نضيف إلى سؤال كامو سؤالًا آخر: «هل يمكن للمرء أن يعيش الحياة ويكون مناهضًا لها؟»، إن العيش بهذه الطريقة - ناهيك بطرح السؤال - سوف يبدو مفجعًا ومضحكًا في آنٍ واحد معًا، فمثل هذه الحياة ستكون أيضًا عبثًا ونتاجًا لعالم صُنع على مثال صورتنا الذاتوية ومن دون إرادة منه غالبًا. وبالعودة إلى كامو مرة أخرى: «يولد العبث من رحم هذه المواجهة بين الحاجة الإنسانية والصمت اللامعقول للعالم».

~ * ~

التشاؤم هو أكثر الفلسفات التي يتعذر الدفاع عنها. إنه يتكلم، لكن ليس له حق المثول. وفي محكمة الفلسفة، ارتكب جريمة الحنث باليمين بمجرد وقوفه على منصة الشهود.

~ * ~

قائمة انطباعات (١). يعيش حاليًّا على سطح الكوكب تقريبًا ٧ مليارات نسمة[1]، وهو رقم قد يتضاعف بحلول نهاية القرن. ويخبرنا العلماء أن الكوكب حاليًّا يمكنه توفير موارد الإعاشة التي تكفي احتياجات ١,٥ مليار نسمة فقط.

إن قتامة بهذه الشدة يصعب تصديقها، حتى بالنسبة إلى متشائم.

~ * ~

(١) أعلنت الأمم المتحدة في أواخر عام ٢٠٢٢ أن عدد سكان العالم قد وصل إلى ٨ مليارات نسمة. (المترجم).

أحد أهم إنجازات فلسفة شوبنهور هو الطريقة التي يفرق بها بين الحماس والتفاؤل. وتشهد صفحات وصفحات من الشذرات والشظايا والملاحظات الواردة في أعماله المتأخرة على وجود شكل من أشكال التشاؤم الذي يكاد ينم عن حالة من الرضا والسرور.

~ * ~

الفلسفة الوحيدة التي تستحق المتابعة هي تلك التي تطرح أسئلة من دون أجوبة. وأي شيء من دون ذلك هو غرور. لكن هذا لا يمكن إثباته أبدًا - بحكم طبيعة الحال.

~ * ~

التشاؤم يغدو شكلًا من أشكال العدمية بقدر خلطه بين ادعاءين: العالم هو ذلك الذي لا وجود له، والعالم هو ذلك الذي لا ينبغي أن يوجد.

~ * ~

يوم الثلاثاء، في ساعات الصباح المتأخرة. أعكف على تحرير هذا الكتاب على الحاسوب. عمل مجهد ومضجر. أمنح نفسي قسطًا من الراحة، وألقي نظرة من حولي، وأفتح دفتري كيفما اتفق. يلفت نظري سطرٌ كنت قد نسخته (وإن كنت لم أهتم بذكر قائله): «والمرء كلما كثرت كتابته، قلَّ تفكيره». أيكون العكس صحيحًا أيضًا؟

~ * ~

كثير من شخوص دوستويفسكي مصابون بلعنة الوعي الحاد بنفاقهم، حتى وهم يصرحون به. وتعترف إحدى الشخصيات في رواية «الإخوة كارامازوف»:

> «غالبًا ما أجد لديَّ إصرارًا وحماسة من أجل خدمة الإنسانية، وربما من الوارد جدًّا أن أضحي بحياتي في سبيل إخوتي في الإنسانية، إذا ما طُلب مني ذلك فجأة لسبب ما، ولكني مع ذلك لا أطيق أبدًا العيش مع أي إنسان بغرفة واحدة ليومين... إنني أحب الإنسانية، ولكني لا أملك إلا الدهشة من نفسي حين أجدني: كلما زاد حبي للإنسانية جمعاء، نقص حبي للبشر أفرادًا...».

والأدهى من ذلك، يبدو أن الشهامة وكراهية البشر تسيران جنبًا إلى جنب: «أستطيع أن أكره أفضل الأشخاص في غضون أربعٍ وعشرين ساعة: فهذا يطيل الجلوس أكثر مما ينبغي وهو يتناول عشاءه، وذاك مصاب بزكام ولا ينفك يمخط أنفه...».

~ * ~

وصف شوبنهور الملهاة ذات مرة بأنها «جدية مخبأة في مزحة». والفلسفة هي عكس ذلك.

~ * ~

يجب أن أعترف أن تشاؤمي مؤقت - فالأشياء جميعها تنحو نحو الأسوأ (إلى أن يحدث العكس)، ويظل السبيل الأفضل هو لو أننا لم نولد (حتى يتغير ذلك)...

~ * ~

خمود فائق للطبيعة. ما يعرفه معظم قراء كتاب «خواطر» بسكال، ولكنَّ قلةً فقط هم من يعترفون به، هو أن بسكال لا يثير الاهتمام إلا حين يتزعزع إيمانه. ويقدم توصيفًا لا مثيل له في الفلسفة للأزمة الدينية. ويقول إنه من دون إيمان، لن يوجد سوى «ظلام دامس»... و«فضاءات موحشة من الكون»... و«لا أدري مَن جاء بي إلى العالم، ولا ما هو العالم، ولا مَن أنا»... ما أنا إلا «ظل لا يدوم إلا لحظة ثم لا يعود أبدًا»... وما إلى ذلك. ويقول بسكال، من دون إيمان فإن كل ما يبقى هو هاوية محدوديتي و«خمود فائق للطبيعة» هو الحياة.

ومع ذلك، فإن الشيء الواضح بالقدر نفسه في كتاب «خواطر» هو أن تشاؤم بسكال مؤقت، فيما إيمانه مطلق. ولا يمكن للمرء أن ينعت بسكال بأنه متشائم إلا بحذر شديد.

وعلى الرغم من ذلك، فإنني لا أفتأ أعود إلى كتابه «خواطر» بشكل مستمر، يحدوني أمل خفي في العثور لديه على إيمان مؤقت يفضي إلى تشاؤم مطلق.

~ * ~

الزهد. صياغة أخرى تعبر عن رأي شوبنهور: ما يكونه الموت للكائن الحي يكونه النوم للفرد. وعلى العكس مما قد يظنه كثيرون، فإن المتشائمين ينامون لا لكونهم مكتئبين، ولكن لأن النوم لديهم هو شكل من أشكال التمرين.

~ * ~

الشرانق الضجرة من العالم تقذف بنفسها علينا بعمق لا تستطيع عين

بشرية أن تبصره، ويوجد حولنا في هذه الليلة ألف مليون من هياكل حشرة اليراعة تتنفس شهيقًا وزفيرًا في وهجها الناجم عن احتراقها الطقوسي البطيء.

~ * ~

يعتريني شعور بالرهبة والدهشة، حتى من غباء المعاناة.

~ * ~

التفاؤل تعبير عن القلق.

~ * ~

كيركجور: «اشنُق نفسك، وسوف تندم على ذلك، لا تشنق نفسك، وسوف تندم على ذلك أيضًا، اشنُق نفسك أو لا تشنق نفسك، ففي كلتا الحالتين سوف تندم. تلك هي خلاصة كل فلسفة».

~ * ~

الأفضل بين جميع العوالم الممكنة. «التفاؤل هو المبدأ الذي يبرر وجود الشر في العالم عبر افتراض أن هناك كائنًا ليس كمثله شيء وكلي الكمال والخير والقدرة. ويأتي هذا التبرير مشفوعًا بإثبات أنه، على الرغم من كل التناقضات الظاهرة، فإن ما يختاره هذا الكائن كلي الكمال يجب أن يكون مع ذلك هو الأفضل بين جميع ما هو ممكن. ولا يُنسب وجود الشر إلى

اختيار الإله وقبوله، ولكن إلى الضرورة الحتمية المنبثقة عن أن الكائنات محدودة القدرة سوف تكون ذات عيوب جوهرية».

وهكذا لخص كانط موقف التفاؤل الفلسفي، الذي تجسد في عصره في نظرية لَيبنتس «العدل الإلهي» (١٧١٠). وانتقد كانط أيضًا مثل هذه الآراء، مشيرًا إلى أنه «ليس كل غلو في الرأي يستحق عناء التفنيد الدقيق». على الرغم من ذلك، في شروح محاضرته التي تعود إلى خمسينيات القرن الثامن عشر، كان يخطط لتخصيص أحد مقرراته لمسألة التفاؤل. وكان أبرز انتقاداته، بكل بساطة، هو عدم رجحان صحة ما أسماه ليبنتس «الأفضل بين جميع العوالم الممكنة». وكما يرى كانط، «إن مفهوم الأمثل بين جميع العوالم هو مفهوم متناقض ذاتيًّا». وبعد جيل من ذلك، سوف يخطو شوبنهور خطوة أخرى: «... وفي مقابل البراهين واضحة التعقيد التي ساقها ليبنتس لإثبات أن هذا العالم هو الأفضل بين جميع العوالم الممكنة، يمكننا حتى أن نسوق اعتراضات قوية وصادقة على البرهان القائل بأنه الأسوأ بين جميع العوالم الممكنة». هل هي خطوة بها شطط؟

~ * ~

عن الازدراء. كلمة مختصرة من نيقولا شامفور (١٧٤١-١٧٩٤)، وهو كاتب شذرات حاول الانتحار ذات يوم: «لكي يرى المرء الأشياء على وجهها الصحيح، يجب عليه أن يعطي الكلمات المعنى المعاكس لذلك الذي يعطيه لها العالم. كاره البشر، على سبيل المثال، تعني محب البشر...».

~ * ~

دعاء المتشائمين. لقد جربت علاجات الألم المزمن - جميعها بدايةً من

الوخز بالإبر وحتى الأشياء التي تبدو خيالًا علميًّا مثل تقنية الإطلاق النشط للعضلة الليفية وعلاج تنشيط النبض خارج الجسم. وخلال إحدى الجلسات، أدركت أن التشاؤم ليس نوعًا واحدًا بل أنواع عديدة، وهي تشكل نظامًا كاملًا من التصنيفات، والفئات والمسببات: تشاؤم أخلاقي (لاروشفوكو وشامفور وفوفينارجيز) وتشاؤم ميتافيزيقي وتشاؤم تاريخي وتشاؤم سياسي وتشاؤم أدبي (هويسمانس وكافكا وبيسوا) وتشاؤم رومانتيكي (بودلير) وتشاؤم بوذي (شوبنهور وأتباعه) وتشاؤم عملي وتشاؤم ديونيزي (نيتشه) وتشاؤم ديني (بسكال وكيركجور) وتشاؤم جدلي (أدورنو) وتشاؤم وجودي (دوستويفسكي وكامو وأونامونو) وتشاؤم خلاصي (المسيحية) وتشاؤم بطولي (انظر أيضًا: التشكك) وتشاؤم صحي (علم النفس الإيجابي) وما إلى ذلك.

وفي أثناء تعداد هذه الأعراض يتبادل الفيلسوف والطبيب الأدوار.

~ * ~

مقتطف من كتاب ميجيل دي أونامونو «الشعور المأساوي بالحياة»:

> «... ومن الشعور بالشفقة على حال الآخرين، وحال من يشاكلونك، وبدايةً بمن يشاكلونك أكثر، وبمن تعيش في أوساطهم، سوف ترتقي إلى الشعور بالشفقة على كل ما هو حي، بل وربما على ما ليس به حياة ولكنه موجود وحسب. فذلك النجم البعيد الساطع خلال الليل سوف ينطفئ ذات يوم ويصير غبارًا ويتوقف سطوعه ويتلاشى وجوده. وكما هي حال النجم الواحد، ستكون حال السماء المرصعة بالنجوم. يا لها من سماء مسكينة!».

محدودية أن تكون إنسانًا.

~ * ~

لقد أصبح من بديهيات الفلسفة أن الحياة من دون تجارب لا تستحق أن تعاش. ومن ناحية أخرى، لا شيء يضمن استمرارية الحيرة وعدم اليقين والشك مثلما تفعل اختبارات الحياة المستمرة - ناهيك بأن تكون الحياة «حياتي».

~ * ~

التشاؤم المنطقي (١). عادةً ما يُنظر إلى المفارقة باعتبارها مشكلة للفلسفة، ولا سيما تلك الفلسفات التي تدعي أنها نسقية. لكن في التشاؤم تصبح المفارقة (للمفارقة) أساسًا من أسسه. إن التشاؤم هو الفلسفة التي توضح أن كل فلسفة مآلها الفشل (برهانها الأول والأخير).

~ * ~

التشاؤم المنطقي (٢). لطالما فُهمت المفارقة باعتبارها تقوض تماسك الفلسفة. ومع ذلك، فإن المفارقة في تاريخ الفلسفة تمثل جزءًا جوهريًّا من التفكير الفلسفي. بل إن المؤرخين قد أطلقوا عليها أسماء، هي أسماء فلاسفة ماتوا منذ أمد طويل، ولا تزال أُحجياتهم تثري التفكير الفلسفي. هناك، على سبيل المثال، مفارقة إبيمينيدس. قال إبيمينيدس، وهو من جزيرة كريت، إن جميع أهل كريت كذابون... ثم هناك مفارقة يوبوليديس، وهي تأتي ببساطة في صيغة «أنا أكذب» أو «ما أقوله كاذب». يتواصل ذلك حتى العصر الحديث، وانظر إلى مفارقة برتراند راسل: هب أن مكتبة تقوم بإعداد قائمة بجميع كتبها، وأن هذه القائمة ستُوضع في كتاب أيضًا - هل يجب أن يُدرج هذا الكتاب نفسه ضمن القائمة؟

ويمكن للمرء من دون شك أن يستمر في مثل هذه الأمثلة، فهناك مفارقة

شوبنهور ومفارقة نيتشه ومفارقة كافكا ومفارقة برنهارد... فلسفة تقرر أن جميع الفلسفات مآلها الفشل - أليست هذه هي المفارقة التي ينطوي عليها التشاؤم؟

~ * ~

التشاؤم المنطقي (٣). إن ما يميز التشاؤم باعتباره فلسفة عن التشاؤم باعتباره موقفًا سلبيًّا هو أن الأول يحاول استخدام الاستدلال الاستقرائي، وينتقل دائمًا من الخاص إلى العام. ولا تكمن المشكلة في أن حياتي ليست ذات معنى وحسب، ولكن في أن الحياة كلها خالية من أي معنى. لكن هذا التمييز لا يصمد فعلًا. في نهاية المطاف، فإن الموقف السلبي للتشاؤم هو جانبه الأكثر دقة.

~ * ~

التشاؤم المنطقي (٤). غالبًا ما يُميَّز في الفلسفة بين المنطق الاستنباطي والمنطق الاستقرائي. يتضمن الثاني ادعاء الصدق عبر الانتقال من الخاص إلى العام («الكتابان أو الكتب الثلاثة التي قرأتها في الفلسفة هي كتب تبعث على السخرية، وبالتالي فإن جميع كتب الفلسفة تبعث على السخرية»). على النقيض من ذلك، فإن الأول يقوم على التحرك في الاتجاه المعاكس («كل إنسان سيموت، والفيلسوف إنسان، إذن الفلاسفة سيموتون»).

التفاؤل والتشاؤم، والإنسانية ومعاداة الإنسانية، وتشجيع الإنجاب واللاإنجابية - كل هذه الثنائيات تعتمد على تقديم المنطق الاستقرائي كما لو كان منطقًا استنباطيًّا. أمرٌ يُفرض عبر الالتباس.

~ * ~

التشاؤم المنطقي (٥). كثيرًا ما نوازن بين التفاؤل والتشاؤم وبين الإثبات والنفي على التوالي. ويجب أن نميز، بادئ ذي بدء، إثبات التفاؤل عن الإثبات في التفاؤل، تمامًا كما ينبغي أن نميز النفي في التشاؤم عن نفي التشاؤم نفسه.

وتنبثق عن ذلك عدة علائق. فمثلًا، يتناقض النفي في التشاؤم - أي الأشياء العديدة التي يقول لها المتشائم «لا» - مع إثبات المتشائم للتشاؤم نفسه (سواء كان نابعًا من فلسفة أو من مزاج معتل).

يبدو أنه، على مستوى الاتساق المنطقي، فإن التفاؤل يفوز في نهاية المطاف، لأنه حتى أشد غُلاة التشاؤم يجب، على أقل تقدير، أن يثبتوا التشاؤم ذاته.

لقد تركنا بديلًا آخر، وهو النفي المزدوج. ولكن مَن الذي قد يعنيه أن يقول «لا» لأشياء كثيرة ولكل شيء بما في ذلك التشاؤم ذاته؟

~ * ~

التشاؤم المنطقي (٦). يحلم المتشائم بنفي من دون إثبات. وما ينتج عادةً عن ذلك هو سلبية ليست سالبة.

~ * ~

التشاؤم المنطقي (٧). يكتب تيودور أدورنو عن شخصية المتحذلق قائلًا: «لا شيء يزعج مفكرًا مصممًا على ممارسة ما كان يُسمى سابقًا بالفلسفة، أكثر من رغبته، خلال نقاش، وربما أقول خلال جدال، في أن يكون على صواب». أنا أتفق مع ذلك تمامًا. لكن كان عليه أن يكون مدركًا للنفاق الكامن وراء مثل هذا القول. أقول هذا لأنه، بعد بضع جمل، يضيف: «حين ينخرط

الفلاسفة، المعروف عنهم أنهم يجدون صعوبة في البقاء صامتين، في حوار، فإن عليهم أن يحاولوا دائمًا أن يخسروا النقاش، ولكن بتلك الطريقة التي تدين خصومهم بالكذب».

~ * ~

التشاؤم المنطقي (٨). التحليل هو الأفق بين الفهم والارتباك.

~ * ~

التشاؤم المنطقي (٩). لقد افتتنت بالمنطق الفلسفي مؤخرًا، ويُعزى ذلك في الأغلب إلى رؤية جوتلوب فريجه - ومفادها أن المنطق لا يمت بصلة لسمات التفكير البشري... رؤية فريجه...

~ * ~

التشاؤم المنطقي (١٠). ألمح فتجنشتين ذات مرة أن الفلسفة الجادة والحيوية يمكن صياغتها كليًّا في صورة نكات. ولا يكتشف الفلاسفة المتشائمون ذلك إلا بعد فوات الأوان.

~ * ~

التشاؤم المنطقي (١١). التضحية بالوضوح في سبيل الدقة.

~ * ~

التشاؤم المنطقي (١٢). «عن الصمت والظلام اللذين يحيطان بالقوانين». (جوزيف جوبير).

~ * ~

لا يمكن للمتشائم أن يكون سياسيًّا قَطُّ - أو إن شئنا الدقة، لا يستطيع المتشائم أبدًا أن يرتقي إلى متطلبات ما هو سياسي. (ومع ذلك، يتصور المرء شعارات المتشائمين كما يلي - «تخلوا عن جميع القضايا!» أو «ما كان لها أن تكون»). إن المقاومة والتمرد والثورة والاحتجاج والمنع، هي جميعها أفعال تقع خارج نطاق النظرة التشاؤمية للعالم. والمتشائم هو الأكثر عرضة للازدراء بين الرافضين، بل يُنظر إليه حتى بوصفه دخيلًا على الامتناع والرفض والأشكال الثمينة من الرفض البارتلبي[١]. وقبل كل شيء، لا يقدر المتشائم على الانتحار، وهو حل الحلول الذي يخلق أفقًا حتى لدى أشد غلاة الوجودية. ومن المفارقة، أن الكراهية العميقة التي يحملها المتشائم للبشر هي ما تبقيه على قيد الحياة. وعلى الرغم من أنه يشعر بالضجر من كل وقائع الحياة والأحياء المفرطة في بشريتها، فإن المتشائم يعي أيضًا أن الانتحار لا يقدم حلًّا - وأن الانتحار لا حل له. ويكتشف المرء أن ذاته منفصلة عن العالم (عالم يغدو المرء فيه عالقًا وكأنه فريسة) وفي الوقت نفسه ينخرط فيه. ويغدو الموت ببساطة شكلًا آخر أكثر خفاءً من أشكال الدراما البشرية (المأساة والتأبين ومساحيق التجميل الجنائزية للعشاء الرباني). وقد أدرك ذلك كلٌّ من شوبنهور وسيوران - وكذلك فعل بيكيت أيضًا، والعديد من مقدمي الكوميديا الارتجالية. والمرء ينتحر لا لأنه

(١) الإحالة هنا إلى رواية هرمان ملفل الشهيرة «بارتلبي النسَّاخ» التي تحكي قصة موظف يرفض دائمًا كل ما يُطلب منه بقوله «أُفضل ألا أفعل». (المترجم).

يريد أن يموت ولكن لأنه ميت بالفعل... وفي هذه الحالة يكون الانتحار عملًا لا يساوي مشقة الإقدام عليه.

~ * ~

الأشخاص الذين يشتكون لا يساعدون أحدًا أبدًا - هذه عبارة مستهلكة. ولكن إن صحت، فمن الصحيح أيضًا أن الأشخاص الذين يساعدون الآخرين دائمًا لا يشتكون أبدًا، وهذا أمر لا يقل إزعاجًا.

~ * ~

سيوران. يصعب أن نجد كاتبًا آخر يثق كل هذه الثقة في شكوكه. اليأس لدى بسكال والسوداوية لدى كيركجور، كان يخفف من وطأتهما إيمانهما. وتشبث شوبنهور بفلسفته، على الرغم من أنها كانت منهارة، مثلما تشبث نيتشه بحماسته الراسخة للحياة، على الرغم من أنها كانت تنبثق من جسد منهار. ماذا بقي لمفكر مثل سيوران أن يفعله، إلا أن يتخلى عن كل شيء؟

~ * ~

تلك النكتة لم تعد تُضحك بأي حال[1]. ليس أسوأ من متشائم شاب إلا متفائل عجوز، فالمتشائم هو متفائل واسع المعرفة، والمتشائم هو ذلك الشخص الذي ينظر في كلا الاتجاهين حين يعبر شارعًا ذا اتجاه واحد، والمتشائم حين يتعين عليه الاختيار بين شرين يختار كليهما، والمتشائم

(١) يحيل العنوان في هذه الشذرة إلى اسم أغنية شهيرة لفرقة «The Smiths» وهي «That Joke Isn t Funny Anymore». (المترجم).

يخشى أن يكون ما نعيش فيه هو الأفضل بين جميع العوالم الممكنة، وحين يمضي كل شيء على ما يرام، يصبح جليًّا لديه أنك قد أغفلت شيئًا ما...

إن النكات التي لا تضحك تُعاد تسميتها أحيانًا بوصفها حججًا فلسفية (على الرغم من أن التشاؤم في أعماقه نادرًا ما يتضمن هذه الفروق).

~ * ~

نفعٌ سيئ. بقدر ما يَعُد التشاؤم نفسه «فلسفيًّا»، فإنه يتخيل نفسه منيعًا على متطلبات المنفعة. لكن ليست هناك فلسفة تفلت تمامًا، مهما حاولتْ، من إغراءات المنفعة. وبالتالي من الممكن أن يكون التشاؤم نافعًا للغاية في الواقع، إن لم يكن نبيلًا على المستوى الفكري. ويمكنه أن يؤدي وظيفة نقدية، وفيها يتحقق نفع التشاؤم عبر قدرته على انتقاد الوضع الراهن (تشاؤم أدورنو وكامو وأونامونو)، ويمكنه أن يؤدي وظيفة أخلاقية، وفيها يصبح التشاؤم بمنزلة مرآة لبشرية مَردت على النفاق (تشاؤم بسكال وفولتير وليوباردي)، ويمكنه أن يؤدي غاية أسمى، وفيها يصبح نفي التشاؤم بمنزلة مقدمة إثباتية لشيء آخر، وفلسفة تتخطى نطاق الفلسفة ولم تتخذ اسمًا بعد (تشاؤم نيتشه وليف شيستوف وكيجي نيشيتاني).

في هذه الحالات الثلاث للتعافي، يصبح التشاؤم نافعًا من دون قصد.

~ * ~

مشكلة الفلسفة المعاصرة هي أنها تبدأ بالعجز، فيما ينبغي أن تنتهي به. نحن نفتقر حتى إلى مفهوم «الاستسلام» في أشد أشكاله بدائية.

~ * ~

«بطلان الوجود كله». هكذا لخص الفيلسوف الياباني كيجي نيشيتاني ذات مرة تشاؤم شوبنهور. كان نيشيتاني من أوائل المفكرين غير الغربيين الذين أخذوا اشتباك شوبنهور مع البوذية مأخذ الجد. لقد أدرك أن رؤية شوبنهور قدمت - أو حاولت أن تقدم - أساسًا فلسفيًّا لهذا «البطلان». بالنسبة إلى شوبنهور، هناك إرادة كونية عمياء ولا عاقلة تتجلى بطرق لانهائية، وتجعل المرء يتأرجح بشكل لانهائي بين السعي وخيبة الأمل. ويوضح نيشيتاني: «ما دامت إرادة الحياة موجودة، يظل الاستياء ينشأ من دون توقف من الداخل». وتصبح المعاناة هي النتيجة المحتومة. ومن ناحية أخرى، «حين يتحقق المراد ويُكبح الشعور بالاستياء مؤقتًا، يصبح ما تحقق عبئًا». وينشب السأم أظفاره. «والسأم هو رؤية متعمقة للطبيعة العدمية في جوهرها لوجودنا ووجود جميع الأشياء».

لكن نيشيتاني أدرك أيضًا أنه لا يمكن للمرء طرح مثل هذه الادعاءات إلا بالاتكاء على حجج لا ترقى لأن تكون فلسفية. ولا يحتاج المرء إلا إلى جهد بسيط كي يشك في صحة وجوده. صحيح، أن ذلك يمكن أن يحدث نتيجة لعملية طويلة وشاقة من التأمل الفلسفي، ولكنه أيضًا يمكن أن يحدث بشكل عفوي تمامًا. إنها فكرة يمكن صياغتها بشكل جيد، ولكنها أيضًا فكرة تحدث بشكل عرضي وعشوائي، ولا يتحقق الاعتراف بها إلا جزئيًّا. التأمل الذاتي كنتيجة لحادث مؤلم في الحياة. أو كنتيجة للملل والابتذال والفتور والسأم. لسبب أو بلا أي سبب على الإطلاق.

«لكن»، نيشيتاني يلمح قائلًا، «حين ينفتح هذا الأفق في قاع تلك الارتباطات التي تجعل الحياة تمضي وتستمر من دون توقف، يبدو أن شيئًا ما يتوقف ويبقى أمامنا... واللامعنى الذي يكمن متربصًا في قعر هذه الارتباطات نفسها هو ما يضفي معنى على الحياة». شكوك ضئيلة تسلم بسهولة إلى «الشك الكبير». في مثل هذه اللحظات، «يتحول وجودنا ذاته إلى علامة استفهام».

~ * ~

صرامة اللاجدوى. إن النظر إلى التشاؤم غالبًا باعتباره فلسفة، يبدو لي أمرًا صحيحًا ومستغربًا في آنٍ واحد. لماذا يتعين أن يكون لفلسفة تدور حول عبثية كل شيء منهج؟ ومع ذلك، فقد تصور فلاسفة التشاؤم مثل هارتمان وماينلاندر وسالتوس وحتى شوبنهور «تشاؤمًا علميًّا» (والاصطلاح هنا يعود إلى سالتوس) – لكنه يجب أن يكون تشاؤمًا علميًّا حتى النهاية، ويعمل على خير وجه ويدعم جميع ادعاءات الحضارة الإنسانية، التي يحدِق بها عالم لا يبالي يضم خصائص منبثقة وأنماطًا معقدة وفوضى عارمة من الأحاديات. ووصف أونامونو ذلك ذات مرة بأنه «انفضاض العقلانيين». إن مثل هذا التشاؤم العلمي، في تصوري، سوف تجمعه علاقة ما بفكرة الصرامة الفلسفية. ولكن إذا كانت هذه الصرامة تؤدي فقط إلى إدراك عبثيتها، فيبدو أن التشاؤم العلمي الذي حلم به سالتوس لا يمكن أن يكون له سوى منهج واحد: وهو أن الادعاء الصارخ واللافت بأنه كان من الأفضل ألا نولد غالبًا ما تسبقه شروح مطولة... أي، في النهاية، تقوضه نتيجته التي ينتهي إليها.

~ * ~

في التشاؤم الجسماني. في عيادة الطبيب. خلال محادثتنا، تبرز نهاية جملة: عوامل اعتلال اللفافة العصبية. يا لها من عبارة رائعة. أتذكر إلى أي مدى يُنظر إلى التشاؤم باعتباره قضية فكرية من طراز رفيع، سواء كان تشاؤم المرء تشاؤمًا أخلاقيًّا (نصف الكوب الفارغ) أو تشاؤمًا ميتافيزيقيًّا (الفراغ بوصفه سمة جامعة لكل كوب).

لكن ماذا عن التشاؤم الجسماني؟ من المدهش أنه لا يوجد في الفلسفة متشائمون تشاؤمًا جسمانيًّا كُثر. وأي شيء أكثر حتمية من انهيار الجسد، ومن المرض والأوجاع والآلام، ومن الأنين المتقطع الذي يضعضع كل مفصل وعضلة وكل شيء؟ أليست الجثة هي التعبير النهائي لهذا النوع

من التشاؤم؟ لقد دُفعت الجسمانية إلى النقطة التي تصبح فيها عدمًا مؤلمًا ومبهجًا. أهذا تفاؤل جسماني؟

~ * ~

وحدهم البشر لديهم الجرأة على تصور أشياء من قبيل «الحظ العاثر» أو «الحياة الهانئة». كيف يحدث لي ذلك بحق السماء؟ ويكتب ليشتنبرج: «شيء جيد أن نقص التفكير لا ينتج الأثر نفسه الذي يُحدِثه نقص الهواء...».

~ * ~

أعظم ما أبدعوا. ليس من قبيل المصادفة أن التشاؤم الفلسفي غالبًا ما يرتبط بالصيغ القصيرة في الكتابة - الشذرة والمقولة والأمثولة والشطية والتدوينة اليومية... ولكن إذا كان الأمر كذلك، فذلك ليس لأن المتشائم قد بلغ ذرى الحكمة الفلسفية حتى أصبحت تكفيه بضع كلمات ينتقيها بعناية. كلَّا، إن سر الصيغ القصيرة لا يكمن في الاشتغال الهائل عليها - بل في الكسل والفتور. والمتشائم لا يتبنى أي مبادئ بشأن حرفة الأدب أو في «التعبير عن ذاته» بوصفه كاتبًا. هناك ما يكفي، وما تم يكفي، وهناك ما يمكن تركه والتخلص منه والتخلي عنه، حين يصبح في كثرة الكتابة وطول الجلوس أذى جسدي كبير. هنا يكمن سر الصيغ القصيرة لدى نيتشه (الأسلوب بوصفه مرضًا) وكذلك لدى شوبنهور (الأسلوب بوصفه تعصبًا).

~ * ~

التشاؤم والصلاة. أشار شوبنهور ذات مرة أن الأديان ينبغي تصنيفها بناءً

على كونها تشاؤمية أو تفاؤلية، لا من حيث كونها توحيدية أو تعددية الآلهة. وبهذا المعنى، يجد شوبنهور أوجه تشابه عائلي بين المسيحية والبوذية (لإيمانهما بأن الوجود معادل للمعاناة وتفضيلهما حالة روحانية سابقة أو لاحقة في الوجود). وإذا نحَّينا فهم شوبنهور (أو سوء فهمه) لأديان العالم جانبًا، فيمكنني أن أرى مدى الإغراء الذي تنطوي عليه هذه المقاربة. ففي الواقع، يصعب على المرء ألا يَعُد كل دين تشاؤميًّا في أصله، وذلك أن فكرة الدين ذاتها ترتبط بالحط الشديد من قيمة العالم كما هو عليه.

كان ذلك بطبيعة الحال هو الانتقاد الذي وجهه نيتشه إلى الدين وإلى شوبنهور. ولكن إذا كان شوبنهور قد سخر من فكرة وجود عالم أفضل، في الأعلى أو في الخارج أو فيما وراء، فقد كان يرى قطعًا أن هذا ليس سببًا لإعادة تقييم العالم وإثباته كما هو عليه. وهذا يمثل جانبًا مما يجعل شوبنهور محبِطًا كفيلسوف (كان نيتشه في النهاية قد سئم شوبنهور – لقد آن أوان النهوض من الفراش مرة أخرى وإلى الأبد). يشعر المرء أن العالم موجود بالفعل بالنسبة إلى شوبنهور، وأنه بشع، وأن المرء لا يسعه عمل الكثير حياله. وبقدر ما تشير إليه الفلسفة، فإن ذلك لا يتطلب غالبًا معرفة فيلسوف. ولكن ربما يكون هذا هو المفتاح لفهم التشاؤم وافتتانه الغريب بالدين. إن ذلك الذي كان شوبنهور يسعى إليه حقًّا لم يكن دينًا من دون إله فحسب، بل دينًا من دون أمل – وهو شيء ليس باستطاعة الفلسفة على ما يبدو أن تقدمه.

~ * ~

لقد انتبه العلماء منذ زمن لمظاهر العشوائية وسرعة الزوال التي تميز الحياة على الأرض، ولا سيما حين تُقارن بنشأة الكواكب والمجرات

وموتها. وأضاف الفلاسفة، من ناحيتهم، تحذيرًا مفاده أنها سمة فريدة لدينا نحن البشر أن نقلق بشأن قصر الحياة وعشوائيتها، وأن نشغل خواطرنا بما أسماه نيتشه ذات مرة «تفشي الحياة». وبحسب نيتشه، لا بد أن يكون هذا، قطعًا، خدعة من نوع ما. «فرادتنا في العالم! للأسف، هذا أمر بعيد الاحتمال!».

ومع ذلك، في مواجهة مثل هذه الأزمات، طوَّر البشر أيضًا طرائق للمواجهة، وإحداها هي الثقافة البشرية، التي غالبًا ما تُوسَّع على نحو يتفوق فيه «الإنسان» على العالم، بل على الكون بأسره، الموجود كله لأجل نظرة منا في النجوم وأحلامنا المتمركزة حول ذواتنا وتساؤلاتنا التي تستشرف المستقبل. بل لقد تمكنا من جعل الكون شيئًا مبتذلًا.

تنام وتصحو، وتذهب إلى العمل ثم تعود إلى المنزل، وترسم الخطط، وتحدد الأهداف، وتحذف من قائمة مهامك اليومية أعمالًا أتممتها - يا لبساطة أن تكون إنسانًا. ويقول نيتشه مرة أخرى: «كم هي ضئيلة تلك اللذة التي يحتاج إليها معظم الأشخاص كي يروا الحياة جميلة...».

~ * ~

أوضح ليف شيستوف ذات مرة، بنبرة ضيق، أن الفلسفة تبدو قادرة على الحِجاج حول أي شيء ومن أي زاوية. وهو يحاجج قائلًا إن «مهمة الفلسفة هي أن تعلم البشرية كيف تعيش في اللايقين - البشرية التي تخشى اللايقين كأشد ما تكون الخشية، والتي ستظل تتوارى إلى الأبد خلف هذه العقيدة أو تلك... إن مهمة الفلسفة ليست بث الطمأنينة بين الناس، بل إثارة قلقهم».

ومن ناحية أخرى، يرى شيستوف أيضًا كيف يغدو الفلاسفة ثرثارين وكثيري الكلام كلما دنت آجالهم - وعلى سبيل المثال، اشتهر سقراط بأنه

كان يمضي الساعات في حوارات لا تنتهي مع تلاميذه ورفاقه وأصدقائه. «أيام الرجل العجوز، بل ساعاته أصبحت معدودة، ومع ذلك يتكلم ويتكلم ويتكلم...».

~ * ~

في كل نزهة أقوم بها، وفي كل رحلة أخرج فيها، لا أستطيع أن أتحاشى التفكير في كل ما يمكن أن يصيبه خلل ما. في بعض الأحيان يكون ذلك مجرد وهم - إذا تخيلت كل الأشياء التي يمكن أن يصيبها خلل ما سابقًا، فلن يقع ذلك الخلل. ولكن قبل أن يحدث أي شيء، أشعر بالنشوة فيما تجتاحني احتمالات لا حصر لها. ويبدو لي عالم الأسوأ مفتوحًا على مصراعيه، عالم يفيض بكل روعته الكارهة للبشر. للحظة عابرة ومخاتلة، أنسى أن «الأسوأ» هو ما يحدث لي.

~ * ~

في بعض المناطق النائية، توجد كائنات حية لا تجرؤ على العيش، على الرغم من أنها لا تتكون إلا من غبار نجمي وأشكال هندسية غريبة لا تبالي.

~ * ~

إرادة الموت. يرى كامو أن مشكلة الانتحار هي مشكلة فلسفية. في عالم لا يكون الإله أو العلم بمنزلة ضمان لحياة ذات مغزى، يقدم الانتحار نفسه باعتباره الشهقة الأخيرة لسيطرة الفرد المتداعية على نظام الأشياء.

عارض كامو الانتحار في النهاية، قائلًا إنه عجز عن العثور على شيء لم

يكن له أي وجود في الأصل. ويرى كامو أن الانتحار شيء يجب التغلب عليه بروح بطولية، وأن التغلب عليه يكون بقبول تناقضات الوجود وعبثيته. ولكن ما لم يفكر فيه قَطُّ هو الانتحار على مستوى الأنواع. كانت تلك هي رؤية الفيلسوف الألماني فيليب ماينلاندر الذي عاش في القرن التاسع عشر، ولم يكن يرى في البشر - وجميع فضائلهم المزعومة - سوى حادثة تطورية. وكما شوبنهور من قبله، وكما ميجيل دي أونامونو من بعده، أدرك ماينلاندر أن ذروة ما بلغه النوع البشري هو إدراكه لامعنى النوع البشري. بل إن ماينلاندر قد ذهب إلى أبعد مما ذهب شوبنهور، وخلافًا لما أشار إليه شوبنهور بطرحه مفهوم «إرادة الحياة العمياء»، حاجج ماينلاندر بأن هناك إرادة موت مبثوثة لا توجد في الأحياء جميعهم فقط، ولكن في جميع الكائنات، حية أو غير حية، أحياءً أو جمادات. وعلى هذا النحو، يقدم ماينلاندر جوابًا أخلاقيًّا غريبًا مفاده أنه بما أن الحياة البشرية في جوهرها لا معنى لها، وبما أن ثمة إرادة موت عامة تتدفق عبر كل ما هو موجود، فعلى النوع البشري أن يدع نفسه يتلاشى ببساطة - ربما بالدرجة نفسها من الاعتباطية التي برز بها إلى الوجود.

وبرأي ماينلاندر، ليست هناك كارثة مروعة، وإنما اختلالات مشؤومة تبعث على القلق وتجري في دراما عبثية لا يبالي بها العالم كما هو. ويقدم توماس ليجوتي[1] صياغة أخرى موجزة تلخص موقف ماينلاندر قائلًا: «... إدراك أن الحياة لا قيمة لها بوصفه إدراكًا يعادل قيمة الحكمة البشرية بأسرها...».

وهنا يكمن الرعب الأكبر الذي تمثله فلسفة ماينلاندر وهو أنه حتى لامعنى النوع يصبح له بعض المعنى. إنه رعب لا يمكن تهدئته إلا عبر

(١) كاتب أمريكي يتبنى نظرة تشاؤمية وعدمية في أعماله التي يصنفها كثيرون ضمن ما يُسمى بأدب الرعب الفلسفي. (المترجم).

انتحار غير متعمد يجري على مستوى النوع. أي أن يواصل المرء عيش حياته وحسب.

~ * ~

كيف يجب أن أعيش؟ ما الذي ينبغي عمله؟ هناك شعور تصبح فيه الفلسفة كلها تفاؤلًا اضطراريًّا.

~ * ~

رداء ليلي من حجر السبج وقد أُسدل على معظم أفكارنا الثمينة المستترة.

~ * ~

يظهر التشاؤم - ولا سيما التشاؤم «الفلسفي» - الذي يمكن اختزاله في تنهيدة عبر تأويلات كافكا لأسطورة بروميثيوس:

هناك أربع أساطير حول بروميثيوس:

في الأولى، قُيِّد على صخرة في جبال القوقاز لإفشائه أسرار الآلهة للبشر، فأرسلت الآلهة نسورًا كي تلتهم كبده، التي كانت تتجدد على الدوام.

في الثانية، متألمًا من مناقير النسور التي تمزقه، يلتصق بروميثيوس أكثر فأكثر بالصخرة حتى يغدو جزءًا منها.

في الثالثة، أصبحت خيانته في طي النسيان بعد انصرام آلاف السنين، وقد نسيتها الآلهة، والنسور، ونسيها هو نفسه.

في الرابعة، سئم الجميع من هذا العمل العبثي. وسئمت الآلهة وسئمت النسور والتأم الجرح سأمًا.

ولا تزال الصخرة التي تستعصي على التفسير موجودة. حاولت الأسطورة تفسير ما لا يمكن تفسيره. ونظرًا إلى أنها انطلقت من أساس من الحقيقة، فقد انتهت بدورها إلى ما لا يمكن تفسيره.

ذلك السأم - الذي هو التشاؤم - مرهق إلى حد يتعذر معه التفكير... مرهق إلى حد يتعذر معه أن يستمر...

~ * ~

مسلخ للأرواح. ما مِن أحد أفصح عن شك وجودي كما فعل بسكال، فالشك لديه منبث ومبهم، ويحصر المرء في نوع من الانسداد الكوني المخيف. وعلى الرغم من مسعاه الجاد والصادق في دفاعه عن الدين، فإن شك بسكال الكئيب هو ما تردد صداه لدى مفكرين لاحقين من أمثال نيتشه وسيوران، وهو صدى لا يزال يتردد حتى اليوم. وما مِن أحد استفاض بهذا القدر في تأمل الارتباط الرهيب بين الروح والجسد الذي ينبثق عنه المخلوق البشري: «تخيل عددًا من الرجال في الأغلال، وجميعهم محكوم عليهم بالإعدام، وفي كل يوم يُذبح بعضهم على مرأى من الآخرين، ويرى الباقون مصائرهم في مصير أقرانهم، وينظرون بعضهم إلى بعض نظرات أسى وقنوط وهم ينتظرون أن يحين دورهم». تبدو هذه الصورة الوحشية وكأنها مقتطعة من شعر إدجار آلان بو أو أعمال هوارد فيليبس لافكرافت. ويختتم بسكال قائلًا: «تلك هي صورة الحالة البشرية».

تصبح الصورة أشد بشاعة حين ندرك أن بالإمكان فهمها حرفيًّا أو مجازًا.

~ * ~

ليست هناك فرصة أنسب للتشاؤم من التفاؤل.

~ * ~

الصدع بين عبارة «كما هو عليه» وعبارة «كما لو أن».

~ * ~

إن رجحان وقوع الأسوأ في ذاته - من دون تجربة، هو تشاؤم ساذج...

~ * ~

لقد أصبح بديهيًّا في الحضارات البشرية أن الأسئلة التي لا جواب لها هي الأسئلة الأعمق، كما أن المشكلات التي لا حلول لها هي الأكثر استنفارًا للتفكير. ربما لن نعرف أبدًا ما معنى الحياة، أو ما يميز البشر عن الحيوانات - والغابات التي ربما تسقط فيها الأشجار في غيابنا قد تلاشت منذ أمد طويل، وتحولت إلى كتب تحوي مقولات فلسفية يكتنفها الغموض.

إن الرهان الذي تطرحه الحضارة البشرية عبر الفلسفة والفنون والموسيقى، هو أنه في مقابل كل حد تبلغه المعرفة البشرية، هنالك مستودع مكنون، تُحفظ فيه المشكلات التي لا حل لها والأسئلة التي لا جواب لها بوصفها تمثل جوهر ما يعنيه أن تكون إنسانًا يعيش ضمن عالم بشري. ونتاج ذلك هو إيجاد عزاء ما، أي ارتياح نابع من أن هنالك دائمًا شيئًا أكبر، أو على الأقل هنالك شيء أكثر من ذاتي. لا أعرف الجواب وقطعًا ليست لديَّ أي حلول، ولكن ربما هنالك أحد ما، في مكان

ما يعرف الجواب ولديه الحل، أو ربما سوف تطرح الأجيال القادمة الأسئلة التي لا جواب لها بطرق جديدة، مما يجعل استمرار الحوار العظيم أمرًا ممكنًا.

ولكن انطلاقًا من هذه الحالة أيضًا تنمو الحضارة البشرية وتتكاثر، مثل أميبا بانجلوسية[١] ومملوءة برطانة غير مفهومة. هنالك دائمًا المزيد الذي يمكن قوله، أو الذي يمكن قوله بشكل مغاير، أو قوله بصوت عالي الطبقة، أو في سجل الطيور والخفافيش، أو في النهاية، عبر خليط متنافر من النغمات يتجاوز نطاق السمع تمامًا. الحضارة البشرية: هي نوع من الطنين المتواصل في الآذان.

~ * ~

تواضع زائف. كتب نيتشه ذات يوم: «الشذرة هي شكل من أشكال الخلود، وطموحي هو أن أقول في عشر جمل ما يقوله كل أحد غيري في كتاب – وما لا يقوله كل أحد غيري في كتاب». وبعد عقود من ذلك، سوف يكتب كارل كراوس: «هناك كُتَّاب يمكنهم التعبير عبر عشرين صفحة فقط عن أمور أحتاج أحيانًا إلى سطرين كاملين لقولها».

~ * ~

بالنسبة إلى المتشائم، الأيام السعيدة قليلة ومتباعدة... وغالبًا ما لا تستحق

(١) الاشتقاق الوصفي هنا يحيل إلى «بانجلوس» وهو اسم الشخصية الشهيرة في رواية «كانديد» للكاتب والفيلسوف الفرنسي فولتير، وخلال الرواية يُعرف بانجلوس بإفراطه في التفاؤل حد السذاجة. (المترجم).

العناء أبدًا. وتصبح أهون المطالب مثل ألا يزعجك أحد وأن تنعم في هدوء بفنجان قهوة طيب المذاق، وكأنك تطلب أكثر مما ينبغي لك.

~ * ~

حتى تلك الأفكار الأكثر فخامة تموت، تذبل في صمت وسط كم اللامبالاة التي يبديها جسدنا وأعصابنا وعظامنا الفانية.

~ * ~

تفاؤل التشاؤم. بالنسبة إلى المتشائم، ليس هناك ما هو أشد ترويعًا - أو أدعى للحسد لديه - من الأشخاص السعداء، الأشخاص الذين يمارسون حياتهم اليومية ويغفلون في سعادة عن كل صنوف المصائر المشؤومة التي تسكن كل لحظة من لحظات الحياة. كل نفَس هو انتهاء وكل حركة تذهب هباءً وكل ولادة هي جريمة. ويواسي المتشائمون أنفسهم زيفًا بالتأكيد أن هذا الوعي هو الثمن الذي يجب على المرء دفعه كي يبلغ درجة أرقى من درجات الوعي.

~ * ~

عقلانية باردة. أتناول غداءً مع كلٍّ من «ر» و«ر»، أسفل قوس مقبب من النجوم. يتطرق حديثنا إلى تطورات العلوم. أدرك أن الأهمية الحقيقية الوحيدة للعلوم، لدى المتشائم، تكمن في قدرتها على الكشف عن ضآلة أن تكون إنسانًا. (أعتقد أنهما سيوافقاني الرأي، لكنَّ أحدًا منهما لن يستخدم كلمة «تشاؤم»). وفوق ذلك، يحلم المتشائم خُفية بعلم يُكرِّس

لإثبات ضآلة شأن كل ما في الوجود. (ألا يكتسب مثل هذا العلم عندئذٍ طابعًا دينيًّا؟).

~ * ~

نحن الذين نعاني، ونحن الذين يعاني بعضنا بعضًا، ونحن الذين نعاني العالم الذي أُلقي بنا فيه. أما أن العالم يناصبنا العداء فهذا أمر عارض.

~ * ~

قائمة انطباعات (٢). يرسل إليَّ «س» مقالًا من المجلة الأمريكية العلمية «ساينتفك أمريكان». وبطريقة لا أفهمها، كان العلماء يحصون عدد النجوم في المجرات المختلفة وكذلك معدل تكونها. الإحصاءات التي يقدمونها مذهلة، بل لا تصدق. يبدو أن معظم النجوم الموجودة حاليًّا قد نشأت منذ ما يتراوح بين ٨ و١١ مليار سنة. والأدهى من ذلك، أن معدل تكوُّن نجوم جديدة لا يصل حتى إلى ٣٪ مما كان عليه في ذلك الوقت. والنتيجة؟ أن نصبح في انعطافة قرن مستمرة، نجد فيها بوصفنا بشرًا مرة أخرى طريقة مستترة لوضع أنفسنا في مركز الكون - حتى لو كان ذلك يعني أن ثمن هذا الانغماس الوجودي في الذات هو تدهور طويل المدى وبطيء الإيقاع لذلك الكون نفسه.

~ * ~

حكمة مشَّائية. الغنائية والضحك والحزن والبغض والابتسامة الحلوة الممزوجة بمرارة اللاجدوى، اختلطت جميعها في الشك القاتم في الحياة

كلها (وقبل كل شيء الحياة البشرية) باعتبارها مزحة كونية مرهقة. يتحقق الأثر نفسه بالتعثر على رصيف مستوٍ أو السقوط من فوق الدرجة الأخيرة للسلم.

~ * ~

غالبًا ما تتبنى الكتابة التشاؤمية إحدى استراتيجيتين، وهما الأدبية أو الفلسفية. ولكلٍّ منهما أشكال محددة. في التشاؤم الأدبي، هناك اليوميات والاعترافات والأمثولة وحديث الذات كما هو لدى جوته في «أحزان فيرتر الصغير»، ودوستويفسكي في «رسائل من تحت الأرض»، وكنوت هامسون في «الجوع»، وكافكا في «يوميات كافكا»، وميلا هارتفيج في «هل أنا إنسان فائض عن الحاجة؟»، ولاديسلاف كليما في «معاناة الأمير ستيرننهوش» وبار لاجركفيست في «القزم»، وأوسامو دازاي في «لم يعد بشرًا»، وبوهوميل هرابال في «عزلة صاخبة جدًّا» وتوماس برنهارد في «اندثار»، وجانج يون جن في «لا أحد يرد»[1] وبيسوا في «اللاطمأنينة» (وهو كتاب أحمل له إعجابًا كبيرًا للغاية).

وفي التشاؤم الفلسفي هناك المقال والخاطرة والشظية، والأهم من كل ذلك الشذرة كما في «خواطر» بسكال المتناثرة و«دفاتر المسودات» لدى ليشتنبرج ويوميات كيركجور ودفاتر جوزيف جوبير وليوباردي وكامو ومقالات مونتني وشيستوف وشذرات شوبنهور وشظايا نيتشه وأدورنو وسيوران.

وفي الاستراتيجية الأدبية، تتشعب الأفكار وتُصنف وتوضع في الحسبان مجموعة لا حصر لها من الأحداث والتجارب والأفكار والمشاعر، وأما

(١) «لا أحد يرد» أو «No One Writes Back» هي رواية للكاتبة الكورية الجنوبية جانج يون جن. (المترجم).

في الاستراتيجية الفلسفية، فتضاف الأفكار وتتكثف عبر تجليات ومبادئ ونظرات في أفق الأفكار نفسها. وكلتاهما، مع ذلك، تتفقان على عدم الاكتمال الذي يُعَد سمة أساسية في التشاؤم، ويسودهما شعور بإحباط قوي من طرح الخطاب التشاؤمي في الأصل.

وفي أثناء عملية الكتابة، يستسلم التشاؤم لأنقاض تأملية تضم أفكارًا واضحة ومتماسكة - الفلسفة بوصفها خشبًا طافيًا.

~ * ~

علاقة نفس-جسدية وكون-جسدية. تخبرنا الأبحاث التي تتناول العلاقة بين العقل والجسد أن الجسد يمكنه أن يُظهِر متلازمات جسدية تترافق مع حالات عقلية ونفسية. ونحن ندرك ذلك يوميًّا استنادًا إلى تجاربنا مع الضغوط والأمراض. ولكن ما لا تخبرنا به هذه الأبحاث هو كيف يتخطى ذلك نطاق الجسد ويصل إلى العلاقة بين العالم والذات. إذا كان جسدي يعاني بالترافق مع عقلي، فلماذا لا يعاني العالم بالترافق مع ذاتي؟ انغماس في الذات وهو أيضًا الشكل النهائي للتعاطف مع ما هو غير بشري. والخيال الوحيد الذي يتيحه التشاؤم لنفسه هو حزن الكون.

~ * ~

نحن نغني للنباتات التي تزحف تحت الأرض وتندفع ونسألها عن أي طريق نسلكه. مسبحة من النجوم وملمس أعشاب البحر والنوم الذي كان هادئًا ويبدأ بتشكيل ظلنا.

~ * ~

«حياتي بائسة. الحياة كلها بائسة». «وجودي مُحبِط. الوجود كله مُحبِط». هناك منطق ثمين للتشاؤم، بل وأثمن من الكريستالات رائعة التصميم وذات الانحناءات. وهو يعتمد على امتلاك القدرة على - والاستعداد - القفز من الحالة المشروطة إلى المطلق... قفزة بأقل جهد ممكن. لا أحد حلل هذه القفزة كما فعل نيتشه. وتحتوي شظية مأخوذة من مقال نُشر بعد وفاته على هذه الافتتاحية:

> «في ركن بعيد من الكون، حيث تتدفق وتتألق مجموعات شمسية لا حصر لها، كان هناك ذات يوم نجم ابتدعت فيه حيوانات بارعة المعرفة. كانت تلك هي أشد اللحظات كذبًا وافتراءً في «تاريخ العالم» - ولكنها كانت لحظة واحدة. بعد أن تنفست الطبيعة بضعة أنفاس، أصبح النجم باردًا، وكان لا بد من موت الحيوانات البارعة».

في مقتطفات مثل هذه، يستحضر نيتشه تشاؤمًا كوكبيًّا، حيث يرتفع الإغواء الذي يمثله «الرفض» إلى مستوى النجوم والسديم والثقوب السوداء. وهو يستخدم أيضًا هذا التشاؤم استخدامًا ذكيًّا للتشكيك في أعظم افتراض على الإطلاق، وهو افتراض أن نكون بشرًا: «يمكن للمرء أن يختلق مثل هذه الحكاية من دون أن يوضح بما يكفي مدى البؤس والاستغلاق والتقلب والتيه والاعتباطية التي يبدو عليها العقل البشري في الطبيعة».

لم يظل نيتشه متشائمًا «مبتهجًا» وحسب، بل بات أيضًا متشائمًا ناقمًا، وهو المعادل الفلسفي للبصق: «كانت هنالك أبديات حين لم يكن الوعي البشري موجودًا، وحين ينتهي ذلك مرة أخرى، لن يحدث شيء».

إلى أي مدى يبدو كل ذلك بعيدًا عن قلق نيتشه إزاء القرحة المعدية وضعف الإبصار والأوجاع والآلام...

~ * ~

قال كانط، صاحب الكتاب الضخم والنسقي «نقد العقل المحض»، ذات مرة:

> «إن وضع الخطط غالبًا ما يكون نشاطًا ذهنيًا مترفًا ومدعاة للتباهي ومن خلاله يضفي المرء على نفسه أجواء العبقرية الإبداعية، ويطالب بما لا يستطيع أن يؤديه بنفسه، وينتقد ما لا يستطيع عمله على نحو أفضل، ويقترح ما لا يعرف أين يبحث عنه...».

هل كان يتحدث عن الفلسفة أم عن الحياة؟

~ * ~

نسأل جماع حزننا الكبير، والجزء الأوهن في أجسادنا، والنقطة الأضعف في أطرافنا الشبحية، والجزء الأقل مرونة، والجزء الأقل قابلية للتمييز في أنفسنا... إن كل ما هو ليس سماء الليل وليس سكون قاع البحر المجهول والمغطى بالأحجار الكريمة... يقدم بنهم صفات لا تبالي بها السماء ولا اليراعات ولا الجواهر.

~ * ~

غالبًا ما تشير الدراسات الأدبية التي تتناول دوستويفسكي إلى قدرته الثاقبة على سبر أغوار النفس البشرية الغامضة. لست أوافق هذا الرأي. بعد انتهائي من قراءة «الإخوة كارامازوف»، كان الإدراك الوحيد الذي لمع بداخلي هو أنها كانت، على نحو ما، مَضيعة للوقت. لكنني كنت أعني بذلك الإطراء. لا توجد لدى شخصياته سجايا حميدة، ولا يوجد منطق حقيقي وراء دوافعهم، ولا تترتب على أفعالهم عواقب حقيقية - ولا يوجد جوهر مكنون للروح الإنسانية، والإنسان هو أحقر ما في العالم والأضأل شأنًا: وتلك مضيعة

للوقت. هذه هي موهبة دوستويفسكي الحقيقية في الكتابة. ولكن على المرء أن يقرأه كي يدرك ذلك.

~ * ~

المتشائم هو شخص بارع بالمنطق ولديه استعداد لخيبة الأمل.

~ * ~

تتبدى الصلة بين التشاؤم والتصوف عبر نص مجهول المؤلف يعود إلى القرن الرابع عشر ويحمل عنوان «غيمة الجهل»: «لا يمكن لأي إنسان أن يفكر في الإله. ولذلك، فإن أمنيتي هي أن أترك كل ما يمكنني التفكير فيه وأختار لحبي الشيء الذي لا أستطيع التفكير فيه». إنني أحب ما لا أستطيع التفكير فيه. وإن كان المتشائمون نادرًا ما يكونون أسخياء في مشاعرهم.

~ * ~

«ليس بمقدوري أن أواصل، سأواصل»[1]. الاستسلام هو انتحار المنافق. في الاستسلام لا أموت، ولكني لا أتوقف عن الحياة. إذا أذعنت للحياة، فقد قبلت لا بالموت فقط، ولكن أيضًا باللاجدوى - بما في ذلك لاجدوى الموت. ما يتبقى بعد ذلك هو رقص لانهائي وآسر من الحركات والنظرات، واللذة الكئيبة التي يستشعرها المرء وقت النوم والخمود. ولإنهاء الأمور

(١) يأتي هذا الاقتباس في نهاية رواية صمويل بيكيت «اللامسمى». (المترجم).

حقًّا، وللتوقف عن الوجود حقًّا، سوف يكون على المرء أن يتخلى عن الحياة، لا أن ينهيها.

~ * ~

مزاج معتل (٢). في الزوايا المعتمة للفلسفة الأكاديمية المعاصرة، يناقش المرء مسألة هل كان الأفضل لو أنه لم يولد. من ناحية، يدافع «الإنجابيون» عن القيمة المتأصلة في الحياة البشرية - بل، في الحياة بأسرها (وتدعي الثانية صراعًا مع الأولى). ومن ناحية أخرى، يدفع «اللاإنجابيون» بأن التكاثر وجلب المزيد من البشر إلى العالم ليس عملًا ضارًّا فحسب، ولكنه عمل طائش. وتستمر النقاشات بلا نهاية في المجلات البحثية وخلال البرامج الحوارية الإذاعية.

إن إعلاء شأن «الحياة» فوق كل الظواهر الأخرى، وما يفترضه كلٌّ من الموقفين الإنجابي واللاإنجابي هو الفارق بين الأحياء وغير الأحياء - وهو نفسه نتاج للمعرفة البشرية والمصالح المكتسبة.

لكن ألا ينبغي أن يناهض اللاإنجابيون الحقيقيون الوجود ذاته كما يناهضون الحياة؟ إن هذا النوع من التشاؤم لن ينحاز إلى أي جانب في النقاشات الفاترة بين الفلاسفة حول البقاء والاندثار، والإنجاب ومناهضة الإنجاب، والحياة والموت. وبدلًا من ذلك، سوف يسلط الضوء على اعتباطية تلك التقسيمات ذاتها. وفي حده الأقصى سيقول التشاؤم «لا» بنغمة تحتية لا تحمل أي هدف للنفي. وقد يعتقد المرء أن ذلك سيؤدي إلى الصمت... أو على الأقل إلى الهدوء.

~ * ~

لم أكن قد تواصلت مع «س» منذ مدة، وكنت على وشك الاتصال به حين تلقيت رسالته عبر البريد الإلكتروني. يخبرني فيها أن أحد أصدقائه قد انتحر مؤخرًا. لقد شنق نفسه، ولصق شريطًا أسود على شكل حرف «X» اللاتيني على عينيه وفمه.

أُرسل إليه التعازي، لكن تظل الصورة المروعة للعينين والفم المغطاة بالأسود عالقة في ذهني. لا يمكنني التفكير في تعبير أشد تدميرًا للرفض الذي يمثله التفكير التشاؤمي - بل حتى موت المرء لا يكفي.

~ * ~

من الواضح أننا مصفوفون بطريقة كوميدية (كدت أقول «كونية» لا «كوميدية»)[1].

~ * ~

إن لامبالاة الغيوم، حين يُنظر إليها من فوق، تبدو لي حزينة وتبعث على الكآبة. إننا نعجز حقًّا عن فهم مثل هذه العواطف الغريبة لما هو لا عاقل (وهذا عجز يكفي).

~ * ~

التشاؤم هو تفاؤل انهزامي.

~ * ~

(١) يعتمد المؤلف هنا على التشابه الصوتي بين اللفظتين «cosmically» و«comically» في الإنجليزية واللتين تعنيان «كونية» و«كوميدية» على الترتيب. (المترجم).

حديقة الملذات[1]. يصف نيتشه، في سياق نقده للدين، الشعور بالاستياء لدى النوع البشري، وتوق المرء لأن يكون أحدًا آخر، وأن يوجد في مكان آخر، وأن يصبح شيئًا آخر: «في هذه التربة المستنقعية من ازدراء الذات، تُزهر كل الأعشاب السامة، وهي جميعها صغيرة للغاية، ومستترة للغاية، ومخادعة للغاية وعطنة بعذوبة شديدة. هنا تحتشد ديدان الحساسية والاستياء...»، وتلك حديقة.

~ * ~

لم تعد بي رغبة لمعرفة كيف فشلت ثورتكم. مرة أخرى.

~ * ~

كل ما أفكر فيه يبدو زائفًا وساذجًا. كل ما أشعر به يبدو مبتذلًا ومكتوبًا سلفًا. كل ما أراه من حولي يبدو وكأنه تمثيل إيمائي لا يتوقف ويبعث معناه على الضجر. التراجيديا تصبح هزلًا، والحياة المبهجة تبعث على البشاعة، وتملأني بالغثيان.

أن تدرك كل هذا يعني أن تعيش غربة بالغة تكاد تكون طمأنينة.

~ * ~

حويصلات الموت. هناك لحظات في كتابات فرويد تجعل المرء يشك

---

(١) عنوان هذه الشذرة مقتبس من اسم العمل الفني الشهير للفنان الهولندي هيرونيموس بوش «حديقة الملذات الأرضية» وهي لوحة يصور خلالها قصة الخلق ثم الحياة في أوج زخرفها وزينتها ثم فسادها بفعل الإنسان. (المترجم).

في أن الإنسان ذاته ما هو إلا عَرَض من أعراض مرض كوني شديد الخفاء والإبهام، ودمية تحركها دوافع وغرائز وقوى أخرى غامضة تسبق وصول الإنسان إلى وعي ذاتي خادع أو حتى وهمي.

«إذا كان لنا أن نعتبرها حقيقة لا تعرف أي استثناء وهي أن كل شيء حي يموت لأسباب داخلية - ويغدو مرة أخرى غير عضوي - فسنضطر عندئذ إلى القول إن «هدف الحياة بأسرها هو الموت»، وإذا نظرنا إلى الوراء، فسنقول إن «الجمادات وُجدت قبل الكائنات الحية»»[1].

وعلى سبيل المثال، في كتابه «ما وراء مبدأ اللذة»، ينتقد فرويد بشدة الافتراض القائل إن حياة الإنسان محكومة بالسعي إلى تحقيق اللذة وتجنب الألم، وتحقيق السعادة وتجنب التعاسة. ويشير إلى أنه «يجب أن يكون واضحًا أنه إذا أردنا الدقة فإن من الخطأ الحديث عن هيمنة مبدأ اللذة على مسار العمليات العقلية. إذا وجدت مثل هذه الهيمنة، فإن الغالبية العظمى من عملياتنا العقلية يجب أن تكون مصحوبة باللذة أو تؤدي إلى اللذة، في حين أن التجربة العامة تتعارض تمامًا مع أي استنتاج من هذا القبيل». إن السعي إلى تحقيق السعادة في جوهر مبدأ اللذة هو، على حد تعبير فرويد، «في شقاق مع العالم بأسره، ومع العالم الأكبر بقدر ما هو مع العالم الأصغر». على الرغم من ذلك، يسأل فرويد، «أي نفع يعود علينا من حياة مديدة إذا كانت حياة صعبة وتخلو من أي بهجة، وإذا كانت حياة تفيض بالشقاء إلى حدٍّ لا يسعنا معه إلا الترحيب بالموت بوصفه مخلصًا؟».

إذن ما الذي يجعلنا نستمر؟ بالقطع، ليس «نحن» ما يجعلنا نستمر، وليس أي شيء فطري في داخلنا أو فيما نسوقه من تبريرات ملتوية لدوافعنا وأفعالنا، بل هو شيء أشد التباسًا، إنه «دافع متأصل في الحياة العضوية يسوقنا للعودة إلى حال سابقة للأشياء كان الكائن الحي قد أُرغم على التخلي عنها تحت

(١) الاقتباس هنا من المراسلات المتبادلة بين عالمَي النفس الشهيرين سيجموند فرويد وكارل يونج. (المترجم).

ضغط قوى خارجية مقلقة». وهو ما يُسمى بغريزة الموت. ويعرِّفه فرويد أيضًا على أنه «تعبير عن القصور الذاتي المتأصل في الحياة العضوية»، ويؤكد طبيعته البدائية: «... لا بد أنه حال قديمة للأشياء، وحال أولى غادرها الكائن الحي في هذا الوقت أو ذاك ويسعى جاهدًا للعودة إليها...». إن انجذاب العضوي إلى غير العضوي، والحيوي إلى فاقد الحيوية، والحي إلى الميت – هو الانجذاب إلى شيء «قديم».

في هذه اللحظات، يتغير الإنسان تغيرًا تامًّا، فتظهر الحضارة الإنسانية بأسرها باعتبارها عُصابًا دماغيًّا كبيرًا، تتجلى تحته صدمة جغرافية أعمق ومتعددة الطبقات عبر طرق لا حصر لها، بدايةً من الكائنات الهياجية وحيدة الخلية إلى الوعي الذاتي الراكد والمتدفق لدى الإنسان.

في مقالته، يبدو فرويد مدركًا بشدة، بل حتى بقلق للنبرة التشاؤمية التي تتخلل نظريته: «ربما يكون عسيرًا أيضًا، على الكثيرين منا، التخلي عن الاعتقاد بأن هناك غريزة تفعل فعلها في البشر وتجذبهم جذبًا نحو الكمال، وأنها هي التي حملتهم إلى مكانتهم الرفيعة الراهنة فيما بلغوه من إنجاز فكري وتسامٍ أخلاقي، والتي يُتوقع أن ترعى مسيرة تطورهم حتى يصبحوا بشرًا خارقين. ومع ذلك، ليس لديَّ إيمان بوجود أي غريزة داخلية من هذا القبيل ولا أستطيع أن أفهم كيف يجب الحفاظ على هذا الوهم الخيِّر». (إضافة: «لا يقتضي التطور الراهن للبشر، حسبما يبدو لي، أي تفسير مغاير لذلك التفسير الخاص بالحيوانات»).

~ * ~

قال روائي معاصر – لا يحضرني مَن هو – ذات مرة: «أنا أكتب كي أدين البشرية». لكن أن يملأ المرء صفحات وصفحات بالشخصيات والدوافع وأدوات السرد ووصف الحالات الداخلية فهذا يبدو عملًا مبتذلًا وبلا

فائدة مثله مثل الإجراءات القضائية نفسها. ومثل ذلك الأمر يبدو أنه مضيعة للوقت - حتى بالنسبة إلى المتشائم.

~ * ~

في عام ١٩٠٤، نشر الأديب التشيكي لاديسلاف كليما الذي عاش حياته متصعلكًا أحد مؤلفاته الفلسفية القليلة، وهو كتاب ضئيل الحجم ولكنه جليل الشأن بعنوان «العالم وعيًا ولا شيئًا»(١). ولأنه كان يستلهم نموذجه من شوبنهور، فقد جاء تشاؤم كليما رافضًا حتى لتلك السلوى التي يجدها الفيلسوف الألماني في الموسيقى والتصوف. وبالنسبة إلى كليما، لم يكن هناك سوى «إرادة» عمياء غير بشرية تقود كل ما هو موجود، سواء أكان حيًّا أو غير ذلك، نحو حالة من اللاوجود. وعلى الرغم من الاستحواذ الشديد لهذه الفكرة على كليما، فإنه يتنصل من الكتاب بعد نشره، ونادرًا ما يأتي على ذكره لأحد. ويكتب لاحقًا: «وإلى يومنا هذا لا أدري حتى ما إذا كان هناك كلب قد نبح عليه».

~ * ~

مقبرة عائمة للبشرية. كثيرًا ما يشير رواد الفضاء إلى رؤيتهم الأولى للأرض من الفضاء بوصفها تجربة غيرت حياتهم. وتوصف هذه التجربة التي غالبًا ما يطلق عليها اسم «تأثير الرؤية الكاملة»، بأنها درس لنا نحن ممن ليسوا رواد فضاء حول الوحدة المدهشة لجميع أشكال الحياة على هذا الكوكب.

---

(١) في عنوان كتابه «The World as Consciousness and Nothing»، يحاكي كليما كتاب شوبنهور الأشهر «العالم إرادةً وتمثلًا» (The World as Will and Representation). (المترجم).

ومع ذلك، كان نيتشه قد أعطانا بالفعل نسخة مغايرة لتأثير الرؤية الكاملة، قبل مدة طويلة من تسلل أولى الرئيسيات إلى الفضاء الخارجي بطريقة غامضة: «إن علماء الفلك، الذين يُتاح لهم أحيانًا بالفعل مجال رؤية منفصل عن الأرض، يلمحون إلى أن قطرة الحياة في العالم لا قيمة لها...».

ليس ذلك فحسب، بل إن البشر فريدون في تحقيق التجسيد الحرفي لتأثير الرؤية الكاملة في الفلسفة - المعروف باسم «المسافة الحرجة». كلما ابتعدنا عنها، يصبح العالم أقرب، وكلما أصبح أقرب، يصبح من الأسهل إدارة معجزة ضبط النفس. بالنسبة إلى نيتشه، هذه هي النتيجة بعيدة المدى لتأثير الرؤية الكاملة - وهي طمس العالم عبر التحديق إليه، نحن رواد الفضاء القلقون: «لا يكاد أكثر علماء الفلك نزاهة يرى الأرض من دون حياة إلا باعتبارها مقبرة متلألئة وطافية للبشرية».

~ * ~

ليوباردي: «لا توجد علامة أوضح على افتقار المرء إلى الفلسفة أو الحكمة من تمنيه أن تكون الحياة بأسرها حكمة وفلسفة». وهنا يمسي التشاؤم والمثالية رفيقَي فراش مزعجين.

~ * ~

في \الإماتة. أقضي عطلة نهاية أسبوع أكتوبرية في المنطقتين «هـ» و«د» شمال الولاية. تغطي أوراق الشجر الكثيفة والهشة بريقًا صامتًا من ألوان البرتقالي والأصفر والأحمر. بعد أن ثملنا، أغط أنا و«پ» في النوم على أنغام موسيقية هادئة. في منتصف الليل، نستيقظ فجأة لنرى خيالات شبحية لغزلان بالخارج، ترعى بصمت مع اقتراب ساعة الفجر الباردة. في الصباح

الباكر، أسمع لحنًا للقديسة «هيلدجارد فون بينجن» على الاستريو، فيما أجلس على البساط الكبير المهترئ على الأرضية الخرسانية، ممددًا أطرافًا تؤلمني. قررت أنا و«پ» النزول للسباحة في مياه البركة الباردة التي تغذيها الينابيع، وتملأها من أطرافها أوراق زنبق مهتزة تشبه المجسات. نظل نسبح حتى نفقد الشعور بأقدامنا.

~ * ~

هاوية فندق جراند هوتل. في أواخر ثلاثينيات القرن الماضي، وصل تيودور أدورنو الذي أجبره النظام النازي على العيش في المنفى والرحيل إلى نيويورك، قبل أن يستقر به المقام في نهاية المطاف في كاليفورنيا. وهناك، ألَّف الفيلسوف الذي ارتبط اسمه بمدرسة فرانكفورت الفلسفية، بالاشتراك مع زميله «ماكس هوركهيمر»، كتاب «جدل التنوير» الذي يحوي بعضًا من أشد الإدانات ذات الطابع الساخر والتهكمي التي وجهت للثقافة الغربية خلال القرن. ولا يمكن أن تكون المفارقة الكامنة في حقيقة أن «أدورنو» كان يعيش على مرمى حجر من استوديوهات «والت ديزني» قد خفيت عليه. كما لم تفت الفيلسوف الماركسي المجري «جورج لوكاتش»، الذي اتهم بدوره أدورنو بأنه «اتخذ من هاوية فندق جراند هوتل بيتًا... وهو فندق رائع جُهز بكل أسباب الراحة ويقع على شفير الهاوية والعدم والعبث. ولا يمكن للتأمل اليومي في الهاوية في الفترات الفاصلة بين وجبات الطعام الشهية أو العروض الترفيهية، إلا أن يعزز الاستمتاع بما يقدمه من أساليب الراحة المهيأة بعناية».

ليت جميع الفنادق كانت بهذا العمق، وليت جميع الفلاسفة بلغوا من الاستسلام هذا الحد.

~ * ~

دليل إرشادي للأسلوب: النكتة الرديئة والمذكرة والمرثية.

~ * ~

سطر من إحدى روايات توماس برنهارد:

«أستطيع القول في الواقع إنه كان بائسًا في تعاسته لكنه كان سيصبح أشد بؤسًا فيما لو فقد سعادته بين عشية وضحاها، وفيما لو سُلبت منه سريعًا، وهو دليل آخر على أنه لم يكن في الأصل تعيسًا قَطُّ بل سعيدًا، وذلك بسبب تعاسته وبفضلها، حسبما أتذكر».

~ * ~

يبدو أن للتشاؤم علمًا يدعمه على الرغم من كل شيء. لقد قرأت للتو مقالًا عن مجموعة من الأطباء النفسيين - في ألمانيا - يُظهِر بحث أجروه أن الأشخاص من أصحاب النظرة التشاؤمية «القاتمة» يعيشون عمرًا أطول وحياة أفضل ويكونون أكثر تأقلمًا. بل يذهبون إلى أبعد من ذلك ويشيرون إلى أن الأشخاص الذين يتبنون مواقف تفاؤلية يكونون أكثر عرضة للإصابة بالأمراض والاكتئاب والموت المبكر. كنتُ إذن أتبع نظامًا صحيًا من دون أن أدري.

~ * ~

حجة معارضة للإنجاب: «... النوع البشري يحتاج إلى نفسه باعتباره نوعًا بشريًّا...».

~ * ~

نحن مرقطون بزوائد غريبة وتجمعات من الأحجار والجرافيت الهادئة والمخبأة في أعماق تضخم ازدراءنا للعالم.

~ * ~

يمكن القول إن نيتشه كان أول فيلسوف يدفع التشاؤم إلى نقطة الانهيار: «التشاؤم لا يبرهن عليه إلا عبر إنكار الذات لدى متشائمينا الأعزاء...»، ولكن كيف نميز بين الإنكار والإشباع؟

~ * ~

مرض التفكير. في مقالاته وشذراته ومذكراته، يبدو شوبنهور صريحًا - وحتى بديهيًّا - حيال تشاؤمه. ويقول: «لا بد أن الحياة البشرية غلطة من نوع ما»، من دون أن يورد مزيدًا من التفسير أو النقاش أو الأسباب. وكأنه يتحداك أن تقول بعكس ذلك... ثم تعيش حياتك.

ولكونه لا يقنع بمثل هذه البديهيات، يتابع شوبنهور كلامه. حتى لو افترضنا أن الحياة ذات معنى، بموجب هذا الإدراك الذي يقول إن الحياة لا معنى لها - فحتى ذلك لن يرقى إلا إلى رفرفة عابرة وغير ذات قيمة لوجود يقع بين العدم الذي سبق حياتي والعدم الذي يتلوها: «لأن لانهائية ما بعد الوجود من دوني لا يمكنها أن تكون أشد ترويعًا من لانهائية ما قبل الوجود من دوني، لأن الاثنين لا يميزهما أي شيء سوى حلم لحياة عابرة يتوسطهما».

لكن يتبقى شيء ما. وهو أننا ما زلنا على وعي بذلك. وسوف يسعى الفيلسوف الإسباني ميجيل دي أونامونو جاهدًا حتى لنقض فكرة الوعي بضآلة قيمتنا. «إذا لم يعد الوعي - كما قال أحد المفكرين القساة - سوى

ومضة برق بين أبديتين مظلمتين، فلا شيء أروع من الوجود». ويمثل كتاب أونامونو «الشعور المأساوي بالحياة» محاولة ممتدة لا تسعى لجعل الحياة نفسها عديمة القيمة فحسب، بل أيضًا وعينا بالحياة وانعدام قيمته المدَّعاة.

ومع ذلك، دائمًا ما يتبقى شيء ما، وظل مزعج لفكرة خواء كل فكر وكذلك البقايا الكريهة والمقززة لكلٍّ من الوجود والحياة والمعنى. «ولكن الأدهى من ذلك أن الإنسان، ولكونه إنسانًا، ولكونه يمتلك وعيًا، وقياسًا بالحمار أو السلطعون، هو بالفعل حيوان مريض. إن الوعي مرض».

~ * ~

... أكثر الردود تعبيرًا عن الطابع الأمريكي هي «لا توجد مشكلة ما دام ليس لديك حل لها»...

~ * ~

رواية أوسامو دازاي «لم يعد بشرًا»، الصادرة في عام ١٩٤٨، رواية فريدة من نوعها، وهي حقًّا رواية تجريبية. يمضي السرد في الرواية عبر مجموعة «مذكرات» كتبها البطل «أوبا يوزو»، يقدم من خلالها سلسلة من أنماط الفشل التي يتعرض لها، فيما نلمس شعورًا غريبًا ومتغلغلًا بالاغتراب يعتري «يوزو» في البيت والمدرسة والعمل، بين الأصدقاء والأحباب والغرباء، بل حتى في لحظات العزلة. يجرب ارتداء الأقنعة ويتقمص دور مهرج الصف والفنان المثقل بالقلق والوصولي المغرور. ويجرب الخوض في الفن والسياسة والدين. ويجرب أن يكون شهوانيًّا وأن يكون زاهدًا وعاطلًا.

لكن النتيجة دائمًا هي ذاتها - لا «يصل» إلى ما يعنيه أن يكون المرء إنسانًا. ويقول مستسلمًا، «لم أستطع يومًا أن أقابل أحدًا من دون أن أستصحب معي ابتسامات موجعة وبلاهة المهزوم».

لا تقدم رواية دازاي أي نهايات سعيدة أو إطراءً لأمة أو شعب أو مراثي للروح الإنسانية، ولا توجد بها لحظات تجلٍّ كبيرة ولا صراعات ملحمية ولا معاناة يحتملها أصحابها في صبر ولا مظالم يُثأر لها أو عشَّاق يلتئم شملهم. يتصدى أبطال «دازاي» لمهمة خوض الحياة ليجدوا أنفسهم في خضم حيرة وارتباك أشد مما كانوا عليه من ذي قبل. يبدو الأمر كما لو كان هناك كتاب إرشادي بعنوان «كيف تكون إنسانًا، ولماذا؟» - ويبدو وكأنه قد وُزع على الجميع، باستثنائك أنت. ويستخدم «دازاي» لذلك عبارة لا يفتأ يكررها وهي «الفزع من البشر».

وهذا الاغتراب يكاد يكتسي طابعًا ميتافيزيقيًّا - وحيرة تنجم عن كون المرء يجد نفسه عالقًا بشكل دائم وكأنه فريسة، في عالم بشري من البشر، كما لو أن «كون المرء بشرًا» هو أمر يحدث مصادفة أو عَرضًا.

~ * ~

في التشاؤم، يوجد يقين بأنه لا عقل أو إيمان يمكنه التغلب عليه. حس الدعابة يقلص من قيمته ويقويه في آنٍ واحد معًا.

~ * ~

أوضح «شيستوف» ذات مرة أننا لا نفكر بأي قدر من النزاهة إلا حين ندرك أنه لم تعد باليد حيلة، وحين تُكبل أيدينا. «يميل الفنانون والفلاسفة إلى رسم

صورة للمفكر يظهر فيها بوجه صارم الملامح ونظرة عميقة تخترق حُجب الغيب وسمت نبيل - مثل نسر يستعد للطيران. كلَّا على الإطلاق. الشخص المفكر هو ذلك الذي فقد توازنه...»، ويضيف شيستوف: «... بالمعنى المبتذل، وليس بالمعنى المأساوي».

~ * ~

وحدها الموجودات يمكنها أن تحلم باستحالة أن تكون غير موجودة.

~ * ~

لا وقت أنسب للتشاؤم من الوقت الحاضر - كلما كان ذلك ممكنًا. ومع ذلك، يبقى السؤال لدى الفيلسوف قائمًا: هل العالم الذي نجد فيه أنفسنا مأساة أم ملهاة أم كلتاهما؟ ويكتب شوبنهور قائلًا: «إن حياة كل فردٍ حين يُنظر إليها جملةً واحدة وفي عمومها، وحين يُسلط الضوء على أبرز ملامحها فقط، هي حقًّا مأساة، ولكن عند إمعان النظر فيها، يظهر بها طابع الملهاة». وحتى يزداد الطين بلة، «يجب أن تحتوي حياتنا على جميع فواجع المأساة، ومع ذلك لا يمكننا حتى أن نؤكد كرامة الشخصيات المأساوية، ولكن في التفاصيل الواسعة للحياة، هي حتمًا الشخصيات الحمقاء في الملهاة». إن التشاؤم، في تفكيره المتعثر، يضخم ما أسماه الفيلسوف الياباني كيجي نيشيتاني ذات مرة «الميل إلى فقدان الإنسان».

لكن ذلك يبعث على السخرية، فماذا سيتبقى بعد فلسفة لا يشغل الإنسان مركزها؟ كل ما سيبقى هو شيء غريب ولا عاقل، يشير إلى أفق قدرتنا على فهم أنفسنا والعالم الذي نُرمى فيه. ويعبر الممثل الكوميدي «جورج كارلين»

عن ذلك ببلاغة أوضح قائلًا: «تريدون إنقاذ الكوكب؟ ونحن لم نعرف حتى الآن كيف نعتني بأنفسنا... وفوق ذلك، الكوكب لا يشكو علةً. الكوكب سيكون بخير. والناس في حال مزرية...».

~ * ~

في المساء. أستمع إلى محاضرة «ر». وبعد ذلك، تُطرح الأسئلة المملة المعتادة. يدور الحديث عن «الأنطولوجيا» و«التأسيسية» و«الاحتمالية» و«التناهي» و«الواقعية» وما إلى ذلك. فجأة تبرز عبارة: «... أود أن أنصحك بأن تَحذر بشدة أي أحد يخبرك بأنك تعاني لسبب...»، نسيت السؤال الذي وردت هذه العبارة في سياق جوابه.

~ * ~

في رسالته «العدل الإلهي» أو «ثيوديسيا» التي صدرت في عام ١٧١٠، ذكر ليبنتس أن هذا العالم هو الأفضل بين جميع العوالم الممكنة. لكنه أخطأ حين راح يبرهن على رأيه. لا يمكن أن يعقب ذلك سوى خيبة الأمل.

~ * ~

أنا أزدري، فأنا إذن موجود (١). في الفلسفة الحديثة، تمثل الصيغة الديكارتية أنا أفكر، فأنا إذن موجود ذروة التفكير الإنساني النزعة وترقي الإنسان عبر مكائد العقل.

للتشاؤم نسخته الخاصة: وهي أن ذروة الإنسانية تكمن في قدرتها على

التقزز من ذاتها. وما يميزنا حقًّا عن أشكال الحياة الأخرى هو قدرتنا على أن نبغض نوعنا وأن نعترف بحماقة كوننا بشرًا.

أنا أزدري، فأنا إذن موجود.

~ * ~

أنا أزدري، فأنا إذن موجود (٢). في تاريخ الفلسفة، يخضع الإيمان دائمًا للعقل، على الرغم من أن الفلسفة قيل عنها ذات يوم إنها خادمة اللاهوت. وفي القرن الحادي عشر، صاغ أنسلم، أسقف كانتربري ما بات يُعرف باسم «الحجة الأنطولوجية» على وجود الإله: الإله هو ما لا يمكن تصور ما هو أعظم منه. (إن الفشل في إثبات وجود الإله ذاته هو بمنزلة دليل، راسخ كما رسوخ البشر في التناهي والزمانية).

وبدايةً من الإنكار الصارم للماديين من قدماء الهنود وصولًا إلى نزهات شوبنهور ذات الأجواء المأتمية، فإن للتشاؤم أيضًا حجته الأنطولوجية الخاصة به: الوجود هو ما لا يمكن تصور ما هو أسوأ منه.

~ * ~

أنا أزدري، فأنا إذن موجود (٣). على الرغم من أن حيوانًا ما قد يُظهِر عداءً لأفراد من نوعه، فإن البشر يتفردون في كوننا قد نشعر بالعداء إزاء النوع البشري كله، أي أن البشر يشعرون بالتقزز. ولا يتضمن التقزز تمامًا الطابع الحيوي للكراهية ولا الطابع السلبي للنفور. إنه نوع من انكماش الكينونة وتقلص الحياة وتضاؤلها وذبولها. والمرء لا يشعر بالتقزز إلا بطريقة غير مباشرة - قنينة بلاستيكية تطفو في بركة ماء وطعام فائض ومتناثر عبر درب

في غابة، وكيس نصفه فارغ وبه رقائق بطاطس بنكهة أعشاب البحر وملقى على شاطئ. التقزز هو دائمًا تقزز مما خلَّفناه وراءنا.

~ * ~

أنا أزدري، فأنا إذن موجود (٤). حديقة وشاطئ وشارع في مدينة وسوق في هواء طلق وحفل موسيقي ومطعم وحانة ومقهى... ليس هنالك مظهر أكثر سفورًا للقذارة الوجودية من البشر وهم يمارسون متعهم الخاصة بعضهم أمام بعض.

~ * ~

أنا أزدري، فأنا إذن موجود (٥). كراهية الإنسان بوصفها أعلى أشكال مركزية الإنسان[١] (anthropocentrism).

~ * ~

أنا أزدري، فأنا إذن موجود (٦). التشاؤم هو الامتداد المنطقي للإنسانية.

~ * ~

أنا أزدري، فأنا إذن موجود (٧). «يمكنك أن تبصق على نفسك من دون أن تفتح فمك». (ستانيسلاف ليك)[٢].

~ * ~

(١) مفهوم يشير إلى الاعتقاد بأن البشر هم أهم الكائنات الموجودة في الكون. (المترجم).
(٢) شاعر وكاتب بولندي بارز. (المترجم).

أنا أزدري، فأنا إذن موجود (٨). أتوق إلى كتابة عمل فني عن القبح وأطروحة كبيرة عن كراهية البشر وعمل أعظم عن النقد اللاذع والتقزز - على سبيل الإدانة لنوع أعظم إنجازاته هو تحقيق اندثاره. (وحتمًا سوف أفشل حتى في ذلك).

~ * ~

أنا أزدري، فأنا إذن موجود (٩). تمر بي أوقات أشعر فيها أن القدرة الحقيقية الوحيدة لدى نوعنا البشري هي أننا قادرون على تدمير أي شيء. لا شيء يفلت من أصابعنا الملوثة والمعتمة.

تقول لي «پ»: «يبدو وكأننا جميعًا ديدان في الوحل. ووظيفتنا هي أن نحلل الأشياء ونفككها».

مثل يرقات.

~ * ~

يوجه نيتشه انتقادًا هو الأذكى للتشاؤم. كما الدين، يقول التشاؤم أيضًا للحياة وللعالم بما هو عليه «لا». يرى نيتشه أن «اللاجدوى والمغالطة والعبث والخداع» التي ينطوي عليها هذا الرفض تكمن في أنه يجد نفسه دائمًا في مأزق مزدوج: «إن إدانة الحياة من جانب الأحياء هي، في النهاية، دليل على نوع معين من الحياة...»، ومن ثَمَّ فإن معايير أي فلسفة تشاؤمية هي المواءمة. ويقول نيتشه مرة أخرى: «... حتى تطرح مشكلة قيمة الحياة، يجب أن تكون خارج الحياة وأن تكون على دراية بالحياة مثل شخص ما وأي شخص وكل مَن عاش على الإطلاق».

لعل ما يتصارع معه نيتشه في مثل هذه الفقرات هو ارتيابه حيال اعتباطية

الحياة. أن تكون على قيد الحياة وترفض الحياة: «... هذا يكفي لإخبارنا أن المشكلة عصية علينا».

~ * ~

الدوار الهادئ في آذاننا هو الدوران الهادئ لأقمار مترددة تقطر سوادًا.

~ * ~

... سماع التعليمات على رصيف لأحد قطارات الأنفاق هو أمر مزعج، حتى إنه يبدو وكأنه أنين، وكذلك مشاهدة نشرة أخبار عبر التلفزيون من دون صوت والجلوس على مرحاض والوقوف في مصعد وحيدًا والانتظار عند معبر مشاة في شارع مهجور والمشي عبر حديقة ورؤية سنجاب يسرق طعامًا من طفل...

~ * ~

«يمكننا معرفة ما إذا كنا سعداء من خلال صوت الريح. إنها تحذر الشخص التعيس من هشاشة منزله وتوقظه من نومة خفيفة وأحلام عنيفة. أما للشخص السعيد، فهي أنشودة أمان: عويلها الغاضب يقر بأنها لم يعد لها سلطان عليه». (أدورنو).

~ * ~

النقطة التي يجب أن تصبح فيها الكتابة عن التشاؤم كتابة تشاؤمية.

~ * ~

قائمة انطباعات (٣). خلال إفطار ذات صباح، تحدثني «پ» عن شيء قرأتْه. تقرير للأمم المتحدة جرى تسريبه ويربط نقص الغذاء بتغير المناخ. خلاصاته ليست مشجعة. بينما سيرتفع الطلب على الغذاء بنسبة ١٤٪ عالميًّا خلال العقد القادم، فإن إمدادات الغذاء عالميًّا سوف تنخفض بنسبة ٢٪. ولأن أنواعًا نباتية وحيوانية تواجه خطر الانقراض بسبب تغيرات المناخ، فإن استصلاح أراضٍ جديدة للزراعة قد يفاقم أيضًا تغير المناخ بسبب الانبعاثات الكبيرة التي تصاحب ذلك من ثاني أكسيد الكربون. والنتيجة هي انخفاض واسع النطاق في عدد سكان العالم، ولا سيما في المناطق المدارية التي ترتفع فيها معدلات الفقر. موت بطيء للنوع البشري. لن تكون الصراعات العالمية القادمة على الثروة أو القوة أو الطاقة، ولكن على عناصر «H_2O» (الماء) و«O_2» (الأكسجين) و«CO_2» (ثاني أكسيد الكربون)... صراع على الأنفاس... وحرب على العناصر...

~ * ~

أجسادنا هي جثث متلألئة يقطر منها العسل، وجثثنا هي عقيق أسود مسحوق، وكل طرف ووتر وعصب هو تواضع نباتات شفقية صغيرة.

~ * ~

في أثناء استماعي إلى مقابلة مع باحث في الأعصاب، أسمع ما يلي: «لم يتمكن أي فيلسوف من عزل نفسه عن ألمه». التشاؤم بوصفه سابقًا للفلسفة.

~ * ~

كتاب ميلا هارتفيج[1] «هل أنا إنسان فائض عن الحاجة؟» والذي يأتي في شكل مذكرات، هو أقل من أن يكون رواية وأكثر من رسالة في الاستسلام. ويحكي الكتاب عن حياة يتم وأدها، عند كل منعطف، في أثناء عيشها. ليست حياة فاشلة تمامًا، ولكنها - لهذا السبب - ليست حياة «ناجحة». حياة إنسانة في نفور دائم من كل رابطة تجمعها بالآخرين ومن الوظيفة ومن المدينة ومن جسدها وأفكارها.

كل شيء يصيبه فشل ذريع. تصرح المذكرات: «هذه هي الحكاية التي أرغب في كتابتها، على الرغم من كونها عادية جدًّا إلى حدٍّ يدعو إلى الضحك ومملة جدًّا على نحو لا جدال فيه، حتى إنها لا تُعَد في حقيقة الأمر حكاية على الإطلاق».

يبدو أن كل ما تبذله من جهد، كبيرًا كان أو ضئيلًا، في سبيل التأقلم، يذهب هباءً. وكل ما يبقى من ذلك هو فتور يتولد عن بطلان كل مسعى. «أصبح كسلي أقوى مما كان عليه. كان أشبه بمرض. كان أشبه بالخَدر. لكنه كان يأتي مصحوبًا بأرق غير مفهوم».

~ * ~

حجة غياب للعقل. تقول شخصية في إحدى روايات دوستويفسكي:

> «ما زلت لا تستطيع أن تجد الجواب الصحيح عن هذا السؤال وأنت قلق بشدة من ذلك... وأنت أيضًا، بسبب يأسك، تسلِّي نفسك في أثناء ذلك بمقالات المجلات ونقاشات المجتمع من دون أن تؤمن بحججك فيما تبتسم نحوها بمرارة مصحوبة بوجع في قلبك...».

~ * ~

(١) ميلا هارتفيج (Mela Hartwig) هي أديبة ورسامة نمساوية وُلدت في عام ١٨٩٣، ومن مؤلفاتها رواية «Am I A Redundant Human Being?». (المترجم).

أشعر بألم مزمن خفيف الحدة منذ أسابيع وشهور. أحاول أن أصغي إلى جسدي، ولكني لست أدري أي لغة يتحدثها.

~ * ~

صمت الإله. في كتابه «دين الموسيقى» الذي صدر عام ١٩٠٩، يقارن كاميل موكلير بين نوعين من الصمت: صمت يومي عادي وصمت ينعدم فيه كل صوت. النوع الأول من الصمت نسمعه مناقضًا للأصوات التي تسبقه - وحتى عندئذ نظل نسمع هذا التباين بوصفه «هدوءًا». وأما النوع الثاني من الصمت، بالمعنى الدقيق للكلمة، فلا يمكن سماعه. «وحده صمت الإله هو الصمت، وصمتنا على النقيض يضج بالضوضاء».

ومع ذلك، يصر موكلير على أنه حتى في هذا الصمت الإلهي، توجد موسيقى من نوع ما. ويقول: «أتخيل موسيقى لا تعبر عن شيء من لغة العاطفة لدينا... ولكنها بدلًا من ذلك تمثل انقطاعًا مثاليًّا لكل صوت... والتي يُعبَّر عنها في عالم الروح حين تنتهي الحياة».

~ * ~

ملاذ. في مقهى، في نهاية ظهيرة يوم شتوي بارد وصحو - تبدو الأجواء دافئة بالداخل فيما تُسمع موسيقى هادئة تنساب في الخلفية وأمامي فنجان من الاسبريسو ودفتر مفتوح أحاول أن أصنف فيه العناصر المتنوعة التي يضمها كتاب بيسوا «اللاطمأنينة». وشيئًا فشيئًا أنشغل بزوجين شابين مزعجين يجلسان بالقرب من مدخل المقهى، فيما تكشف نبرة صوتيهما المفعمة بحماس زائد عن استغراق ذاتي متعمد ومتمادٍ. وجودهما في ذاته مزعج، وكذلك كل ما يتعلق بهما وبأسلوبهما وبكل تعبير يصدر عنهما...

لكنَّ صوتيهما تحديدًا هما ما يشغلاني. إنهما صاخبان جدًّا وغريبان جدًّا ويُظهِران فرطًا في الحركة - أشعر بأنني لم أسمع قَطُّ هذا العدد الكبير من الكلمات محشورًا في نفَس واحد، وشرح لا ينتهي حول كل موضوع يخطر بالبال تقريبًا، وانغماس في الابتذال والعبارات المستهلكة. هذا الإزعاج ينتقل عن طريق العدوى. ويرفض الشخص الجالس بجواري وهو يتظاهر بانشغاله الشديد على الرغم من أنه لا يفعل أي شيء، أن يحرك حقيبته الضخمة وحاسوبه المحمول حتى يفسح لي قليلًا. باندهاش، أسمع شخصًا آخر يطلب كوبًا من الجعة مع كوب من الاسبريسو. ويتعثر زوجان يدفعان عربة طفل مشاكس.

~ * ~

كل النفور يصبح في النهاية نفورًا ذاتيًّا. (وماذا أكون، كتلة متجهمة ومبهمة، تتذمر في الزاوية؟) أقضي وقتًا طويلًا في الكتابة وأنا جالس في المقاهي حتى أؤجج كرهي للبشر. وعند انتهائي من كتابة هذا الذي أكتبه، أدرك كيف أنني قد أضعت وقتي وحسب، فأشطب ما كتبت بعلامة «X» كبيرة.

~ * ~

تصانيف الفشل.

- تحاول ثم تفشل. وتفشل في فهم ذلك. (رواية «الأبله» دوستويفسكي).
- تحاول ثم تحاول مرة أخرى. وتفشل ثم تفشل مرة أخرى. (رواية توماس برنهارد «الخاسر»).
- تفشل بطريقة أفضل. في كل مرة. (ثلاثية بيكيت).

- لا تكلف نفسك عناء المحاولة من الأصل. (الفلاسفة: أجيتا كيساكامبالي وديوجانس الكلبي، ولاو تسو).
- تفشل وأنت لا تعي أن أحدهم كان يحاول. (المحاكمة - كافكا).
- تفشل ولا تعي أن أحدهم قد فشل. (رواية «ساتانتانجو» - كرازناهوركاي).
- تحاول بشكل سيئ وتفشل بشكل سيئ. (رواية «لم يعد بشرًا» - أوسامو دازاي).
- فشل مربك. (رواية «الشغف من منظور جي. أتش» - كلاريس ليسبكتور).
- فشل علاجي. (لوحة «DOWN BELOW» - ليونورا كارينجتون).
- جهد أكيد وإخفاق غير أكيد. (رواية «أرواح ميتة» - نيقولاي جوجول).
- العقل يرغب والجسد لا يقدر، والجسد يرغب والعقل لا يقدر. (رسائل أنطونين أرتو).
- فشل في الفشل. (ينطبق على جميع الكُتَّاب).
- نجاح في الفشل. (ينطبق على جميع المؤلفين).

~ * ~

محاضرة في أسلوب الكتابة الشذرية. في نحو عام ١٨٧٩، حين يجبره اعتلال صحته على التقاعد من وظيفته التدريسية، يتوقف نيتشه عن الكتابة بطريقة المقال، ويبدأ تأليف الشذرات المكثفة التي سيظل يكتب بها حتى آخر عام مثمر فكريًّا في حياته وهو ١٨٨٨. وفي أول عمل نُشر له من هذا النوع وهو «إنساني، مفرط في إنسانيته» - يمكن للمرء أن يرى نيتشه يوظف أساليب عديدة للكتابة بطريقة تبدو «مناهضة للفلسفة».

وأحد هذه الأساليب هو الانحراف، وفيه يتجنب نيتشه الطعن مباشرة في

موضوع ما، مؤثرًا بدلًا من ذلك نهجًا غير مباشر يلجأ فيه إلى المداورات والمناورات، ويستعين بنبرة قد تكون الآن ساخرة والآن تهكمية والآن خبيثة، ولكنها لا تغدو أبدًا مباشرة. وفي كتابه «إنساني، مفرط في إنسانيته»، لا يطعن نيتشه في المسيحية طعنًا مباشرًا، ولكنه يشير إلى أن مشكلة المسيحية تكمن في المسيحيين - الذين هم في دَعَة يتعذر معها النهوض من الفراش، وهم ليسوا جديرين حتى بالمعاناة التي هي حقًّا جائزتهم الكبرى.

وهناك أسلوب آخر يستخدمه نيتشه وهو أسلوب يعتمد على «دونية التفكير»، وفيه يُعاد تأويل أسمى الأفكار وأنبلها فجأة وفقًا لأشد التفسيرات دناءة وبدائية. ويفضل نيتشه أن يحتال بكلٍّ من علم الأحياء وعلم النفس، حيث يوظفهما بعناية على نحو يستحوذ من خلاله على أسمى المفاهيم الإنسانية مثل الروح والأخلاق والوعي، ويُنزِلها إلى الأرض، فتصبح «دونية»، عبر المنظور الاختزالي الجامد للعلوم.

وتصبح أسمى المُثل الأخلاقية لدينا ما هي إلا قرارات اتُّخذت على معدة فارغة.

وأخيرًا، هناك نوبات الحماسة الغامرة التي تجتاح نيتشه، والتي يمكن أن تنبجس فجأة عبر طبقات من السخرية والتهكم التي أنشأها بعناية شديدة. ففي نهاية فصل طويل ومؤثر قام خلاله بتفكيك ادعاءات الأخلاق، يقفز نيتشه فجأة متدخلًا بما يلي: «وعليه، وكي نمضي قُدمًا على طريق الحكمة بخطى ثابتة وثقة لا تتزعزع! مهما تكن، كن بمنزلة منبع الخبرة لنفسك! تخلَّص من عدم الرضا عن طبيعتك والتمِس العفو لنفسك، لأنك في كل حال لديك في نفسك سُلَّم له مائة درجة يمكنك أن تصعدها حتى تصل إلى المعرفة...». هذه هي الفقرات التي تحوي تلك الحماسة الكبيرة حتى إنها لتكاد تبدو غير لائقة. وفجأة ينخرط الفيلسوف في الغناء.

حين قرأت هذه الفقرات للمرة الأولى وأنا طالب، كنت أود أن أقفز مع نيتشه مؤيدًا لما يقول. الآن، وأنا أعيد قراءتها، أكاد أنظر إليها بحرج وازدراء. كيف

للمرء أن يوازن بين النقد الصارخ والساخر من الحالة البشرية وبين هذا الفوران بالصدق؟ الذنب ذنبي لا ذنب نيتشه. يبدو أنني أصبحت منيعًا على حماسته.

~ * ~

كل شيء ينجح في نهاية المطاف، بطريقة أو بأخرى.

~ * ~

شيستوف: «أن تكون شقيًّا شقاءً عصيًّا على العلاج، فهذا أمر شائن... ولأن كل فرد، عاجلًا أو آجلًا، محكوم عليه بشقاء عصي على العلاج، فإن الكلمة الأخيرة للفلسفة هي العزلة».

~ * ~

مكمن ضعف المتشائم هو حماسته نحو اللاوجود.

~ * ~

في ضوء كئيب، يشبه لون النمو والموت، ينحدر نجم البحر بشكل مهيب من الهواء في دوامات متعاشقة. تطفو المنشورات في سكونها وحلمها، تتكور كي تقفز حتى في نومها، وتستجمع الكآبة من فهم غير متكافئ في أشواك غير بشرية.

~ * ~

مرثية لحياة مشوّهة[1]. إن كتاب تيودور أدورنو «الأدب الصغير» هو فيما أعرف إحدى أبرز الإدانات اللافتة للثقافة الإنسانية. ويحوي الكتاب، الذي وضعه مؤلفه في المنفى خلال أربعينيات القرن الماضي، بين دفتيه مجموعة من الشظايا التي تمثل كل واحدة فيها وَحدة متكاملة. ولم يحدث قَطُّ أن حظيت كتابة بطريقة الشظايا بمثل هذا القدر من الاهتمام، وهي في شكلها ومضمونها تصور التحديات التي تواجه التفكير الفلسفي في العصر الحديث.

«يتجلى الاغتراب تحديدًا في انمحاء المسافة بين الأشخاص». حين نصبح أشد قربًا، نغدو أشد تباعدًا. نحن نقدر «تجربتنا» الفردية الثمينة والفريدة في اللحظة ذاتها التي يتبين لنا أنها وهمية: «أن تتحدث من فورك عن الآني يعني أن نتصرف مثل هؤلاء الروائيين الذين يُلبِسون الدمى التي أوجدوها عواطف زائفة وغابرة تشبه حليًّا رخيصة، ويجعلون أشخاصًا ليسوا سوى أجزاء من آلة يتصرفون وكأنهم لا يزالون يتمتعون بالقدرة على التصرف كأشخاص فاعلين، وكأن شيئًا ما كان يتوقف على ما يفعلون». غرور التأمل. والتفكير المتباهي.

ويسود النفي كتاب «الأدب الصغير»[2]، حيث لا شيء بمنجاة من انتقادات أدورنو اللاذعة، ولا سيما فعل التفكير ذاته، الذي جرى اختزاله، كما يشير بمرارة، إلى إرشاد ذاتي: «إن التنوير الجاهز لا يحول التفكير

---

(١) الإحالة هنا إلى العنوان الثانوي من كتاب تيودور أدورنو «Minima Moralia» الذي تُرجم إلى العربية بعنوان «الأدب الصغير/ أفكار ملتقطة من الحياة المشوَّهة». (المترجم).

(٢) العنوان الأصلي للكتاب هو «Minima Moralia» ويستلهم المؤلف عنوانه من كتاب أرسطو «Magna Moralia»، وقد تُرجم الأول إلى العربية تحت عنوان «الأدب الصغير» من قِبل الدكتور ناجي العونلي، أستاذ الفلسفة الألمانية في جامعة تونس. ويستحضر عنوان الترجمة العربية فيما يبدو عنوان أحد مؤلفات ابن المقفع الشهيرة «الأدب الصغير والأدب الكبير»، والأدب هنا يأتي بالمعنى الواسع للأخلاق. (المترجم).

الآني فحسب ولكن أيضًا الرؤى التحليلية - التي تعادل قوتها ما يُتجشم من معاناة ويُبذل من طاقة في سبيل الوصول إليها - إلى مقالات غزيرة، وكذلك يحول الأسرار الأليمة لتاريخ الأفراد، والتي تميل النظرة التقليدية الصارمة بالفعل إلى اختزالها في صيغ جاهزة، إلى تقاليد مألوفة». والأزمات يتم تحديدها وتصنيفها وربطها بمجموعة كاملة من الأساليب العلاجية، من اختبارات الشخصية المستندة إلى الخوارزميات وصولًا إلى قائمة خيارات لاضطرابات القلق التي تبدو أكثر فأكثر غير منفصلة عن الثقافة المشبعة بالوسائط التي تنشأ منها. وتصبح مناهج الإدراك التي تبدأ من أعلى إلى أسفل مرتبطة ارتباطًا مباشرًا بالتصميم الدوائي المتقدم. هناك خلل في الكود. أنت بحاجة إلى إعادة تعبئة وحسب. «يزول الرعب أمام هوة الذات حين تعي أنك لست معنيًّا بشيء يختلف كثيرًا عن التهاب المفاصل أو متاعب الجيوب الأنفية».

في النهاية، فإن صرامة «الأدب الصغير» هي ما يلفت انتباهي. ولكن هذه الصرامة هي نقطة ضعفه أيضًا. هناك توتر لافت يتخلل كل شظية تقريبًا من شظايا الكتاب. ولا يفتأ أدورنو يتحسر على ضياع الإنسانية في الإنسانية وبسبب الإنسانية ذاتها. ومع ذلك فهو يتردد، بسبب مبادئه، في القول إن الأمور كانت أفضل حالًا في السابق. ويتمسك أدورنو بشدة بنفيه («نفيه المقيَّد» إلى أقصى حد ممكن)، فهو الشيء الوحيد الذي لن يتنازل عنه. وهذا يضعه في موقف القول إن الأحوال باتت أسوأ الآن، وإنها كانت سيئة من قبل. وفي إحدى تدويناته الأخيرة، يعترف أدورنو نفسه بأن أي شيء يشبه «الفلسفة» يغدو ممكنًا فقط في إطار الانعتاق. لكن الانعتاق من ماذا؟ هل من الوجود ذاته؟

~ * ~

جميع الأشجار التي نسينا أسماءها احتضنت منذ زمن أطرافنا المتشابكة.

~ * ~

بالنسبة إلى المتشائم، الحزن هو شعور ما قبل فلسفي.

~ * ~

هناك هؤلاء الفلاسفة الذين يمشون، وهؤلاء الذين يجلسون، وهؤلاء الذين يرقدون.

~ * ~

الفشل العميق.

~ * ~

يميز بيسوا بين الملل والضجر. وبينما ينجم الضجر عن القيود، يأتي الملل نتيجة لانعدام أي قيود، واستواء الأشياء جميعها استواءً مجهولًا وباهتًا، سواء كان العالم يفيض بالمعنى أو فُرِّغ من كل معنى. وفي الملل يكون المرء دائمًا «سجينًا لحرية لا قيمة لها داخل زنزانة هائلة». وبحسب بيسوا، فإن كل ما يبقى هو الشعور «بالضيق الذي يعتريك لكونك مضطرًا إلى الاستمرار في عيش الحياة».

~ * ~

رهاب الحبس الذي تعانيه حين يتعين عليك مراقبة ما يحيط بك من دون هوادة.

~ * ~

نيتشه عن الفلاسفة: «... بل إنهم أحيانًا ما يتمرغون في الكتب، كما في روثهم...».

~ * ~

شتاء. برد وريح وعواصف ثلجية. عاصفة ثلجية تغلق المدينة أيامًا. بعد العاصفة، أشهد أنا و«پ» مظاهر الدمار في محيط منطقة نيويورك مثل انقطاع الكهرباء والفيضانات والأشجار المقتلعة وانهيار الشبكات. تتدفق التقارير عبر جميع المحطات التلفزيونية تحمل صورًا مروعة لمبانٍ محترقة وشوارع غمرتها المياه وحوادث موت مأساوية.

بانزعاج شديد أنظر فيما الجميع - بمن فيهم أنا - مستغرقون في عملية استعادة حثيثة بل ومندفعة، للحدث حتى يصبح له معنى. صور بطولية وحكايات عن الفقد وعبارات مثالية عن التعاون وحسن الجيرة وتغطية شكلية شاملة للعالم الذي صُنع مرة أخرى على مثال صورتنا. حدث ذلك لنا ولأجلنا.

النوع البشري - لواحم وعواشب ذات عمق فكري.

~ * ~

خلال أحد أحاديثنا الكثيرة في العمل، تقول لي «پ»، «أعتقد أن شوبنهور

أحب الموسيقى قبل أن يحب الفلسفة...». وفي طريقي إلى المنزل ظللت أتساءل هل ذلك يجعل شوبنهور متشائمًا أفضل أم يجعله موسيقيًّا أسوأ.

~ * ~

علم كراهية البشر. على الرغم من أن جميع المتشائمين كارهون للبشر، فليس جميع كارهي البشر متشائمين. يشترك كارهو البشر مع المتشائمين فيما يحملونه من ضغينة شديدة تجاه الإنسان، سواء كان ذلك نابعًا من خبرة عملية أو تجريدات وتعميمات (الكيفية لا تهم كثيرًا في كراهية البشر). لكن كاره البشر يظل يتمسك بالأمل في عيش حياة بمعزل عن البشر - وهو أمل، بحكم طبيعة الحال، لا يمكن تحقيقه أبدًا، لأن كاره البشر من دون الآخرين لا يصبح كارهًا للبشر.

وتشترك كراهية البشر مع التشاؤم في أمر آخر، ألا وهو رفض التغلب على كراهية البشر. وهنالك حتمًا وسائل لعمل ذلك. يمكن للمرء أن ينبذ المجتمع وإخوته في البشرية ويلتجئ إلى كهوف الصحراء، كما فعل القديس أنطونيوس الكبير. يمكن للمرء أن ينبذ الحضارة والعالم الحديث، كما فعل هنري ديفيد ثورو. بل يمكن للمرء أن ينبذ مهنته وأخيرًا نفسه، كما فعل آرتور رامبو. ولكن حتى هنا، تميل التفاصيل السخيفة للحياة اليومية إلى عرقلة ذلك وتدمير كل شيء. في النهاية يأتي آخرون لزيارتك في كهفك الصحراوي، طالبين نصيحة، أو تجد نفسك بحاجة إلى حذاء جديد أو إلى مزيد من ورق الكتابة أو إلى مؤونة وغطاء، أو تدرك أنك ببساطة قد استبدلت حياة مبتذلة بأخرى، وينتهي بك المطاف إلى كتابة رسائل أسى قصيرة إلى البيت فيما ينخر المرض في جسدك الهزيل.

وخلافًا لما هو متوقع، فإن كاره البشر لا يسعى إلى جنة الحياة التي تخلو من الآخرين. وهذا هو الذي يجعل كارهي البشر غالبًا ما يوجدون

في أماكن مزدحمة. وقد فهم موليير ذلك جيدًا، وصوَّره في مسرحيته «كاره البشر» في عام ١٦٦٦:

«الجميع فاسدون. لا شيء في البلاط أو المدينة إلا ويفاقم حال طحالي. تنتابني كآبة وحزن عميقان حين أمعن النظر في مشهد الحماقة البشرية، وأجد في كل مكان من حولي إطراءً مرذولًا وظلمًا واحتيالًا وأنانية وغدرًا... آه، هذا مما لا أطيق. لقد انحطت البشرية انحطاطًا، وإني عازم على فراق الجنس البشري كله».

ولكن تحت ذلك يوجد مزيد من القسوة لدى كاره البشر - حيث يجد راحة غريبة في معرفة أنه، حتى في غياب الناس جميعًا، ستبقى هناك كراهية أخيرة للبشر، وهي كراهية ذاته. وكراهية البشر مثلها مثل التشاؤم، حالة قَبْلية (*apriori*)، معزولة عن أي تجربة يخوضها المرء. ليوباردي: «البشر بؤساء بالضرورة، ويصرون على الاعتقاد أنهم بؤساء بالمصادفة».

~ * ~

إذا كان الأمل فضيلة، فهل تكون اللاجدوى خلاصًا؟

~ * ~

الفيلسوف المنبوذ. نادرًا ما يتبرأ فلاسفة من أعمالهم. وهذا أمر أراه غريبًا، نظرًا إلى أن هناك أمثلة كثيرة لفنانين وكُتَّاب إما يتبرأون من أعمالهم وإما يتلفونها... على الرغم من أنه حتى هنا لا شيء مؤكد. انظر إلى حالة كافكا، الذي أوصى بإتلاف أعماله بعد مماته، لولا أن محرره تجاهل من فوره رغبته. وبالمثل، حين مات توماس برنهارد في عام ١٩٨٩، كانت وصيته تحظر صراحةً أي نشر لما تركه من كتابات مستقبلًا، وهي رغبة تجاهلها وريثه طائعًا مختارًا.

ومع ذلك، وعند النظر في الوتيرة التي يغير بها الفلاسفة مواقفهم، فمن الغريب ألا نجد أمثلة كثيرة لفلاسفة يتبرأون من مواقفهم. كم سيكون رائعًا أن تقابل مفكرًا لا يتبنى مشروعًا فلسفيًّا طموحًا فقط، بل يتبرأ منه تمامًا بعد إتمامه. تخيل أنك ألفت كتابًا في حجم «نقد العقل المحض» أو «ظاهريات الروح» أو «الوجود والزمان» أو «منطق العوالم»، وبعد ذلك، ومن دون تفسير أو تحذير، تتبرأ منه من فورك... أي نشوة غريبة يمكن أن تتبع ذلك؟... قد يبدو فعل التبرؤ هينًا وعديم الأهمية...

~ * ~

أن تصير إلى حالة من التربة والديدان والمادة الطينية.

~ * ~

أنا أفكر، فأنا إذن لست موجودًا. هل هناك أمراض فلسفية؟ (وإذا صح ذلك، فهل من علاج لها؟) فكِّر في ادعاء أونامونو الصارخ بأن الوعي مرض، وهو شعور سوف يسبغه سيوران على الوجود ذاته.

في كثير من الأحيان، ينزل المرض على الفلاسفة كالصاعقة، ويخرسهم أو يجعلهم بلا جدوى قبل أن تتدهور لديهم أبسط العلامات الحيوية مثل الأكل والمشي والنوم. ولعل متاعب الجهاز الهضمي المستمرة التي واجهها نيتشه هي أشهر مثال على ذلك. وجعلته يتساءل لماذا لم يفكر أحد في أن تكون له «معدة إلهية».

إذا كان هناك مرض فلسفي، فينبغي أن تكون «متلازمة كوتار». ففي القرن التاسع عشر، ألقى طبيب الأعصاب الباريسي «جول كوتار» محاضرة حملت عنوان «عن توهم الأمراض في شكل حاد من الكآبة القلقة»، حدَّد فيها نوعًا

فريدًا من الوهم يرفض فيه الأفراد التصديق بوجودهم. وتطرأ عليهم تغيرات مثل الاعتقاد بأن أحدهم قد مات أو أن جسده أصبح جثة عفنة (ومن هنا أتت عبارة «متلازمة الجثة المتنقِّلة»). لم يكن كوتار فيلسوفًا. ولكن كان لديه ما يؤهله لوصف الحالة بأنها «هذيان الإنكار». وسيكون صعبًا أن نجد تعريفًا أدق للتشاؤم. التشاؤم هو هذيان الإنكار.

وتبدو دراسات الحالة العديدة التي أجراها كوتار مثل سير ذاتية لمفكرين متشائمين. وعلى سبيل المثال، تتناول إحدى الدراسات «الآنسة س» التي لم تنكر وجود الإله ووجود الروح فحسب مثل أي فيلسوف بارز، ولكنها أنكرت أيضًا وجود جسدها وعقلها، وزعمت أنها لم تعد بحاجة إلى الطعام، وماتت جوعًا.

~ * ~

إنسانية متوحشة. كتب جان بودريار في أحد دفاتره يقول:

> «حين نفكر في تفوق الجنس البشري وفي حجم دماغه وقدراته الفكرية واللغة والتنظيم، يمكننا أن نقول: لو كان هناك أدنى احتمال أن نوعًا منافسًا أو نوعًا أعلى قد يظهر على الأرض أو في أي مكان آخر، لكان الإنسان قد لجأ إلى كل وسيلة ممكنة لتدميره».

إننا نحتكر التفوق على الأجناس الأخرى إلى حدٍّ هائل، بما يجعلنا مستعدين لمدِّه حتى نهايته المنطقية. لا شيء يمكنه أن يعقبنا، سوف نضمن ذلك. والانقراض هو ما يثبت تفوق الأنواع.

ويسمي بودريار ذلك «إنسانية متوحشة».

~ * ~

يوم الخميس في الساعة ٨:٥٠ مساءً من أواخر الصيف. أمشي وأقف وأجلس

وأنتظر وأتحدث وأنظر ولا أنظر... الشعور باختناق الذات في كل مكان، وتلوث الذاتية... (يجب أن أدون ذلك، يجب أن أذهب، مهام يجب إتمامها...).

~ * ~

نحن لا نعيش - نحن نُعاش.

~ * ~

يمضي السرد في رواية كلاريس ليسبكتور «الشغف من منظور جي. أتش» أو «The Passion According to G.H»، في هيئة مناجاة داخلية مُطوَّلة، وتعود الرواية مرة تلو مرة إلى موضوع إبطال قيمة الإنسان وإلى نقطة الصفر في جوهر الإنسان، وهي «صلاة المحايد» - لكنها صلاة بلا دين وبلا إله وبلا إنسانية وبلا أمل، وحيث لا يوجد سوى «عوالق تكافح» من أجل «الحيادية الكبرى في الحياة»... «همهمة بلا أي معنى بشري». وعند نقطة ما، يعلن النص، «أكثر من نجم، أريد اليوم الجذر السميك والأسود للنجوم، أريد المصدر الذي يبدو دائمًا متسخًا وهو متسخ، وهذا دائمًا غير مفهوم». (تدور «حبكة» الرواية برمتها حول امرأة تعيش بمفردها وتواجه حشرة كبيرة وتتحدث إليها). ومع ذلك، وراء كل الصلوات «الأنفاس المستمرة للعالم هي ما نسمعه ونسميه الصمت». في فقرة أخرى، تصبح ليسبكتور أكثر إيجازًا فتقول: «لقد أضفيت طابعًا إنسانيًا على الحياة أكثر مما ينبغي».

~ * ~

مزاج معتل (٣). من المعروف أن مؤلفات شوبنهور لم تحظَ سوى بقدر

ضئيل من القراءة خلال حياته. بدأ ذلك يتغير لدى بلوغه سنًّا متأخرة حين اكتشفه جيل من المعجبين الشباب ممن تحمسوا للأخذ بالرؤى الصارخة التي تضمنها كتابه «العالم إرادةً وتمثلًا» مثل جوليوس بانسن وفيليب ماينلاندر ويوليوس فراونشتت وستيفان جيتشنبرجر وإدوارد فون هارتمان وإدموند بفلايدر وأولجا بلوماخر ويوهانس فولكيلت... وهم مفكرون نالوا من الشهرة أقل حتى مما ناله شوبنهور، ولكن تشاؤمهم في الوقت نفسه كان أشد قتامة وحِدة، وأكثر علمية وأعلى طموحًا.

والعكس هو ما يحدث اليوم، حيث يبدو أن نوعًا من إعادة إحياء شوبنهور يجري بين عموم المثقفين. ولكن مريدي شوبنهور اليوم مختلفون - فهم أكثر وداعة وأكثر قابلية للتنبؤ وأكثر شهرة. إن حياتهم المهنية ومبيعات كتبهم على المحك. وأنا أشعر حقًّا بالاستياء لأنني أمضيت وقتًا وأنا أقرأ هذه الكتب فيما كان بإمكاني أن أقرأ كتبًا أخرى... أو لا أقرأ على الإطلاق أو أشرب القهوة أو أحدق إلى السماء. ولكن كيف نميز بين مضيعة الوقت وتمضية الوقت؟ ربما يكون هذا هو ما يعنيه التشاؤم حقًّا: عدم القدرة على تمييز «مضيعة الوقت» عن «تمضية الوقت».

~ * ~

أن تفكر يعني أن تتنازل عن الوجود. إنه الفعل الأقل إساءة.

~ * ~

«ما يمكن تأجيله بطريقة مفيدة يمكن التخلي عنه بطريقة أكثر فائدة». (إبيكتيتوس).

~ * ~

لا يخلو التشاؤم، لئلا يُتَّهم بالافتقار إلى الطيش، من ثمله الخاص، وهو سُكْر يُشرب في نخب كراهية البشر وسموم اللاجدوى. ويقدم لنا مشهد الساحرات في مسرحية «فاوست» مثالًا لأغنية شراب تشاؤمية:

العالم والكرة
كلاهما يعلوان ويسقطان
ويتدحرجان ويتمايلان
يبدوان مثل زجاج،
وللأسف ينفجران
في الفراغ الداخلي.

في المسرحية، جعل جوته الجن المناصرين الذين ينشدون الأغنية، مجموعة من القردة.

~ * ~

يتراوح بين ١٢٥٠ و ١٣٦٠ جرامًا. في الشهر الماضي، جمعتني أحاديث مع كاهن شاب وأستاذ تقدم به العمر وشامان عجوز. وقد خرجت منها محبطًا قليلًا منهم جميعًا. هل الخطأ خطئي؟ ألم أستمع لهم كما ينبغي أو ألم أقل الأشياء الصحيحة؟ لماذا كلنا نعرف الكثير؟ ولماذا يتملكنا دافع لا يُقاوم في أن يقول بعضنا لبعض إننا نعرف الكثير؟ يبدو الأمر كما لو أننا مثقلون بسؤال ماذا نفعل بالتفكير، ومثقلون بأدمغتنا، ومثقلون بوزن العضو ذاته...

~ * ~

صنفان من الفلاسفة: هؤلاء الذين يتحدثون بأشياء عميقة عن موضوعات

واضحة، وأولئك الذين يتحدثون بأشياء واضحة حول موضوعات عميقة.

~ * ~

إلى حد الغثيان. لا شيء يحفز الشعور بالضغينة إزاء الجنس البشري مثل وثائقيات الطبيعة - بما في ذلك حتى تلك التي تتخيل انقراض الجنس البشري. اعتدت أن أراها مدهشة، مع وخزة من الصوابية الأخلاقية. كانت هناك سلسلة تلفزيونية بعنوان «الحياة ما بعد البشر» (Life After People) تتخيل ما سيحدث للكوكب إذا ما اختفى البشر جميعًا فجأة (للمرء دائمًا أن يحلم). تنهار البنية التحتية وتفرض «الطبيعة» سطوتها وتعود الحيوانات إلى وحشيتها. لكن اللحظات المحزنة حقًّا كانت تلك التي تستمر فيها آثار الجنس البشري بعد مدة طويلة من اختفاء آخر البشر من هياكل فولاذية ومنصات نفط ومناجم وقلوب مفاعلات نووية، والتي تظل تلطخ الكوكب بوصمة البشرية التي لا تُمحى ويظل الرعب من البشرية قائمًا. كل هذا يصبح أشد إغواءً في السلسلة الوثائقية «كوكب البشر» (Human Planet) - وهو عنوان مقزز كما محتواه. وتعرض لنا كل حلقة من السلسلة التي هي بمنزلة مران للمتفرج على القسوة، تعرض مدى ضخامة العالم اللامبالي واللاإنساني بما فيه من محيطات وجبال وصحارٍ وغابات ومروج - لتفاجئنا «مسيرة» البشرية البائسة وعديمة القيمة بمواجهتها مع العالم ومحاولة السيطرة عليه. وعلى الرغم من أن السلسلة الوثائقية تقدم سردية ملحمية للبشر في علاقتهم بما يحيط بهم، فإن كل ما تفعله حقًّا هو أنها تثير في نفسي كراهية عميقة للإنسانية بحماقتها المكتسبة. اضطررت إلى التوقف عن المشاهدة حين وصلت إلى مشاهد «المروج الخضراء» و«الصحراء»، وفي خلفية مشهد مهيب

من العواصف الرملية الهائلة، نرى البشر يسرقون الفريسة من الأسود ويحرقون مروجًا خضراء بأكملها حتى يتسنى لهم اصطياد أحد الظباء ويستخدمون الديناميت لتفجير مناطق الأشجار التي تأوي إليها أسراب الطيور التي تتغذى على المحاصيل ويستخدمون المروحيات في رعي الماشية. لا يهمني كثيرًا ما إذا كانوا في سهوب منغوليا أو صحراء غرب أفريقيا أو مناطق أستراليا النائية أو مستنقعات جنوب شرق آسيا... لا أستطيع أن أتجنب الشعور بالغثيان...

وهذا مجرد غيض من فيض - المشهد المستمر لبشر في جهلهم ينعمون وفي صخبهم ينخرطون وفي الثقة يفرطون، وهم يحتالون ويتباهون بهيمنتهم على العالم - مكان خانق ومغرور وفارغ يُدعى عالم من أجلنا نحن - ناهيك بالثقافة البشرية وكيف أضفت الشرعية على أبشع الأعمال التي تمارسها ضد ذاتها، في دراما مقززة ومبتذلة لتبادل الأجساد وتكاثر الأنواع والصراع من أجل القوة والازدهار والمكانة. وتستمر وتتواصل، بغض النظر عن عدد الأفلام أو البرامج التلفزيونية التي تتخيل - وكأنه أسطورة - اختفاء البشر. ولو أني أُوتيت صبرًا، لكنت كتبت روايتي الوجودية الخاصة، نسختي من «غثيان» سارتر، إلا أنني كنت سأسميها «إلى حد الغثيان»... ولن يكون بها أي شخصيات بشرية... وفيها، لن توجد كائنات حية ولا أفكار ولا عواطف، لا شيء سوى مرثية مطولة من الكراهية الذاتية لنوع محدد.

فرادتنا. في اليوم التالي أسير عبر الشارع فأرى ملصقًا على حافلة مارة يعلن عن وثائقي جديد: «البشرية - قصتنا جميعًا». أضحك، لكني أشعر بالرغبة في البصق.

~ * ~

المتشائم: ناسك في عزلة.

~ * ~

وحدهم المتفائلون هم الذين عانوا حقًّا. أما المتشائم فهو محروم حتى من ذلك.

~ * ~

عبر جماجمنا الهادئة والمظلمة تمر أشباح مستعادة من غبار النسيان المعتم.

~ * ~

«لقد رأيت هذا يجري في حياة غيري من الناس، وهو الآن يجري في حياتي»[١]. تمر بي لحظات أشعر خلالها أن العيش في المدن يتكون بكليته من صراعات صغيرة مملة ومواجهات متناهية الصغر يمكنها أن تفسد يومك وتحدث تحولات مفاجئة في مواقفك. تلك المرأة التي تقطع دونما اكتراث طابور الغداء. وذاك الرجل الذي يرتدي بذلة ويدفعك بكتفه وهو يسرع الخطى متعجلًا عبر الرصيف. وذاك الطالب الذي تمنعه شدة خجله من التخلي عن مقعده في قطار الأنفاق لرجل مسن. والنادل الذي يلومك لكونه قد نسي قهوتك. وهي كلها أفعال سخيفة. في كل يوم تجري سلسلة من أنواع هذه المواجهات المبتذلة. إنها تجعلني أود أن أنسحب، لا من حياة المدن فحسب، ولكن من النوع البشري بأسره. قد تظن أنني

(١) أحد أبيات أغنية شهيرة لفرقة «The Smiths» وهي «That Joke Isn't Funny Anymore». (المترجم).

بعد كل هذه السنوات سأعتاد ذلك. أعلم أنني، بصفتي من قاطني المدن ذوي القلوب القاسية، يجب أن أتعلم ألا آخذ الأمور على محمل شخصي، وأن أنحيها جانبًا وألا أجعلها تنال مني. لكني أخفق في ذلك. وينتهي بي المطاف مستيقظًا بالليل، أتخيل وأنا بين النوم واليقظة مجموعة كاملة من خيالات الانتقام ومن حالات أعرف فيها الصواب الذي يجب قوله أو عمله والذي سيكون تأثيره هو الأشد تدميرًا. ودائمًا، بالطبع، يكون ذلك بعد وقوع الحدث، حين يفوت الأوان ولا يعود يجدي نفعًا (ناهيك بحرماني من النوم).

وعلى النقيض مما تخبرنا به الأعمال الأدبية الكبيرة، فإن الحياة في المدينة العصرية ليست عملًا بطوليًّا ولا مأساويًّا - ولا حتى كوميديًّا. إنها تبعث على الكآبة وحسب. ولم يكن لدى القدماء نوع فني لهذا الصنف من التجربة. هذه المواجهات متناهية الصغر لا تتحول بطريقة تطهرية إلى صراع مفتوح ولا تختفي بفعل الرحمة بعد أن احتمل المرء ما يكفي منها و«تجشم تكاليفها». إن العيش في مدينة مثل نيويورك لا يكاد يستحق العناء، ولكنه دائمًا لا يكاد يستحق العناء - مَظهر حضري من نوع ما. لا أظننا نفهم ذلك فهمًا كافيًا. نحن محاصرون بالجهوية المفرطة في الثقة التي تُبقي شخصًا في مثل هذه المدينة. وأشار جان بودريار ذات مرة إلى أن الناس في نيويورك دائمًا يبتسمون - لأنفسهم.

~ * ~

أنا متشائم لكوني أؤمن بعدم الإيمان.

~ * ~

الاستسلام – جائزة ترضية لحياة مليئة بانهزامية مقصودة. بيسوا: «فنجان من القهوة وسيجارة وأحلامي هي عندي خير من الكون ونجومه...».

~ * ~

في أثناء الغداء، يساعدني «س» في إيضاح الخصومة التي تكمن في صميم التشاؤم. أن تكون مناهضًا للعالم يعني في واقع الأمر أن تعبر عن نوعين مختلفين من الخصومة: خصومة موجهة نحو العالم الذي صُنع على مثال صورتنا (أنسنة العالم)[1] وخصومة موجهة نحو العالم الذي صُنع من أجلنا (المركزية البشرية). إنني أدرك أن التشاؤم الفلسفي يُعرَّف عبر عجزه عن تجاوز هذه الخصومات. وما ينجم عن ذلك هو حزن ويأس وسأم من العالم، و... إن التشاؤم يكمن في ثقل نقاط الإضمار الثلاث التالية، «وهكذا دواليك...».

~ * ~

مقتطف من كتاب ليشتنبرج «دفاتر المسودات»:

> «في أول الأمر يأتي وقت نصدق كل شيء من دون سبب. ثم، لفترة قصيرة، نصدق الأشياء على نحو انتقائي. ثم لا نصدق أي شيء على الإطلاق. ثم نصدق كل شيء مرة أخرى، وبالفعل نذكر الأسباب التي تجعلنا نصدق كل شيء».

~ * ~

(١) المصطلح المشار إليه هنا هو «Anthropomorphism» الذي يعني في جوهره إضفاء الصفات البشرية على الطبيعة الخارجية والعوالم اللابشرية. (المترجم).

أسى وضحك. يبدو أن الارتباط بين التشاؤم والتنسك هو جزء من تاريخ التشاؤم ذاته. ومع ذلك، وعلى الرغم من أن شوبنهور أشار إلى كتاب «الأوبانيشاد» ونصوص «السوترا» البوذية والمُعلم يوهان إيكارت، فإنه لم يربط بشكل صريح بين الدافع التنسكي والتشاؤم. وبعد عقود من وفاة شوبنهور، نشر الفيلسوف الاسكتلندي آر. أم وينلي كتابه «جوانب من التشاؤم» (١٨٩٤) (Aspects of Pessimism)، والذي يحوي في ثناياه إحدى أولى المحاولات الساعية لاستخلاص أوجه التطابق بين التشاؤم والتنسك. وكما يشير، فإن كلًّا من التشاؤم والتنسك يحملان في داخلهما ارتيابًا عميقًا إزاء العالم كما هو عليه: «إن فكرة التطور تقودنا إلى اعتبار الإنسان أعلى نتاج للعملية الكونية، ولذلك نحاول قراءة الكون في ضوء ذكاء مماثل لذكائنا».

ويختم وينلي ذلك بتوصيف لا يزال أحد أبلغ توصيفات التشاؤم: «التشاؤم هو الملاذ الأخير للقديس، ولهذا الذي يدير ظهره لمتاع الدنيا مثل معظم الزهاد، أو للوغد الذي يعرف عن الحياة ما يكفي كي يَعُد نفسه قادرًا على الاستهزاء بها، أو للجبان، الذي يقهره ما يحيط به، والذي يستجدي، أو بالأحرى يتذمر، أو للمفكر، الذي يتحول تفكيره، في عملية خداع ذاتي، إلى نفي».

~ * ~

التشاؤم هو نمط التفكير الأكثر حضورًا، فهو يشمل الجميع، حتى لو كان ذلك فقط بحكم وجودهم.

~ * ~

«للمخزون الجيد من الاستسلام أهمية قصوى في التزود لرحلة الحياة». (شوبنهور).

~ * ~

مغطاة بحجارة. كتب كارل يونج ذات مرة أنه انجذب إلى فلسفة شوبنهور من دون غيره من المفكرين: «إنه أول من تحدث عن معاناة العالم... وتلك الأشياء التي يبدو أن الآخرين بالكاد يلحظونها ولطالما حاول أن يحلها بكل تناغم ووضوح». ويرى يونج، الذي كان دارسًا للعلوم، أن تشاؤم شوبنهور يبدو ثابتًا حتى أمام «المآسي القاسية التي تواريها روضة مزهرة».

لكن حتى قبل اكتشافه شوبنهور، كتب يونج عن الاكتئاب الشديد الذي كان يعتريه كلما دخل إلى كاتدرائية قوطية: «... هناك كانت اللانهائية والأكوان، وفوضى المعنى واللامعنى، وفوضى الغاية اللاعقلانية والقوانين الميكانيكية، كانت كلها مغطاة بحجارة...».

~ * ~

قائمة انطباعات (٤). قرأت خبرًا عن شاب صيني حاول الانتحار بإلقاء نفسه أمام نمرين بنغاليين في حديقة حيوان. وبعد عمليات شد عشوائية، رفض النمران افتراسه. احتُجز الرجل ثم خضع بعد ذلك للعلاج من الاكتئاب.

~ * ~

من مذكرات سجن دوستويفسكي، «مذكرات من البيت الميت»:

> «وحين يقترب الصباح، وعندما تهدأ البراغيث من تلقاء نفسها أخيرًا، كما لو أن إغماءة أصابتها، ويبدو لك كأنك تدخل حقًّا في نوم هانئ في برودة الصباح - يدوي فجأة صوت قرعات طبل لا هوادة فيها عند بوابة السجن، وتبدأ نوبة الصحيان. تسب، ثم تلف فرو الغنم حواليك وأنت تصغي إلى الأصوات العالية والمميزة، كما لو كنت تحصيها، وفي أثناء ذلك، خلال النوم، تدخل إلى رأسك الفكرة المضنية وهي أن الحال ستبقى هي نفسها غدًا وبعد غد، ولسنوات عديدة متتالية حتى الوصول إلى الحرية. لكن متى برأيك ستكون حرًّا وأين هذه الحرية؟ وفي أثناء ذلك عليك أن تستيقظ. يبدأ المشي والتدافع اليومي... يرتدي الناس ثيابهم ويسارعون إلى العمل. صحيح، يمكنك أن تخطف ساعة أخرى من النوم وقت الظهيرة».

~ * ~

لماذا يكون الناس صاخبين ومزعجين إلى هذا الحد؟ الإنسان العاقل (الهومو سابينز) - النوع الذي يفكر بصوت عالٍ.

~ * ~

كتب لاهوتيون من أمثال توما الأكويني أطروحات وافية ومفصلة عن مآل الروح بعد الموت. لطالما وجدته أمرًا محبطًا أنه لم يبذل الجهد نفسه في تقصي أعظم سر على الإطلاق، وهو ما يحدث للجسد بعد الموت (مشكلة تُركت للأطباء).

~ * ~

في نحو عام ١٦٥٠، بدأ بسكال يحدِّث معارفه عن عمل علمي مقترح وهو «أطروحة عن الفراغ». في جوهره يقوم العمل - الذي لن يتمه بسكال أبدًا - على فكرة، مقتبسة من أرسطو، ومفادها أن «الطبيعة تمقت الفراغ». بالنسبة إلى أرسطو، كان هذا يعني أن الطبيعة في جوهرها ولّادة وخلّاقة. لم يتفق بسكال بالضرورة مع أرسطو. لكن خلافه الرئيسي هو الميل إلى إضفاء الصفات الإنسانية على العالم الطبيعي والمادي. وفي إحدى الشظايا في كتابه «خواطر»، كتب بسكال يقول: «ليس هنالك أكثر عبثًا من القول إن للجمادات أهواءً وعقائد ومخاوف، وإن للأجسام التي لا حس فيها ولا تمتلك حتى القدرة على الحياة أهواءً تقتضي وجود نفس لديها ما يكفي من الحس لاستقبالها...». أن يكون الفراغ موجودًا فهذه مسألة، أما أن يكون مصدر فزع فتلك لدى بسكال مسألة أخرى تمامًا. الفراغ لا يبالي. وتتحول نبرة بسكال إلى نبرة شكوكية ساخرة: «وفوق ذلك، ماذا في الفراغ حتى تخافه الأشياء؟ هل للفراغ أذرع وأرجل وعضلات وأعصاب؟».

~ * ~

لا عاقلة ومجهولة الهوية كما الموسيقى نفسها. على غرار كُتّاب متشائمين كُثر، يضع جي. كي. هويسمانس الموسيقى في مكانة مميزة بين الفنون. وبحسب هويسمانس، فإن الموسيقى تصبح أكثر فعالية في أشكالها البدائية: تتفوق لديه الموسيقى الدينية على الموسيقى الأوركسترالية الأكثر تعقيدًا في قدرتها على تحريك الجمهور والصوت والهواء. في روايته «ضد الطبيعة» (À Rebours)، يكشف هويسمانس عن تبجيل للترنيمة يكاد يرفعها حد التقديس: «كان اللحن التقليدي الذي يبدو في تناغمه القوي وأنغامه الهائلة والمذهلة وكأنه كتل من الصخور، هو الوحيد الذي يمكن أن يتماشى مع الكنائس القديمة ويملأ أقبيتها الرومانسكية، ويبدو وكأنه صوتها الأصلي».

والكاتدرائيات ذات القباب شديدة الارتفاع وسحب البخور المتصاعدة التي تشبه السديم ورسالة «من الأعماق»[1] «تأسف على مصيرها الأخلاقي» وكأنها دوامة طقوسية غير مرئية من مادة مظلمة - وبحسب هويسمانس، كل ذلك لا يفيد سوى في دعم الموسيقى.

يذكرني ثناء هويسمانس على الموسيقى الدينية بأسطورة متكررة الحدوث حول جماعة من الرهبان التبتيين ممن كانوا يستطيعون عبر صوت ترانيمهم فقط، أن يرفعوا ويحركوا كتلًا صخرية ضخمة. بالمقارنة مع ذلك، فإن بقيتنا يغنون وحسب، وعلى نحو رديء.

~ * ~

أبشع ما في المعاناة هو نسبيتها. هنالك دائمًا شخص يتألم أكثر، وآخر يتألم أقل.

~ * ~

في هذه القاعة المعتمة من الطحالب، هناك صمت تذروه الرياح، جرى تقطيره حتى أصبح لا شيء، فيما عدا نظراتنا الليلية الرطبة والمضطربة. أشكال من النفي هي ثمرة لأجساد خصبة ومثمرة لأكثر عاداتنا التقشفية سرية.

~ * ~

(١) الإشارة هنا قد تكون إلى رسالة المسرحي الإنجليزي الشهير أوسكار وايلد التي كتبها وهو في السجن وهي «من الأعماق» أو إلى «مزامير الاعتراف» في العهد القديم والتي تبدأ بعبارة «من الأعماق...». (المترجم).

ليس من قبيل المصادفة أن كبار المتشائمين في العصر الحديث من أمثال هويسمانس وكافكا وبيسوا وفالسر - كانوا أيضًا موظفين حكوميين خلال حياتهم. وهم يكشفون لنا الاحتمالية الصادمة التي مفادها أن «مضيعة الوقت» و«تمضية الوقت» هما شيء واحد. (أتذكر اجتماعًا كبيرًا عقده أعضاء هيئة التدريس لاتخاذ قرار بشأن آلية اتخاذ القرارات - وأُجري تصويت في النهاية حول آلية التصويت - والذي جاء غير حاسم). كلما فكرت في الأمر، زادت دهشتي من أن بيكيت لم يكن يقضي كل وقت فراغه في اجتماعات اللجان.

~ * ~

تشاؤم تكهني. كل الأحداث تصل إلينا على الفور. لذلك، فنحن في ترقب لما هو مأساوي حتى تكاد الأنباء السيئة تصل إلينا قبل وقوعها.

~ * ~

تحطم سفينة الحياة. كان شوبنهور متشائمًا منذ البداية. لا توجد تجربة حياتية مؤثرة يمكن أن تكون سببًا في تحوله إلى التشاؤم. وحين كان طالبًا، كتب ما يلي في أحد دفاتره: «الحياة ذاتها بحر مليء بالصخور والدوامات التي يتجنبها الإنسان بأكبر قدر من الحذر والانتباه، على الرغم من إدراكه أنه بكل خطوة يخطوها يقترب أكثر من التحطم الأكبر والكلي والمحتوم والأبدي، وفي واقع الأمر يتخذ سبيله إليه مباشرة، وهو الموت...».

قبل سنوات قليلة من وفاته، أشار شوبنهور إلى المشاعر ذاتها في دفتر كان يسميه «سنيليا»: «هذا العالم موجود كما نراه بأنفسنا، ما أود أن أعرفه فقط هو مَن ذا الذي خرج منه بأي شيء».

إن اهتمام شوبنهور بتدوين هذه الأفكار يجعله فيلسوفًا. لكن ما يقوله ليس مطلقًا تمامًا حتى إنه يجعله أقل من فيلسوف (ولعله كان يفضل ذلك).

~ * ~

الكوكب هو جُثوة قبر. جميع الأعمار اختُزلت في عمر واحد.

~ * ~

التفاؤل بكونك لم تعد مضطرًّا لعيش الحياة. كم مرة سمحت لنفسي بهذه الفكرة؟

~ * ~

مع التشاؤم، تتلاشى سريعًا الفروق الأساسية. وفي روايته «الخاسر» يكتب برنهارد قائلًا: «من الممكن أن نفترض أن ما يُسمى بالشخص التعيس غير موجود، هكذا فكرت، لأننا نجعل معظمهم تعساء أولًا حين ننتزع منهم تعاستهم».

~ * ~

كل ما رغبنا به كان كل شيء[١]. على مدار الثمانية عشر شهرًا الماضية، كنت أعاني ألمًا مزمنًا في ذراعي. كان عليَّ أن أبتعد عن الحاسوب تمامًا تقريبًا ولا أستطيع أن أكتب في دفتري سوى عبارة أو عبارتين. وأحيانًا يصبح

---

(١) «All We Ever Wanted Was Everything» هي إحدى أغنيات فرقة الروك الإنجليزية «باوهاوس» (Bauhaus) التي تشتهر بموسيقاها الكئيبة وصورها القاتمة. (المترجم).

حتى فتح كتاب للقراءة عملًا صعبًا. لذلك أكتفي بالجلوس هناك. وأتألم. أشاهد الغيوم – وأنا غير مكترث وجامد الملامح والمشاعر. يخبرني الأطباء والمعالجون أن الوضع سوف يتحسن في نهاية الأمر. لكن يا لها «في نهاية الأمر» من عبارة مشبوهة.

إذا كنت محظوظًا، فسوف يقل ما يمكنني قوله شيئًا فشيئًا في النهاية، ومن ثَمَّ سيقل ما يمكنني كتابته، حتى أتوقف عن الكتابة تمامًا.

~ * ~

ألمح سيوران ذات يوم إلى أن وظيفة العينين ليست أن تبصرا بل أن تبكيا.

~ * ~

بينما يقول الفيلسوف: «العالم محايد أخلاقيًّا»، يقول المتشائم: «العالم غير مبالٍ أخلاقيًّا».

~ * ~

في شتاء عام ١٩٠٣، بدأت تظهر لدى الشاعر إيشيكاوا تاكوبوكو أعراض مرض السل الذي سوف يودي بحياته في بضع سنين، وهو في السادسة والعشرين من عمره. في البداية، كان يحتفظ بدفتر يوميات كي يسجل فيه صراعه مع المرض، لكن سرعان ما تحولت اليوميات التي يسجلها إلى استسلام مشوَّش ورسائل مريرة في حق عائلته وزملائه وبلده، وفي النهاية في حق الإنسانية جمعاء. ولأنه كان دائمًا محاصَرًا بالفقر والبطالة وبحياة مهنية فاشلة كصحفي، يكتب قائلًا، «لا أعتقد أن أي شيء يفعله الإنسان،

مهما كان، له أي قيمة. كنت أعتقد أن الأدب أكثر نبلًا وأعلى قيمة من أي شيء آخر، لكنني لم أكن أعرف عندئذ ما يعنيه النبل. هل يمكن لأي شيء يفعله البشر أن يكون نبيلًا؟ الإنسانية نفسها لا نبل فيها ولا قيمة لها».

العزاء الوحيد الذي يقدمه تاكوبوكو لنفسه هو أنه يستطيع كتابة قصيدة «تانكا» (وهي قصيدة قصيرة تتألف من واحد وثلاثين مقطعًا) بجودة معقولة. تقول إحدى قصائده، من ديوان بعنوان «حفنة من الرمال»:

بطريقة ما،
أشعر أن هناك أشخاصًا أكثر مما أتوقع،
يفكرون بالطريقة التي أفكر بها

ولكن حتى هذه الأمور يبدو أنها تزيد الطين بلة. يسأل في يومياته: «هل هناك ما يمكنني عمله غير القراءة والكتابة؟ لست أدري. على أي حال، أشعر وكأنني يجب أن أظل أفعل شيئًا ما دائمًا. حتى عندما أنغمس في تفكير هادئ وخالٍ من الهموم، أشعر دائمًا كما لو أنني مطارَد من ذلك «الشيء»».

~ * ~

أن تكون قد عشت حياة لا قيمة لها، وأن تفيض المدة الزمنية لكل يوم بالمعاني.

~ * ~

شوبنهور، نقلًا عن بترارك في الطبعة الثالثة من كتابه «العالم إرادةً وتمثلًا» والصادرة في عام ١٨٥٩: «إذا كان هناك أحد يظل هائمًا على وجهه طوال اليوم ثم يصل إلى وجهته بحلول المساء، فهذا يكفي».

~ * ~

مُحالٌ أن نكره الجميع كما هو مُحالٌ أن نحب الجميع. أحيانًا يحفز هذا ذاك.

~ * ~

كيركجور: الحياة حبل مشدود.

نيتشه: الحياة حبل للقفز.

كافكا: الحياة حبل في رحلة.

شوبنهور: الحياة حبل مشنقة.

سيوران: الحياة حبل مشنقة، عُقد بطريقة خطأ.

~ * ~

أحب أن أتخيل فلسفة من دون إتقان ومن دون نظام ومن دون إنسان ومن دون هذا... ومن دون ذاك... ومن دون... ومن دون... مجرد حطام...

~ * ~

الولادة هي جرح ميتافيزيقي. يستغرق التئامه وقتًا - هو حياة المرء.

~ * ~

إن قُصارى ما يمكن للمرء أن يأمله هو أن يغدو الآخرون أيضًا مكتئبين - وهو

الشكل الوحيد من الإلهام الذي يمكن للكاتب المتشائم أن يقدمه للقارئ المتشائم. وذلك ما برع فيه الأدباء الروس المنتمون إلى تيار الانحطاط في العقد الأخير من القرن التاسع عشر. وأعلن الروائي والمسرحي ليونيد أندرييف، بعد محاولته الانتحار عدة مرات، أنه يأمل أن تلهم أعماله القراء إنهاءَ حياتهم، ويتردد أنه كان يحتفظ برسائل انتحار بعث بها إليه قراءٌ (قبل انتحارهم). والشيء نفسه يمكن قوله عن فاليري بريوسوف وفيودور سولوجوب. وهذا الأخير كتب ذات مرة عن إحدى شخصياته قائلًا: «وهو أيضًا سيدخل إلى معترك الحياة ويمنح الحياة لمزيد من الكائنات، التي ستكون ذات طابع شبحي ووجود لا لزوم له مثل حلم» - كان سولوجوب، في طفولته، يُجبَر على الذهاب إلى المدرسة مشيًا وبقدمين عاريتين كي يتعلم التواضع.

~ * ~

في تعليقه على الطريقة التي يستخدم بها الأشخاص اللغة في أماكن عملهم، يقول أدورنو: «... وهم يحيُّون بعضهم بعضًا بتحيات مفعمة بلامبالاة ألِفوها... وبدلًا من الخطابات يتبادلون فيما بينهم مراسلات داخلية لا تحمل عنوانًا أو توقيعًا... وتلك أعراض عشوائية لمرض التواصل». ولاحقًا يلمح قائلًا: «وليست هناك فكرة عصية على الإرسال...».

~ * ~

يستهزئ المرء دائمًا بنفسه، ولا سيما حين يستهزئ بالآخرين. ويصبح المرء دائمًا مبغضًا للآخرين، ولا سيما حين يبغض نفسه.

~ * ~

صياغة أخرى لمقولة فولتير: خلقت الآلهة البشر على صورتها. ومما زاد الطين بلة، أن البشر ردوا الجميل بمثله.

~ * ~

عبث ونشوة. صمت وثرثرة.

~ * ~

مزاج معتل (٤). كنت أتمتع لفترة من الزمن بترف الذهاب إلى العمل مشيًا. لكن الترف يمكنه سريعًا أن يصبح عبئًا، وذلك يتوقف على مَن الذين كنت أصادفهم عبر الطريق. هناك شخص ما يمشي أمامي ويدخن بشراهة فيما تدفع الريح، بطبيعة الحال، الدخان إلى الخلف ناحيتي. وهناك آخر يسبق في مشيه كلبه الضئيل الذي يرتجف ويفتقر إلى أي تدريب، ويمشي أمامي مباشرة وفي رقبته مقود جلدي باهظ الثمن، فيما يخلف وراءه غائطًا بحجم حبات الزبيب. وهناك شخص آخر يمشي - لا، بل يقفز وهو يضع على أذنيه سماعات رأس ويغني بصوت عالٍ بدرجة تجعله مسموعًا لكل أحد غيره - وكان غناؤه غير متناغم تمامًا ونشازًا (ولكن لا أحد بإمكانه أن يوقفه لأنه مستغرق كليًّا في الموسيقى). وهناك آخر (إما أنه ساذج وإما أتم تعليمه لتوه) أشعر بأنه سيحاول الحصول على توقيعي من أجل أي قضية تافهة يقول إنه يدعمها، على الرغم من كونه لا يفعل ما يفعل إلا كي يضيفه إلى سيرته الذاتية حين يتقدم للالتحاق بكلية الحقوق. وهناك شخص آخر إما أنه ذاهب إلى قاعة رياضية وإما عائد منها، يدفع أمامه بقوة عربة أطفال ضخمة مخصصة لطفلين وذات طراز عسكري ويغوص بداخلها بروتوبلازم عديم الملامح يئن ويبكي. وهناك أشخاص بدناء لن يفسحوا الطريق (لا بد

أنهم يفعلون ذلك عمدًا). وهناك مجموعات جوالة من المراهقين المتوترين والقلقين ممن يتحدثون بصوت أعلى عشرات المرات مما يقتضيه الحديث مع البشر. وهناك مجموعات من الأشخاص لديهم قصور ذاتي ووعي ذاتي ويمضون اليوم كله في المقهى ولا يتركون كرسيًّا أو طاولة خالية، ويبدون جميعًا مبتئسين ومصفدين في حواسيبهم المحمولة (ويتظاهرون بالعمل من دون شك). وهناك شخص ما. وهناك دائمًا شخص ما. كيف يمكنك أن تتفادى الشعور بضغينة محضة إزاء أنواع كثيرة ومختلفة من الناس؟

والقائمة لا تنتهي – وأضيف إليها كل يوم جديدًا. أحاول جاهدًا أن أستمتع فقط باليوم الصحو والمشمس والهواء (غير المنعش تمامًا) وهكذا. ولكنني أنتظر في دخيلتي ذلك اليوم الذي أصادف فيه مدخنًا شرهًا وآخر يمشي رفقة كلبه وآخر بدينًا ومجموعة من الموظفين المستقلين وشخصًا يدفع عربة ضخمة بها طفل، ثم يسألونك عما إذا كان لديك ثانية واحدة لإنقاذ الكوكب. إذا كانت لديَّ هذه الثانية، فسوف أعانقهم على الأغلب.

~ * ~

مشكلة العالم هي أن المرء حين يتحدث، عليه أن يتحدث دائمًا من داخله.

~ * ~

«... الانتصار الأسمى للعقل، وهو تحليلي، أي أنه هدام ومذيب، هو أن يشكك في سلامته». (أونامونو). يتطلع المتشائم إلى ذلك.

~ * ~

«هل تضحك؟».

«فقط حين أتألم».

نجلس صامتين.

~ * ~

كم هو متفشٍّ ومحيط بنا ذلك الإحساس بالاغتراب - ومع ذلك يبدو أن له أصلًا. من يوميات كامو لعام ١٩٤٢:

> «ماذا يعني هذا الاستيقاظ المفاجئ، في هذه الغرفة المظلمة، حيث أسمع أصوات مدينة باتت فجأة غريبة عني؟ كل شيء غريب عني، كل شيء، لا يوجد شخص واحد ينتمي إليَّ، ولا مكان للاختباء لمداواة هذا الجرح. ماذا أفعل هنا، ما الهدف من هذه الابتسامات والإيماءات؟».

~ * ~

تخبرنا أسطورة حول «لاو تسو» أنه ولد بلحية بيضاء طويلة وعندما مشى لأول مرة، مشى متوكئًا على عصا. ربما نحن جميعًا على هذا النحو، وُلدنا طاعنين في السن.

~ * ~

يشير المصطلح الألماني «Schadenfreude» (الشماتة) إلى تلك اللحظات التي نجد فيها لذة خفية (أو ليست خفية للغاية) في مصائب الآخرين. أشعر بالسعادة لأن المصيبة حلَّت بهم لا بي. كما يشير نيتشه، «لم توجد الشماتة إلا منذ تعلم البشر أن يروا في البشر الآخرين أندادًا لهم».

~ * ~

غالبًا ما يشير الناسكون في العصور الوسطى إلى أهمية الصمت في عيش حياة الزهد. وتؤكد أدلة إرشادية مثل «كمال الرهبان» (The Perfection of Monks) و«قواعد النُّساك» (The Rule for Solitaries) وبالطبع «قاعدة بندكتس» (The Rule of Benedict)، أهمية الصمت باعتباره جزءًا من علاقة الراهب بالألوهة.

تميز هذه النصوص أيضًا بين عدة أنواع من الصمت. هناك صمت العالم الخارجي حين يكون المرء بمفرده، وهناك صمت الأفكار الداخلية للمرء خلال الصلاة، وهناك الصمت الغامض لحضور الإله، والمنسحب بعيدًا عن كل صمت بشري ممكن.

حين يفشل كل ذلك، نصل إلى نوع أخير من الصمت. إنه صمت الحيرة وصمت الصدمة وصمت التشاؤم.

~ * ~

لا يمكن للتشاؤم أن يستغني عن النفاق.

~ * ~

القياس المنطقي والافتراضات والبديهيات والرسوم البيانية والمجموعات - كلما كانت الفلسفة أكثر تعقيدًا وبيزنطية الطابع، أظهرت إخلاصًا أكبر لنظام يقارب الإيمان.

~ * ~

قبل قرون من الشهرة التي حظي بها شوبنهور في القرن التاسع عشر، كان

المفكرون البوذيون يفهمون التشاؤم فهمًا أفضل ممن يسمون أنفسهم متشائمين. وعلى سبيل المثال، يتحدث عالم المنطق الذي عاش في القرن الثاني نجارچونا[١] عن «رحيق الفراغ» الذي يوجد في صميم كل ما هو موجود...

~ * ~

الشذرة: سكون مؤجج للشهوة.

~ * ~

«كم عمرك؟».
«كبير في السن بما يكفي لأن يكون لديَّ ما أندم عليه. وصغير في السن بما يكفي لأن أدونه».

~ * ~

الاختزال هو علامة الترقيم الخاصة بالتشاؤم. إنه يقوض أي شيء يسبقه...

~ * ~

أحمل إعجابًا كبيرًا لدوستويفسكي، لكني لم أجد لديَّ الصبر قَطُّ على قراءة روايات تصل إلى ستمائة صفحة. وما زلت لا أفعل. ومع ذلك، فقد كانت لي بعض الاستثناءات حيال عجزي عن قراءة الكتب الكبيرة. ويمكنني الآن

(١) أحد أبرز فلاسفة ومعلمي البوذية. (المترجم).

القول إن رواية «الأبله» هي إحدى رواياتي المفضلة. وعلى الرغم من افتقارها إلى الاتساع والعمق الفلسفي الذي يميز «الإخوة كارامازوف»، فإن ما يعجبني في الرواية هو بساطتها. فكل شيء بها يتمحور حول شخصية الأمير ميشكين، الأنبل والأسخف في آنٍ واحد - وكل شيء يغدو أعقد مما كان عليه قبل وصوله، والعلاقات تصبح أكثر تشعبًا والدوافع تغدو ثنائية وثلاثية الطبقات، وكل شيء من حوله يتحلل ويسقط - بل وشيئًا فشيئًا يرتاب في قدرته على عمل أي شيء حيال ذلك. يبدو الأمر كما لو أن كل إيماءة - كل فعل وكل إشارة وكل لفظة - لا تضفي على الأوضاع سوى المزيد من الفوضى. في «الأبله»، كتب دوستويفسكي حكاية رمزية مطوَّلة حول مقولة «الطريق إلى الجحيم مفروشة بالنوايا الحسنة». استغرق الأمر من دوستويفسكي بعض الوقت لبناء الرواية حول هذه الشخصية الرئيسية. لقد وضع ثمانية مخططات منفصلة للرواية، ولم تصبح شخصية الأبله الشخصية الأبرز في الحكاية إلا بعد انتصافها. في دفاتره، يبدأ بوصف الأبله بعبارات تكاد تكون رومانسية: «تتسم عواطف الأبله بأنها عنيفة، ولديه احتياج عارم إلى الحب وزهو لا حدود له...»، ولكن بعدئذ سوف يقول دوستويفسكي أيضًا: «ويجد لذة في المذلة» و«يخجل من كل شيء ومن كل أحد». في مخططات لاحقة، يصبح الأبله أكثر دهاءً حيث يضرب مصالح الأشخاص بعضها ببعض ويؤجج الصراعات ويثير الشكوك حتى وُصف في وقت ما بأنه شخصية تشبه «ياجو» في مسرحية «عُطيل». وفي المخططين الرابع والخامس للرواية يبدو أن دوستويفسكي يستسلم ويدع تناقضات الأبله تظهر كما هي: «... إنه ممتلئ بزهو مَرضي حتى إنه لا يستطيع أن يتوقف عن رؤية نفسه باعتباره إلهًا، ولكنه في الوقت ذاته، لا يحمل لنفسه سوى أقل القليل من التبجيل (ويحلل نفسه بوضوح كبير) حتى إنه لا يسعه إلا ازدراء نفسه بشدة وبلا حدود ومن دون مبرر». ويضيف دوستويفسكي أن هذه هي «الفكرة الرئيسية والأهم للرواية».

وفي المخطط الرابع، أصبح الأبله الشخصية الرئيسية في الرواية. ويكتب

دوستويفسكي في دفتره: «الأبله ينتظر بترقب وقلق، كما لو أن هناك ما كان عليه أن يفعله. يشجع نفسه بقوة، ومن ثَمَّ يبعد حزنه بخداعه نفسه»، (ويضيف إلى ذلك، «ملحوظة: كما لو كان لديه هدف، على الرغم من أنه ليس لديه أي هدف»). وفي دفاتره اللاحقة، يستخدم عبارات قصيرة وبسيطة لوصف الأبله: «رسم الشخصية. مبادئ الشهامة. طفولة. حسد. سخط». وفي دفتر آخر: «شخصية الأبله. مخلوق غريب. أطواره الغريبة. لطيف. في بعض الأحيان لا يتفوه بكلمة واحدة». في موضع آخر: «اضطهاد. جبن. تذلل. تواضع. يعي تمامًا أنه أبله». يتواصل ذلك حتى الدفتر الأخير، حيث يكتب دوستويفسكي: «دعونا ننهِ حكاية شخص ربما لم يكن يستحق كثيرًا من اهتمام القارئ - نحن متفقون على ذلك».

لكن بناءً على ملاحظات دوستويفسكي الأولى، هناك ملمح لدى الأبله لم يتغير وهو أنه: «مريض بالصرع ويعاني نوبات عصبية».

~ * ~

في التشاؤم نشوة تطغى على كل تفاؤل.

~ * ~

«أنت لا تعيش حتى مرة واحدة». (كارل كراوس).

~ * ~

الحي: جسد يبحث عن جثة.

~ * ~

التشاؤم - رَجُل منطق حزين يتفانى في عمله.

~ * ~

نحن نبحث في بديهيات الأقمار السوداء ونقيس طقوس الرماد والغبار ونتنبأ بكيف ولماذا تتدلى أجسادنا الطينية في فضاء ثقيل. كل فكرة متعثرة لتطهير هالة من العظام. أطراف سماوية باردة.

~ * ~

إرشاد الذات. اللحظة التي تظن فيها أنك متشائم هي اللحظة التي لا تغدو فيها متشائمًا.

~ * ~

تقوم رؤية نيتشه على أننا لسنا بحاجة إلى انتظار أن يرغب الإله في معاناتنا، حتى يمكننا عندئذ إثباتها.

~ * ~

العالم مشرق بانعدام أهميته.

~ * ~

الحياة بالكاد تستحق أن تعاش. «هاجمتني مشكلات من ألف نوع واحدة تلو واحدة. كنت سأتحملها مبتهجًا لو جاءت دفعة واحدة». (مونتَني).

~ * ~

قائمة انطباعات (٥). يقدر العلماء عمر الأرض بنحو ٤,٥ مليار سنة، نتيجة السدم الشمسية والتراكمات الثقالية اللاحقة للمادة في الفضاء. وتشير التقديرات إلى أن أشكال الحياة الأولى على هذا الكوكب قد تطورت منذ ٣,٥ مليار سنة، حيث ظهرت أشكال الحياة الضوئية منذ مليارَي سنة. وتطورت أشكال الحياة المعقدة الأولى (متعددة الخلايا) منذ ما يقرب من ٥٨٠ مليون سنة، وأول ثدييات فقارية منذ ٣٨٠ مليون سنة، وعصر الديناصورات منذ ٢٣٠ إلى ٢٦٥ مليون سنة، والبشر الأوائل منذ نحو ٢٠٠ ألف سنة.

عندما يتم ترتيبها على الساعة، باعتبار أن تاريخ الكوكب قد جرى في ساعة كاملة، فإن ظهور البشر الأوائل سوف يشغل الثواني الأخيرة من تلك الساعة. ومن سوء حظ جنسنا البشري أنه يَعُد هذه اللحظات القليلة الأخيرة هي الذروة.

~ * ~

التشاؤم - مثل الموسيقى - يأخذ نفسه دائمًا على محمل جد زائد.

~ * ~

التحول اللغوي في التشاؤم. كل كلمة يُتفوه بها هي شكوى. وكل كلمة تُكتب هي اعتراف.

~ * ~

تفاؤلي: هو أن يكون التشاؤم غير مشروط.

~ * ~

حين تصبح مشغوفًا بما هو فوق بشري، فهذا مرض. ولما كانت لا توجد كلمة تصف هذا «المرض الروحي»، يستعمل اللاهوتي رودولف أوتو لذلك مصطلح «الثيوباثية» (Theopathy)[1]، الذي يعني الإخلاص لما هو فوق بشري.

~ * ~

البديهية هي مقولة منطقية وموجزة عن حقيقة بديهية. النظرية هي اقتراح لحقيقة يمكن إثباتها بوضوح بالاستعانة بالرياضيات أو المنطق. الإبيجراما هي عبارة موجزة، يغلب عليها الطابع الأدبي، وتعبر عن حقيقة عامة.

ماذا إذن عن الشذرة؟ إنها موجزة وتدعي حقيقة لم تثبتها التجربة بعد، أو على الأقل تدعي قول شيء ذي مغزى. وعلى النقيض من البديهية، فهي لا تميل إلى الحقائق الواضحة بذاتها. كما تفتقر إلى الصرامة المنطقية التي تميز النظرية. بل وينعدم بها حتى خيال الإبيجراما.

ماذا تفعل الشذرة؟ إنها تفصل، أي تحدد وتقسِّم وتميِّز-

لا شك أن المتشائمين يحتفون بالشذرة بسبب هذا التمييز. إنها الحلم بنفي مكتفٍ بذاته وهدوء في الهاوية وسكون همسة لا تكاد تُسمع. إنها حلم يبث الإحباط، أيضًا، لأن الشذرة أيضًا «تحديد» - موجز ومكثف ودقيق. الحلم بقول شيء يفكك - أو يحرر - نفسه، مع كل السهولة التي ينطوي عليها الاستسلام.

~ * ~

(١) يعني الاستغراق في الإخلاص والورع الديني بدافع الشغف. (المترجم).

يقال إن الفيلسوف القديم إمبيدوكليس ألقى بنفسه في فوهة جبل «إتنا» بحثًا عن الحقيقة في المكان الوحيد الذي توجد به وهو أحشاء الأرض. (وقد مات).

~ * ~

أوجاع وآلام. تتطابق لامبالاة الكون مع لامبالاة الجسد - والأخيرة أقل إثارة للإعجاب، ولكنها ليست أقل عظمة.

~ * ~

«وحدهم الأحياء يموتون، والمستيقظون ينامون، والصغار يكبرون». (هيراقليطس).

~ * ~

قهوة بإفراط. وصف نيتشه ذات مرة المتشائم بأنه شخص بارع أفسد معدته كي يتسنى له الشكوى من الطعام، وهو وصف مناسب أيضًا للكيفية التي يكتب بها المتشائم...

~ * ~

يروي شامفور، كاتب الشذرات الفرنسي الذي عاش في القرن الثامن عشر، تعليقًا ينسبه إلى أحد معارفه، مشيرًا إليه بأنه «كارهٌ دمثٌ للبشر»: «وحدُها «لاجدوى الطوفان الأول» هي ما تمنع الإله من إرسال طوفان ثانٍ».

~ * ~

حين تكون بمفردك، يبدو صوتك مختلفًا. أغلظ. وأشد خواءً.

~ * ~

قر\ر خاطئ. يرسل «د» إليّ اليوم بأحد المقتطفات التي نالت استحسانه. وقد نقله من كتاب للأطفال، هو إحدى قصص «اختر مغامرتك» (على الرغم من أنه لا توجد حقًا مغامرة تستحق الاختيار):

«٢٩٢- إن آخر ما تعاينه في هذه الحياة هو الشعور بأنك تُبتلع في فراغ مظلم. وبأنك لم يعد لك أي أثر في هذا العالم، لأنك قد انتقلت إلى وجود سرمدي. لقد أصبحت عبدًا لشر قديم. وهنا تنتهي مغامرتك».

يمكن كتابة شروح كاملة حول هذه الفقرة، التي أظنها إحدى نهايات هذه النوعية من كتب «اختر مغامرتك». وتبهرني إمكانية أن أصادف هذه الفقرة فجأة في كتاب موجه للكبار وكذلك للأطفال ممن هم في سن الثانية عشرة. كم هو سيئ ألا تُستخدم هذه الأساليب في جميع الكتب. كم سيكون مثيرًا أن نقرأ كتبًا فلسفية، ونحن نعلم أن الصفحة التالية ربما تكون نهاية الكتاب. وفي الوضع المثالي، بعد قراءة مثل هذه الفقرة، سوف يحترق الكتاب نفسه تلقائيًّا ويصبح رمادًا عديم القيمة.

~ * ~

أشار بسكال ذات مرة إلى أن الإنسان ما هو إلا قصبة مفكرة: «ولا حاجة إلى أن يجتمع الكون بأسره ويحمل السلاح كي يسحقه، فلفحة بخار أو قطرة ماء تكفي لقتله...»، ومع ذلك، وحتى وهو يكابد سكرات الموت، يستطيع الإنسان أن يعي حالته، وهو ما يعتبره بسكال، انتصارًا صغيرًا يحرزه الإنسان.

ولكن ماذا عن الكون؟ «الكون لا يدري شيئًا عن ذلك».

~ * ~

شوبنهور: العالم مفجع...
نيتشه: العالم مفجع!

~ * ~

مهزلة الثقافة الإنسانية - العزوف والاستياء...

~ * ~

تتضمن رواية دوستويفسكي «الأبله» موضوعًا واحدًا هو بشرٌ يُغرق بعضهم بعضًا في إنسانيتهم. على مدار ستمائة صفحة.

~ * ~

بالنسبة إلى المتفائلين، فإن السؤال الأشد إرباكًا هو كيف يصبح المرء متشائمًا - ما دام لم يولد هكذا. وبالنسبة إلى المتشائم، فإن السؤال هو كيف لا يكون كل شخص، بحكم مولده، متشائمًا بالفعل.

~ * ~

كلما طال أمد معاناتنا، طال أمد تفكيرنا في المعاناة - وفي النهاية تُحجب المعاناة والتفكير بعضهما عن بعض تمامًا...

~ * ~

يخشى أن يكون راضيًا. ويرضى أن يكون حزينًا.

~ * ~

«من دون الموسيقى، ستكون الحياة غلطة». (نيتشه). وفي وجود الموسيقى، ستظل الحياة غلطة. لماذا إذن يمتدح متشائمون كُثر بدايةً من بسكال وشوبنهور ونيتشه وكيركجور وأدورنو وسيوران، الموسيقى؟ هل بحسبانها إثباتًا أم عزاءً؟

~ * ~

إذا كانت الحماسة هي نقطة ضعف المتشائمين، فإن التسويف هو نقطة ضعف المتفائلين. ويقول ستانيسلاف ليك: «لا يختلف المتفائلون والمتشائمون إلا على تاريخ نهاية العالم».

~ * ~

يذبل الجسد ويموت. عزاؤنا الوحيد هو علم التشريح.

~ * ~

«يتألف المجتمع من طبقتين كبيرتين: هؤلاء الذين يمتلكون من العشاء فوق ما يشتهون، وأولئك الذين يمتلكون شهية تفوق ما يمتلكون من العشاء». (شامفور).

~ * ~

أقرأ في كتاب فتجنشتين «في اليقين». أقرأ بضع فقرات منه على «پ» بصوت عالٍ، وفي أثناء ذلك أشعر وكأني كوميديان هاوٍ يرتجل الفكاهة: «ما الذي يجعلني، الآن، وأنا لا أستطيع رؤية أصابع قدمَي، أفترض أن لديَّ في كل قدم خمس أصابع؟»، «إذا ما حاولت الشك في كل شيء فلن تشك في أي شيء. إن لعبة التشكيك في حد ذاتها تتطلب يقينًا ما». «وشك بلا نهاية لا يرقى حتى لأن يكون شكًّا». وهكذا.

نحن نصدر صوتًا لهذا النمط من التفكير - وهو صوت إطارات تدور في الوحل. لقد أصبح إحدى نكاتنا التي نستخدمها في معظم المواقف اليومية التي نجد فيها أفكارنا تخرج عن نطاق السيطرة، وتنغلق بجنون على نفسها. نحن ببساطة نوضح ذلك بعضنا إلى بعض عبر إصدار هذا الصوت. سيارة قديمة في ليلة شتوية وجمود الوحل أو الثلج، واللاجدوى الهزلية من المحاولة مرة تلو مرة، كما لو أننا في رقصة خرقاء...

~ * ~

مزاج معتل (٥). «الطريق الأقل ارتيادًا» و«العثور على السعادة» و«تعلَّم التفاؤل» و«طريق السعادة»... قائمة عناوين كتب مقززة تحوي أفكارًا عقيمة ويبدو أن صفحاتها التي تفوح منها رائحة كريهة تتدفق عامًا بعد آخر وكأنها نوع من الأدوية النفسية الخاصة بعلاج نزيف الروح الأمريكية. أين كل «خبراء التعاسة»؟ وعلى الرغم من ذلك، لدينا كتب مثل «استخدامات التشاؤم» و«قوة التشاؤم» ومجموعة من المقالات الاستعلائية والمثيرة التي تنشرها مجلات مثل مجلة «سايكولوجي توداي» (Psychology Today)... إن النقاش برمته رديء وأحمق على نحو لا يصدق حتى إنني لا يسعني إلا أن أدين إدانة عامة وشاملة جميع خبراء «تطوير الذات» المتعالمين والتافهين والحمقى، فيما أرفض أن أقرأ صفحة واحدة من

كتبهم المزعومة. ولا تدوم هذه الحماسة إلا بمقدار ما ينتهي المرء من قراءة العناوين.

~ * ~

هناك لحظات نادرة أشعر فيها بالامتنان نحو بعض الكلمات. «فاضح». لا توجد كلمة أخرى أبلغ منها في وصف ما يعنيه أن تكون إنسانًا.

~ * ~

تمهيد وتقديم ثم مقدمة وملحق ثم حاشية... تذكرني «م» بعبثية جميع هذه الكتابات الموازية للنص. «إذا كانت قراءتها بهذا القدر من الأهمية، فلماذا لا يسمونها «الفصل الأول» وحسب؟»، أضحك معها وأقترح بديلًا هو: أن يُطلق على الكتاب بأكمله كلمة أخيرة، ما دام لا شيء منه مهمًّا.

~ * ~

ما يقبله الفلكي، لا يزال الفيلسوف يغالبه: كلما نظرت إلى النجوم ولانهائيتها في كل اتجاه، أكون في قلبها جميعًا. أفق كوني وذاتوية كونية.

~ * ~

أحيانًا يسألني أحدهم هل أنا متشائم. يجب أن أجد جوابًا ذكيًّا لهذا السؤال. أو أن أبتدع مزحة رائعة. لكن الحقيقة هي أنني متشائم... إلا

حين أكتب عن التشاؤم. لقد تمكنت من جعل التشاؤم شكلًا من أشكال العلاج.

~ * ~

دموع الكون. عندما أبكي، أبكي خوفًا أو قلقًا أو ندمًا. ومن ناحيته، يرسم التصوف المسيحي الخطوط العريضة للاهوت الدموع الذي يشمل دموع التطهر ودموع الحب ودموع الألم.

لا يزال النوعان الأولان من الدموع معنا حتى اليوم - فنحن نبكي إحباطًا أو خوفًا، ونبكي تعاطفًا مع الآخرين. ولكن ماذا عن النوع الثالث من الدموع، دموع الألم؟ ألا يوجد معادل دنيوي؟ نحن تشاؤميون إلى درجة تجعلنا لا نَعُد ذلك سوى بروفة نهائية. وعلى الرغم من ذلك، فإن المعاناة موجودة في كل مكان - ونألفها كل يوم. العالم كله يعاني. وإذا كنت ساذجًا بما يكفي، فستذهب إلى ما هو أبعد: الكون يعاني. أن تكون المعاناة عالمية، فهذا أمر شائع. لكن أن يكون الكون يعاني - بل أن يكون الكون لديه بنية المعاناة - فهذا تذكير بأن معاناتنا ليست أبدًا «مسؤوليتنا».

ولكن كيف يمكن أن يكون هناك ألم لدى الكون، إذا كان الكون لا يبالي البتة؟

~ * ~

هل يجوز أن يكون «الأسوأ»، على النطاق الأوسع للأشياء، ضئيل الشأن إلى حدٍّ يجعله احتقارًا للذات؟ يكتب جوبير في أحد دفاتره قائلًا: «... أفظع وأبشع الكوارث التي يمكن تخيلها، والتي يضطرم فيها الكون،

هل يمكن أن تكون سوى طقطقة حبة بارود ثم انفجارها وتبخرها فوق لهب شمعة؟».

~ * ~

قرأت في مكان ما أن الكاتب الياباني هارو ساتو كتب قصصًا غير مكتملة أكثر مما كتب من القصص المكتملة. أتخيل أن مؤلف «كآبة في القرية» (Gloom in the Country) و«كآبة في المدينة» (Gloom in the City) – وهما رائعتان تدوران حول وحشة ذاتية طاغية – لا بد أنه وجد صعوبة في بدء الكتابة، ناهيك بإتمام ما بدأ. كما لو أن السطر الأول الذي خطه هو في الواقع نتاج لفترة ممتدة من الاستسلام.

~ * ~

دموع كانط. كتب سيوران ذات مرة يقول: «انصرفت عن الفلسفة حين أصبح محالًا أن أكتشف لدى كانط أي ضعف بشري، وأي نبرة حقيقية من الكآبة، لدى كانط ولدى جميع الفلاسفة». ما زلت أعود إلى كانط، لكن لسبب معاكس. في كل مرة أقرأ فيها وأشهد البناء المتلألئ والصارم لنظام ما، لا يسعني إلا أن أشعر بحزن ما – لأن الصرح نفسه يبعث على الكآبة.

~ * ~

ضجر الأسوأ. هناك تشاؤم يقوم كليًّا على تمضية الوقت. ترد بخاطري الكتب العظيمة غير الروائية التي صدرت في القرن الماضي مثل «القلعة» لدى كافكا و«اللاطمأنينة» لدى بيسوا و«المساعد» لدى روبرت فالسر و«الخاسر» لدى

برنهارد، وبدايةً من دوستويفسكي وحتى كرازناهوركاي. إنه تشاؤم هزلي وقاسٍ ومقتضب من «أي كان» - حياة خاملة يتعذر تمييزها عن مجرد الوجود، ومجرد وجود يتعذر تمييزه عن انعدام الوجود على الإطلاق...

~ * ~

مونتني وبسكال وليوباردي وكيركجور ونيتشه... أعترف أنه ليس من الدقة أن ندعوهم متشائمين. وهم أنفسهم لم يستخدموا هذا المصطلح قَطُّ (والأمر ذاته ينطبق حتى على شوبنهور). وكانوا، ربما، يهتمون بالحياة اهتمامًا مفرطًا. أليس ذلك هو موطن ضعف المتشائم؟

~ * ~

يظهر كذب الفلسفة عند القياس بالسفر. حين يعود المرء من زيارة مكان بعيد، يشعر لفترة من الوقت، بإحساس متجدد بالثقة ويقبل على مهام كان يعتبرها في وقت سابق هائلة.

يحدث لي شيء مشابه، لكن من حيث التفكير. حين أستكشف اختصاصًا ما أو نوعًا أدبيًّا أو مجالًا جديدًا، يصبح ضيق الأفق الذي يشوب الطرق التقليدية للتفكير أوضح، كما هي الاعتباطية التي نفصل بها اختصاصًا عن آخر. وأشعر بأنني مستعد، بل حريص على، للسؤال حول كل شيء.

لكن - كما الحال مع السفر - فإن ذلك لا يدوم. فالعادات القديمة تعود. وبهذا المعنى، فإن الفلاسفة - الذين لديهم شيء يقولونه عن كل شيء - هم أسوأ أنواع السائحين.

~ * ~

التشاؤم - كشف لا فائدة منه.

~ * ~

في أحد أعماله الأخيرة، يكتب صامويل بيكيت: «افشل بطريقة أفضل». كم هو محبِط. سرعان ما تتحكم بنا جميعًا الغاية العلاجية.

~ * ~

في الحماسة. «العالم جدير بكل ازدراء حتى إن القلة من الأشخاص المحترمين الموجودين فيه يوقرون هؤلاء الذين يزدرونه ويتأثرون بهذا الازدراء ذاته». (شامفور).

~ * ~

إن «العمل من دون حماسة» يتطلب شجاعة حقيقية - شجاعة مَن يسير نائمًا.

~ * ~

«... كلما درست أكثر، أدركت أنني كنت مدعاة للسخرية. وفي المحصلة، كان التعليم الجامعي بالنسبة إليَّ بمنزلة تفسير وإثبات لعبثيتي». (دوستويفسكي).

~ * ~

الشذرة هي الشيء الوحيد الذي يشتهيه المتشائم أكثر مما يشتهي النظرة القاتمة. وهي دقيقة ومجربة كما المزحة.

~ * ~

كنت أتبادل رسائل بريد إلكترونية مع «ت» حول أمور عدة، ومنها اهتمامنا المشترك بمفاهيم الرفض والنبذ والاستسلام. أكتب له أنني بصدد الانتهاء من كتاب بعنوان «الاستسلام اللامتناهي». يجيبني بأن ما يثير الدهشة هو أنه لم يُكتب سوى القليل عن الاستسلام بوصفه مفهومًا فلسفيًّا. وأن الشيء الوحيد الذي يجده هو كتاب بعنوان «The Art of Resignation» – ليفاجأ بأنه كتاب يدور حول موضوع كيف للمرء أن يستقيل من وظيفته[١].

أضحك، ولكن في دخيلتي أتساءل هل ينبغي لي أن أقرأه.

~ * ~

نحن بحاجة إلى حكماء أقل هذه الأيام. يكتب ليشتنبرج: «ستكون فكرة جيدة أن يكتب طفل ما كتابًا لعجوز، بما أن الجميع الآن يكتبون للأطفال».

~ * ~

(١) المفاجأة هنا تنبع من كون الكلمة الإنجليزية التي تحمل معنى «الاستسلام» وهي «Resignation» الواردة في عنوان هذا الكتاب بالإنجليزية تعني أيضًا «الاستقالة»، أي تخلي شخص ما عن عمله بمبادرة منه. (المترجم).

الثقافة الإنسانية تثير بداخلي الكراهية.

~ * ~

إذا كان هناك شيء واحد نتعلمه من نيتشه، فهو فضيلة أن تكون مخطئًا.

~ * ~

في المكتبة. ساعة من التأمل تَفضُل حياة ملأى بالطموح، على الرغم من أن أيًّا منهما لا يثمر نتائج ملموسة.

~ * ~

كل دين يجب أن يجعل من عدم الإيمان غايته.

~ * ~

كما نيتشه، كان كيجي نيشيتاني مقتنعًا بأن سبيل الخروج من التشاؤم هو المرور من خلاله، ويرى مفكر «مدرسة كيوتو الفلسفية» أن هذه هي الحال أكثر من أي وقت مضى، حيث كانت العلوم الحديثة والتكنولوجيا تكشفان بوتيرة سريعة عن ترتيب لا عقلاني وغير مكترث لأشياء تذكرنا بطريقة مبهمة بشوبنهور ومريديه. وهو يكتب قائلًا: «إن وجهة النظر التي تؤنسن العالم، والتي بموجبها تكمن نية شخص ما أو إرادته وراء الوقائع التي تجري في العالم الخارجي، قد دحضها العلم تمامًا». كانت هذه هي مساهمة شوبنهور، فيما سيخطو نيتشه الخطوة التالية. «أراد نيتشه أن يمحو آخر بقايا هذه الأنسنة عبر تطبيق النقد على العالم الداخلي أيضًا».

لقد كان نيشيتاني شديد الانشغال بمسألة التشاؤم حتى إنه ليقول: «إن التغلب على هذه العدمية التشاؤمية هو أكبر قضية فردية تواجه الفلسفة والدين في عصرنا». وفي موضع آخر، على الرغم من ذلك، يعترف نيشيتاني، «حتى نحن في العصر الحالي ما زلنا متدينين ونحمل آثارًا لموقف سلبي إزاء هذه الحياة».

~ * ~

قائمة انطباعات (٦). نحن نَعُد الانتحار الآن مشكلة طبية لا فلسفية. ومع ذلك، يقال لنا، إن معدلات الانتحار في ازدياد عبر العالم - مليون شخص ينتحرون سنويًّا بالولايات المتحدة الأمريكية وحدها. وبينما تتواصل الأبحاث وتُكتشف عقاقير جديدة، فإنه يتعذر العثور على نمط ناظم لذلك. وربما تكون المرحلة التالية هي اعتبار الانتحار مسألة حسابية ومسألة عشوائية ولعبة حظ.

~ * ~

أن تظل مذهولًا دائمًا من تفاهة التفكير - تفكير البشر...

~ * ~

نحن لسنا مرئيين كما مفاصلنا البلورية وأطرافنا الليفية، ويمكن ملامستنا مثلما يمكن ملامسة خيال ظل التفكير نفسه.

~ * ~

عرَّف نيتشه ذات مرة «عدم القدرة على تحمل الانتظار» بأنه إحدى أكثر سماتنا البشرية شيوعًا. في الثقافة كما في التاريخ، كل مأساة وملهاة هي ببساطة نتاج لعدم قدرة شخص ما على تحمل الانتظار. لو أن «ميديا»[١] كانت قد ارتاحت ذلك اليوم وحسب؟ لو أن هاملت ظل يرجئ حسم أمره مدة أطول؟ لو أن «أرجونا»[٢] كان قد ألغى الأمر برمته؟ لكن عدم القدرة على تحمل الانتظار يُنظر إليه باعتباره فضيلة طاغية بما لا يمكن معه تهميشها هكذا - إن «عدم القدرة على تحمل الانتظار» نفسه لا يمكنه أن يتحمل الانتظار.

كيف، إذن، يجب أن نفهم ثقافة مثل ثقافتنا «عالمية» وآنية ومرغوبة في القرن الحادي والعشرين، والتي تشكلت حصريًّا على الأغلب عبر الانتظار؟ انتظار قطار الأنفاق وانتظار الغداء وانتظار صديق والانتظار في المطار وانتظار أن يُنادَى عليك وانتظار ألا يصيبك أذى وانتظار الشفاء وانتظار أن تحظى بالاهتمام أو أن تُترك في سلام، وانتظار إشارة...

~ * ~

في نقاش دار خلال تناولنا القهوة، يعطيني «أ» مسودة لمخطوطة كتاب له كي أبدي الرأي فيها. أشعر بحماسة لقراءتها، وعلى الرغم من إعجابي بعمله، فإنني فيما يبدو لا أجدني قادرًا على تقديم أي ملاحظات مفيدة. أبدأ بوضع

---

(١) بطلة المسرحية التراجيدية الإغريقية الشهيرة «ميديا» التي ألفها الكاتب المسرحي يوربيدس، والإشارة هنا إلى اليوم الواحد الذي أمهلت إياه ميديا كي تغادر الجزيرة والذي اقترفت خلاله أبشع الجرائم التي ختمتها بفاجعة قتلها ولديها انتقامًا من زوجها. (المترجم).

(٢) أحد أبطال الملحمة الهندية «مهابهاراتا» التي تمثل جزءًا مهمًّا من الميثولوجيا الهندوسية. (المترجم).

خطوط تحت فقرات وكتابة هوامش وثني أطراف صفحات - ولكن قرب نهاية المخطوطة أبدأ برسم بعض الصور على صفحاتها، مدفوعًا بجملة أو بعبارة مما يرد فيها. تتضمن الفصول الأخيرة صورًا لبلورات سوداء وسرب من الطيور أو الخفافيش ويدين متجعدتين ووعاء ينبعث منه دخان وشبكات من خطوط مدلاة بين الكلمات - جميعها، بالطبع، مرسومة رسمًا سيئًا. وآمل أن يعتبرها إطراءً، إن لم تكن رأيًا.

~ * ~

لاجدوى الدماغ. نحن نتصور في الحال أننا من الممكن أن نُختزل في أدمغتنا ولكن لا نُختزل في أي جزء من كينونتنا. الدماغ - ذاك الرمز الغريب الذي يؤهلنا في الحال لأن نكون بشرًا لكنه يجرنا إلى عالم كئيب وحزين من الجثث والمادة الرمادية. وبطريقة ما، فإن الدماغ هو ببساطة قدرتنا على أن نسمح لأنفسنا باعتبار الدماغ أمرًا مسلمًا به - في كل مرة نقول «أعتقد...»، «أعرف...»، «لا أعرف...»، «أنا...»، «أنا كنت...».

فتجنشتين: «أعلم أنني إنسان». وكي تدرك مدى عدم وضوح معنى هذا الافتراض، فكِّر في نفيه. ربما يُفهم على الأغلب باعتباره يعني «أعلم أن لديَّ أعضاء إنسان». (مثل دماغ لم يره أحد من قبل). ولكن ماذا عن افتراض من قبيل «أعلم أن لديَّ دماغًا؟ هل يمكنني الشك في ذلك؟ أسس الشك منعدمة! كل شيء يؤيد وجوده، ولا شيء ينفيه. ومع ذلك، يمكنني أن أتخيل أن جمجمتي ينبغي أن يُتبين أنها فارغة عند تشغيلها».

الجمجمة الفارغة هي الدماغ في أفضل حالاته.

~ * ~

شوبنهور والبوذية والمسيحية والرومانتيكية وتيار الانحطاط والعدمية والجمالية والفن من أجل الفن... هي جميعها بالنسبة إلى نيتشه مجرد صور رمزية للنظرة التشاؤمية. والقاسم المشترك بينها جميعًا هو أنها تقول «لا» للحياة كما هي، وتدعو إلى الاستسلام والرفض وأحيانًا حتى إلى الخلاص. وهي لا تختلف فيما بينها إلا في الكيفية التي تقول بها «لا» - مسألة أسلوب ليس إلا.

~ * ~

لماذا أشعر بأني مهدد من قِبل الأشخاص الاجتماعيين بإفراط؟

~ * ~

حين يتعافى المرء من مرض خطير، فإن استجابتنا المعتادة هي أن نعزو الشفاء على الفور إلى سبب ما. لا يمكن أن تكون العودة من شفير الموت غير ذات قيمة. لا بد من أحد ما أو شيء ما يوجَّه إليه الشكر، ولا بد من سبب ما جعل ذلك يحدث. «بفضل الأطباء، نجوتُ». و«لا بد أنها مشيئة الإله».

لكننا نعلم أيضًا مدى الخداع في أن نعزو معجزة ما حصريًّا إلى علم أو دين. يقول طبيب، «لقد فعلنا كل ما بوسعنا، وبمشيئة الإله، سوف ينجو». ويقول أحد أفراد العائلة، «نحمد الإله أن الأطباء تمكنوا من إنقاذه».

وعلى مدى قرون، علَّمنا الفلاسفة كيف لا يمكن الركون إلى السببية، فهي قادرة على التشكل والتقولب بما يلائم كل ما نؤمن به بالفعل وما نحتاج إلى إثباته. إن ما نحن أعجز عن القيام به هو النظر في اعتباطية الحياة، ولا سيما حين تنجو بأعجوبة من الموت. هل لدينا حقًّا تلك الحكمة - التجرد - التي تجعلنا نرى أن معجزة الحياة هي هذه الاعتباطية؟

وفي أثناء ذلك، ثمة جزء مني يشعر بحزن على الشخص الذي عاد إلى الحياة، لا شيء أشد أنانية أو مأساوية من ذلك.

~ * ~

منسوج من طحالب البحر، إنه التأرجح البطيء للزمن. في ظلام مشبع بالنخاع ولحاء شجر البتولا، نراقب ما نعجز عن ملاحظته. الغابات ليست مغلقة تمامًا، وأعيننا ليست مفتوحة جدًّا، حيث نقتات في حزن على أكاليل مضيئة ومعلقة عاليًا.

~ * ~

قال كيركجور في عبارته الشهيرة «حزني هو حصني». لسوء الحظ، لسنا جميعًا لدينا مثل هذه المساحة الكبيرة.

~ * ~

الولادة هي الصدمة الأولى.

~ * ~

قتامة الأعمال الفنية. يقابل غموض العالم غموض فهمنا للعالم. يدفع الفيلسوف بأن الوضوح في منطقة ما سيؤدي إلى الوضوح في منطقة أخرى. ولا يستطيع المتشائم تحقيق هذا القدر من الوضوح. وفي ذلك كتب نيتشه: «إن العنصر الأساسي في فن الظلامية الأسود ليس أنه يريد تعمية الفهم الفردي بل يريد إعتام تصورنا عن العالم، وتعمية فكرتنا عن الوجود».

حين أقرأ ذلك، أدرك أنني قد خنت نيتشه كثيرًا بقدر ما قرأته.

~ * ~

أنا أعلق الحكم. حين يدور نقاش حول مقالات مونتَني، عادةً ما يدور في سياق الشك وليس التشاؤم. ربما كان مونتني مفتونًا أشد الافتتان بالحياة. ومع ذلك، فإن الاثنين يتداخلان من وجوه عديدة. فالشك لدى الشكوكي يغذي رفض الوجود لدى المتشائم، تمامًا كما تغذي شكوكية المتشائم شعار الشكوكي «أنا أعلق الحكم». لكن إذا كان المتشائم يميل إلى الشعور بالإحباط واليأس، فإن الشكوكي يحتفظ بقدر من البهجة، بهجة الامتناع والانسحاب، وعدم الانخراط في اللعبة من الأصل.

يصعب موضعة مونتني عبر هذا الطيف. وعلى الرغم من نوبات الكآبة التي كانت تعتريه، فقد ظل اجتماعيًّا، بل ويشيد بالعلاقات الشخصية في كثير من مقالاته. ولكن في مقابل كل مقال عن الصداقة هنالك آخر عن العزلة. وفي مقابل كل مقال عن الاستقامة هنالك آخر عن الغرور، وفي مقابل كل مقال عن الوعي هنالك آخر عن الثمل. بالنسبة إلى فلاسفة آخرين، كان الشك وسيلة لتحقيق غاية - عند ديكارت، كان الشك بمنزلة طريق جانبي لبلوغ الأساس العقلاني للوعي الذاتي، فيما كان الشك لدى بسكال نقطة الانطلاق لتأكيد الإيمان الديني. ومع ذلك، يبدو أن مونتني يشير إلى تمسكه بنوع آخر من الشك، وهو شك ليس وسيلة إلى غاية، بل غاية في حد ذاته. وإذا كان ثمة خيط عام يربط بين «المقالات»، فإنه فكرة الشك الواسع والشامل، شك لا غاية له. وحتى عناوين مقالاته تتبنى هذا النوع من الشك كما في العناوين التالية: «من الحماقة أن نحدد الصواب والخطأ اعتمادًا على قدرتنا الخاصة»، «في لايقينية أحكامنا»، «عن أباطيل الكلام».

ولكن في مقالته المطولة التي تحمل عنوان «دفاعًا عن رامون سيبيودا»[1]، نرى مونتني يعلق باستفاضة على نمط معين من الشك، وهو شك الفيلسوف الإغريقي بيرون (عاش من ٣٦٠ قبل الميلاد حتى ٢٧٠ قبل الميلاد تقريبًا):

«بيرون والشكوكيون الآخرون... يقولون إنهم ما زالوا يبحثون عن الحقيقة. هؤلاء القوم يرون أن أولئك الذين يظنون أنهم قد عثروا عليها يخطئون خطأً لا حدود له، وأن هناك أيضًا غرورًا صفيقًا لدى الفئة الثانية التي تؤكد لنا أن ملكات الإنسان لا تقدر على الوصول إليها».

كانت استجابة الشكوكية البيرونية هي رفضًا مزدوجًا، أي رفض كلا الفريقين، حيث شككت في كل إثبات، مما يؤدي إلى مباراة شطرنج عبثية كما يلي: «حين يفوزون، يصبح افتراضك واهيًا، وحين تفوز، يحيق ذلك بافتراضهم. وحين يخسرون، يثبتون جهلهم، وحين تخسر أنت، تثبت أنت ذلك». ويلخص مونتني المنهج البيروني: «تأتي تعبيراتهم كما يلي: أنا لا أثبت شيئًا. ليست هذه ولا تلك، أو ليست أيًّا منهما، وأنا لا أفهمها، والمظاهر متكافئة في جميع الجوانب، ويجوز بالقدر نفسه من الصواب أن تؤيد وأن تعارض... إن كلمتهم المقدسة هي «ἐπέχω»، التي تعني «أنا أعلق الحُكم، ولن أتزحزح»».

دخلت فلسفة بيرون حياة مونتني عبر كتابات الطبيب والفيلسوف الإغريقي سكستوس إمبيريكوس، الذي عاش في القرن الثاني الميلادي، والذي يوضح في كتابه «معالم البيرونية» (Outlines of Pyrrhonism) عناصر الشكوكية الفلسفية. لقد قرأ مونتني ترجمة لاتينية اضطلع بها هنري إستيان في ستينيات القرن السادس عشر، وكانت بمنزلة مصدر للاقتباسات التي أوردها في كتاباته، سواء في مقالاته أو في العديد من النقوش التي خطها على

(١) لاهوتي قطالوني يشتهر برسالته في اللاهوت الطبيعي الذي يقوم على فكرة مفادها أن الإنسان يمكنه معرفة الإله ومحبته من دون وحي ديني. (المترجم).

عوارض سقف مكتبته بالمنزل. ويُعرِّف كتاب «معالم البيرونية» الشكوكية بما يلي:

> «الشكوكية هي مَقدرة أو موقف عقلي، يعارض إصدار أي أحكام بأي شكل من الأشكال، وتكون النتيجة هي أننا، بسبب تكافؤ الأشياء وتعارض الأسباب، نصل أولًا إلى حالة من تعليق الحكم الذهني وثانيًا إلى حالة من رباطة الجأش أو الطمأنينة».

وعن «التعليق» يقول سكستوس إمبيريكوس: «هو حالة من الراحة الذهنية التي بسببها لا ننفي أي شيء ولا نثبته». وعن «الطمأنينة» يقول: «حالة سكينة وهدوء للروح».

ولا يكشف الشك إلا عن ثقة عصرية وثابتة في مصداقية الشك وفائدته في خدمة الفلسفة. لكن في القرن الرابع، نجد بيرون الإليسي: الشك لا يتوقف، أو الشك يتوقف عند الطمأنينة. ويقال إن بيرون حين وجد نفسه لا يستطيع أن يقرر أيًّا من المذاهب الفلسفية في عصره يجب أن يدعمها، اهتدى إلى حالة من الطمأنينة والهدوء.

~ * ~

شكاك. أين يتوقف الشك؟ يجب على كل فيلسوف أن يجيب عن هذا السؤال. ديكارت: الشك يتوقف عند الوعي بالذات، وهو الكوجيتو (ويتوقف الشك كي يصبح بنَّاءً). هيوم: الشك يتوقف عند التكرار المعتاد للعلة والمعلول (ويتوقف الشك لأنه مركب منطقيًّا). فتجنشتين: الشك يتوقف عند اللغة، وهي لعبة تمارس حتى نهايتها (يتوقف الشك كي تستمر اللعبة).

إن بلوغ مثل هذا الهدوء أمر يسهل قوله ويصعب عمله بلا ريب. في مقالته «دفاع» يروي مونتني كيف كان بيرون، حين يتحدث مع شخص ما،

يُظهِر مثل هذا الاتزان حتى إنه إذا ما انسحب المتحدث من النقاش، فإن بيرون كان يواصل حديثه وحسب، وكأن شيئًا لم يتغير.

~ * ~

لطالما راودني الشك في أن مؤلفات نيتشه هي محاولة مستمرة «لزعزعة» أسس التشاؤم.

~ * ~

ما عليك إلا أن تتكلف ابتسامة لمدة طويلة حتى تغدو تكشيرة.

~ * ~

في الليلة السابقة التي التقطت فيها كتاب شذرات، نسيت مَن يكون مؤلفه - ليشتنبرج أو لعله ليوباردي... لا، كان شامفور - وفتحته كيفما اتفق. قرأت شيئًا يفيد بأن قراءة كتاب يتألف من شذرات تشبه تناول بعض المكسرات أو التوت - تبدأ بانتقاء أحسنها. ولكن شيئًا فشيئًا، تصبح القراءة تصفحًا سريعًا.

~ * ~

في حديث يجمعني مع «ك» بعد تناول الغداء. يتحول الحديث إلى السريالية، إذ كنت أكتب مقالًا عن الشاعر الفرنسي روبير ديسنوس، المعروف بقدرته على إدخال نفسه في غفوات نعاس يؤلف خلالها قصصًا رائعة. ويذكرني

«ك» بالروائي رينيه كريفل وهو أيضًا بارع في مثل هذه «التلقائية»، والذي، حين انتحر في ١٨ يونيو من عام ١٩٣٥، لم يترك سوى رسالة قصيرة تقول: «من فضلكم احرقوا جثماني. إنه مقزز».

~ * ~

«... لا شيء آخر يمكن اعتباره غاية وجودنا سوى الإدراك بأنه كان من الأفضل لنا ألا نوجد». (شوبنهور). وهو إدراك، بطبيعة الحال، لا يمكن بلوغه إلا بالوجود.

~ * ~

على الرغم من جميع ادعاءاتها بكونها المركز الثقافي والمالي للعالم، فإن مدينة نيويورك شديدة الإزعاج والقذارة وتعج بأناس بغيضين. وفي أثناء سيري أنا و«پ» إلى محطة قطار «ج»، تستقبلنا أكوام القمامة والفئران ورائحة البول. هذه هي سنوات الغسق لثقافتنا. تقول لي «پ»: «تبدو الحال وكأننا نعيش في بلد متر\جع».

~ * ~

مادية إقصائية (١). يرى بعض المفكرين المتشائمين أن الوعي شذوذ، وأننا لسنا سوى آليين نؤدي وظائف عصبية معرفية، وأن أعلى قيمنا ما هي إلا مظاهر عابرة لفكرة عابرة بالقدر نفسه عن الذات، وهي جميعها يقوضها عدد لانهائي من الذرات والكواركات والخيوط والبوزونات اللاعاقلة التي تحلل الذات إلى جسيمات كثيرة غير معروفة.

أجد كل ذلك مقنعًا. المشكلة هي أنه حتى هذا التشاؤم العلمي لا يزال يؤمن بالقوة التفسيرية للعلم. (أليس ذلك هو أقصى أشكال الغرور؟).

~ * ~

مادية إقصائية (٢). اختزال العقل في الدماغ واختزال الدماغ في الجسد واختزال الجسد في المادة واختزال المادة في غبار طيني والغبار في...

~ * ~

مادية إقصائية (٣). في فلسفة العقل، «الإقصائية» هي الموقف القائل إن إدراكنا العام ومفاهيمنا العادية عن العقل زائفة، بما في ذلك الحالات العقلية مثل حالات الإيمان أو الشك. لكن كيف يمكن لشخص أن يطور فلسفة إقصائية، ثم يحمل لها مثل هذه الطموحات العظيمة؟

~ * ~

مادية إقصائية (٤). ما يدهشني دائمًا هو مدى بساطة التفسيرات العصبية النفسية.

~ * ~

مادية إقصائية (٥). نحن نصبح بسهولة بالغة عديمي الأهمية بمرور الوقت، ونتحول من دون عناء إلى مادة. السؤال الوحيد الذي يبقى هو أيهما سوف يتلاشى أولًا، جسدي أم عقلي؟

~ * ~

تمييز ضد\الأنواع. إذا كنا نعيش حقًّا في حقبة الأنثروبوسين (Anthropocene)، فيبدو من المعقول أن نبتدع أشكالًا من التمييز تناسبه. ودعونا ننبذ جميع أشكال العنصرية العرقية والتحيز الجنساني والنزعة القومية وما شابه، وذلك في سبيل تمييزٍ من نوع جديد، يقوم على أساس النوع (speciesism). وهو تقزز ونفور من النوع الذي يحمل، كوصف إضافي، تقززًا تجاهنا. (هل ما زال ذلك مفيدًا، وهل ما زال يُنفذ بقدر كبير من ارتياح الضمير؟).

~ * ~

دوستويفسكي. إن الحيلة التي تدفع إلى قراءة رواياته هي أن الشخوص فيها أقل إثارة مما ينزل بهم من مصائب. لقد استغرقت بعض الوقت حتى أدرك ذلك. وتعترضهم عبر الطريق مخططات ومكائد وحظوظ عثرة كثيرة...

~ * ~

مجموعات من النجوم تحتضر وجماجم عاجية متسخة تثب فرحة وفيضان هائل من التيجان. من الرذاذ اللطيف الذي تنثره الأجنحة السوداء على وجهي. ما قصورنا الذاتي مقارنةً بسكون الكواكب المعلقة؟

~ * ~

أقرأ في كتاب عن التصوف: «لا شيء في هذا العالم لا يتكلم». العالم ثرثرة فارغة.

~ * ~

التشاؤم هو كراهية البشر كغاية وليس كوسيلة - كراهية البشر من دون سبب.

~ * ~

تأمل في لحظات تجلٍّ فاشلة. أعود من العمل إلى البيت سيرًا على قدمَي ذات يوم. أستمع إلى الموسيقى عبر سماعات رأس. أسمع الكلمات التي تُغنَّى «كاتدرائية هادئة وبحار ساكنة...» حين أسير بجوار الكنيسة القديمة شمال الحديقة. كانت الأبواب مفتوحة وهناك لافتة بسيطة كُتب عليها «تأمل مسائي صامت». كنت دائمًا أنوي الدخول، فقط كي أرى كيف تبدو من الداخل. فلماذا لم أدخل وأجلس في مقعد خالٍ وأستمع إلى أغنية الكاتدرائية الهادئة؟ ربما لأن ذلك هو ما فعلته بالفعل، لأنه كان ذا مغزى يبعث على الحزن حتى قبل أن يصبح محتمل الحدوث. ومن ناحية أخرى، ربما كنت أشعر بالقلق أو بالحرج أو بالكسل وحسب.

معظم لحظات التجلي التي أعيشها تشبه هذه التجليات الفاشلة.

~ * ~

شخص لم يعد الآخرون يثيرون حنقه، لكنه يظل مع ذلك كارهًا للبشر.

~ * ~

يتمثل الجانب السلبي في تدريس نصوص نيتشه أو ليوباردي أو سيوران في كونها تلهم الطلاب تأليف نصوصهم الخاصة بطريقة الشظايا والشذرات. وقد ضبطت نفسي في لحظة من التعطف في يوم سابق - حيث كان واضحًا أن أسلوب كتابة أحد الطلاب «لم يكن يرقى إلى المستوى المطلوب»،

وأنه «لم يستوعب»، وهكذا. ومن ثَمَّ يأتي التحول العكسي المعتاد - هل أنا مختلف بأي حال؟ ما الذي يجعلني واثقًا إلى هذا الحد أن كتاباتي ذات قيمة - لمجرد أنها منشورة؟ (وأي سبب أكثر وهمية من ذلك للكتابة؟). وأما عن الطالب، مَن أكون أنا كي أقيمه؟ ألم يتعرض شوبنهور للنبذ بمثل هذه الطريقة؟ ألم يكن سيوران ذات يوم طالبًا انصرف عن أطروحته؟ ألم يتعرض نيتشه للنبذ الدائم بجريرة كتاباته؟ ربما يكون السر وراء شذرة المتشائم بالفعل بسيطًا للغاية، بل وحتى تقليديًا: يتظاهر المرء دائمًا بأنه كاتب.

~ * ~

بينما كنت أقرأ في أحد المقاهي، صادفت هذه الفقرة من كتابات سيوران: «أتوق إلى أن أكون حرًّا - حرًّا تمامًا. حرًّا كما حرية المولود ميتًا». ثمة شيء غريب حدث - فقدت انتباهي على نحو ما في هذه الفقرة لما بدا لي وكأنه دهر. أصبح كل شيء من حولي ساكنًا ويحدِق بي من كل اتجاه. ما زال الناس يمرون بالخارج، وما زلت أسمع قرقعة الكؤوس الخافتة وضجيج المذياع الآتي من بعيد. شعرت باسترخاء وبخدر يسري في كل جسدي. ظللت أنظر إلى الكلمات الموجودة على الصفحة، مدركًا أنها كانت هناك، وأنها كانت كلمات، كلمات قالت شيئًا ما، ومع ذلك لم أكن أقرأها - ربما كنت أسمعها، وأستشعر بشكل مادي وميضًا قويًّا لفكرة ماتت منذ مدة. أو ربما كان ذلك في آخر خمول وقت الظهيرة.

~ * ~

باستطاعة أي أحد إنهاء حياته - لأسباب وجيهة أو لأسباب سخيفة أو

بلا أي سبب على الإطلاق. قد تأتي عمليات الانتحار متعمدة، ولكنها تكون أيضًا، أحيانًا، عَرَضية - وقد تكون شخصية أو سياسية، ومدبرة بعناية أو عشوائية، ومأساوية أو هزلية الطابع، ومؤثرة أو سخيفة، وخالدة في الأذهان أو يطويها النسيان... ثم هناك البقية منا الذين يموتون شيئًا فشيئًا كل يوم بعيشهم الحياة... الانتحار عالمي...

~ * ~

يحمل تشاؤم شوبنهور في طياته تفاؤلًا خفيًّا - وهو اكتشاف شيء لا إنساني في صميم الإنسان: «... كان يمكن أن تكون الحال أفضل كثيرًا لو كانت الشمس قادرة على استدعاء ظاهرة الحياة على الأرض بقدر ضئيل مثلما على القمر، وإذا حصل، هنا كما هناك، لكان السطح لا يزال في حالة كريستالية».

~ * ~

في الشارع الذي يعج بالحركة خارج المقهى، تدور أحداث مشهد ما. عجوز بلا مأوى يدفع في تثاقل عربة تسوُّق ضخمة تمتلئ بأكياس قمامة سوداء تحوي علبًا معدنية وزجاجات بلاستيكية لا حصر لها. أرقبه وهو يدفع العربة ببطء وصمت فيما يمر به الآخرون. وعند نقطة ما، يسقط بنطاله الأسود الفضفاض والمهترئ ويلتف حول كاحليه. ومن دون انزعاج، ينحني ويشد بنطاله إلى أعلى، ثم يستدير ببطء ويسير إلى الخلف، تاركًا عربة التسوق. وعلى بعد نصف بناية يوجد كيسان كبيران من القمامة، وهما أيضًا ممتلئان. يشرع في جر الكيسين الإضافيين عبر الرصيف باتجاه عربة التسوق. حالما يصل إلى العربة، يأخذ في دفعها،

تاركًا وراءه الكيسين. يدفع العربة إلى نحو نصف بناية حتى يسقط بنطاله مرة أخرى ويلتف حول كاحليه. تتكرر مرة أخرى الحركات جميعها، وجميعها بالبطء نفسه بل والوتيرة. لا يطلب مساعدة قَطُّ ولا أحد يتوقف لمساعدته.

~ * ~

مفارقة شوبنهور هي أن المرء يعيش الحياة، على الرغم من كونها لا تستحق أن تُعاش.

~ * ~

مفارقة نيتشه: أفضل ما يمكن للمرء أن يتطلع إليه هو الأسوأ.

~ * ~

مفارقة سيوران: الوجود لا معنى له، وهذا أمر ذو معنى.

~ * ~

مفارقة بيسوا: كل شيء يساوي لا شيء، وهذا في حد ذاته شيء.

~ * ~

مزاج معتل (٦). سوف يظل هناك دائمًا شخص ما يرى أن ما تفعله لا جدوى

له. وسيظل هناك دائمًا شخص ما يغضبه ما تفعل، أيًّا كان ما تفعله. وهكذا فنحن نتشارك في نوع من التشاؤم المجتمعي المشترك.

~ * ~

إن المتشائمين متدينون فقط بحكم السخرية العميقة، وبسبب الإحباط من كون الأديان جميعها في نهاية المطاف تتسم بالذاتوية. براهما تحول إلى الذات والرب تجسد في المسيح، والكلمة تحولت إلى جسد - وفكرة أن أي شعب يجب أن يكون شعبًا مختارًا هي الفكرة الأشد بؤسًا. هل يجب أن يُرد كل شيء يتجاوز الإنسان من دون اكتراث إليه؟

~ * ~

يجب أن نقنع بالحقائق الشخصية واليقينات الزائفة والتنبؤات وسفاسف الأمور والرهانات وأحلام اليقظة والعرافة والرموز. عزاؤنا يجب أن يكون حكمة من دون فلسفة.

~ * ~

لو قدر لي أن أؤلف كتابًا عن إرشاد الذات، فسوف أستهله بهذه الكلمات التي تعود إلى سيوران: «كلما طال عمرك، تبدو لك حياتك أقل جدوى».

~ * ~

نحن كتلة منفرة وعديمة الشكل، كتلة يمكنها أيضًا أن تُخرِج زفيرًا، وهو

ما قد يطلق عليه لاهوتيون غامضون أسماءً غامضة مثل غبار نجمي دقيق ومتسامٍ.

~ * ~

كيف تجتاز اليوم. ينبثق التشاؤم عن توتر أساسي بين العالم كما نعتقد أنه يجب أن يكون والعالم بما هو عليه. ولأن التوتر لا يمكنه أن يستمر، فإننا نغير الأول، على الرغم من أنه لا يماثل الثاني نهائيًّا. لم نكن نتوقع أن يتغير العالم أيضًا.

~ * ~

عقب المحاضرة، يقترح «د» عليَّ تعريفًا آخر للتشاؤم هو «لحظة تجلٍّ سلبية». لقد زرت أماكن أعرف أنني لن أزورها مرة أخرى أبدًا. وقابلت أناسًا أعرف أنني لن أراهم مرة أخرى أبدًا. وقرأت كتبًا أعرف أنني لن أقرأها مرة أخرى أبدًا. إن لحظة التجلي السلبية هي اللحظة التي يدرك فيها المرء، «لن أفعل ذلك أبدًا...»، «لن أذهب إلى هناك أبدًا...»، «لن أنتهي من ذلك أبدًا...»، وكأنما الحياة كانت توقعًا طويل الأمد لمثل هذه اللحظات من التجلي.

~ * ~

في كتابه الذي ألفه على هيئة شذرات «ذكريات رائعة» يكتب جان بودريار: «تكمن المتعة الحقيقية للكتابة في كونها تتيح إمكانية التضحية بفصل كامل من أجل جملة واحدة وبجملة كاملة من أجل كلمة واحدة». وتصبح الكتابة عندئذ عملية تنازل عن اللغة، يشوبها شك في أن كل تضحية ليست كافية

بدرجة ما وأنه لا تزال هناك فكرة أخرى وعبارة أخرى، ولا يزال هناك شيء يجب أن تقدمه وشيء يجب أن تتنازل عنه...

~ * ~

ليس هناك دليل أوثق على التشاؤم من شخص مفرط في التفاؤل.

~ * ~

معضلة كراهية البشر. حين أضحك، عادةً ما يكون ذلك وسط آخرين، إلا إذا كنت أضحك على نفسي. وحين أبكي، عادةً ما أكون وحيدًا، حتى لو كنت بالقرب من آخرين.

~ * ~

غفوة النسيان. لماذا يبدو عفويًا وطبيعيًّا للغاية أن نستلقي وننام؟

~ * ~

أن تخذلك الحياة هو أحد أوثق الأدلة لإثبات التشاؤم.

~ * ~

هل يمكن أن يكون للعالم ميول لا علاقة لها بالإنسان؟ هل يمكن أن يكون للإنسان ميول لا علاقة لها بكونه إنسانًا؟

~ * ~

«الشعور بالارتياح بعد إتمام العمل اليومي». (نيتشه). إما أن المرء قد تحدث أكثر مما ينبغي وإما كان مُقِلًّا في كلامه.

~ * ~

نحن الفلاسفة. تواقون لمد يد العون، ومدرَّبون على أن نكون غير مؤثرين.

~ * ~

الشظية هي الواقعية التي يظهر من خلالها التشاؤم.

~ * ~

إذا كان شوبنهور يقر بعدم اكتراث العالم، فإن نيتشه يوافق على ذلك. عاش شوبنهور حتى تقدم به العمر، وظل متذمرًا طوال حياته. أما حياة نيتشه فقد انتهت بالجنون والمرض. هل كان الأمر يستحق هذا العناء لأيٍّ منهما؟

~ * ~

أسئلة صادقة وإجابات غير أمينة.

~ * ~

الحماسة هي بذاءة القلة. والاكتئاب هو ترف الكثرة.

~ * ~

الإله، المنتحل. «إذا كان ثمة من هو مدين بكل شيء إلى سباستيان باخ، فهو حتمًا الإله». (سيوران).

~ * ~

مرة واحدة فقط، إذا كنت مهمومًا من دون سبب...

~ * ~

الحماسة بوصفها شكلًا من أشكال الاكتئاب.

~ * ~

إطالة أمد المعاناة إلى ما بعد الموت. هنا يتوقف التشاؤم ويبدأ الزهد.

~ * ~

يُظهر الإنسان ذاته، أما اللابشري فيثبت ذاته.

~ * ~

صياغة أخرى لمقولة شوبنهور: كراهية البشر وحب العزلة ليسا سواء. معضلة المتشائم.

~ * ~

قبل عام من وفاته، يكتب كافكا في يومياته: «٢٠ فبراير. حياة لا تسترعي الانتباه. فشل يسترعي الانتباه».

~ * ~

فيما أستلقي على ظهري، تخترق إبر الوخز كلتا الذراعين. وأشعر بحكة في صدغي الأيسر.

~ * ~

عصر التنوير. «كان يبدو لي وكأنه حبيس في صرح كلماته ويومئ بيديه متباهيًا بسجنه»[١].

~ * ~

بينما كنت أدون بعض الملاحظات، أخطأت في تهجئة كلمة «Confucianism» (كونفوشيوسية) لتصبح «Confusionism» - والتي أميل إليها أكثر[٢].

~ * ~

حتى النباتات آكلة اللحوم في آلاف الأقمار التي تشبه أطراف الأصابع تشكك في كل جهودي.

~ * ~

---

(١) كارل جوستاف يونج، عالم النفس الشهير، في كتابه «ذكريات وأحلام وتأملات» منتقدًا الفيلسوف الألماني فيلهلم فريدريش هيجل. (المترجم).

(٢) ملمح الدعابة الذي يشير إليه المؤلف هنا هو التشابه الصوتي بين اللفظة التي تشير إلى الفلسفة الكونفوشيوسية وبين كلمة «confusionism» التي تعني إثارة الالتباس والبلبلة. (المترجم).

صياغة أخرى لموقف شوبنهور: بالنسبة إلى المتشائم، الموتى محسودون، أما كبار السن فهم شبه محسودين.

~ * ~

أتشاءم من التفكير الفلسفي وأتفاءل بالكتب الفلسفية.

~ * ~

رأيت في أحد المقاهي لافتتين: «اجلس حيثما تشاء» و«مطلوب عاملون».

~ * ~

الرفض باحترام. هل من طريقة مهذبة لقول لا؟ أم أن النفي دائمًا غير مهذب؟

~ * ~

التشاؤم: فقر الفلسفة.

~ * ~

«كيف حالك؟»، «آه، لا أستطيع أن أشكو...»، هذه هي أسوأ شكوى على الإطلاق.

~ * ~

الموت السعيد[1]. على الرغم من رؤيته التشاؤمية للحياة، اشتهر شوبنهور بمعارضته الانتحار، مُلمحًا أنه إذا ما تغيرت حياة المرء إلى الأفضل، فسوف نوقفه على الأرجح.

~ * ~

نحن نسيء فهم المقهى إذا انحصر تفكيرنا في الصور الرومانسية لرواد المقهى في مقهى «كافيه دي فلور» ومقهى «لو دي ماجو» ومقهى «جاسلايت» ومقهى «ريجيو» ومقهى «تنجيس». (لقد قمنا، للأسف، بتحديث هذه الصورة بنسخة ما بعد الرأسمالية التي تتألف من موظفين مستقلين وحواسيب محمولة ومحادثات هاتفية جماعية من «الشركة»). ويمكن القول إن «العزلة» هي كلمة حضرية. وإن المقهى هو المعادل الحضري لكهف الصحراء.

~ * ~

قائمة انطباعات (٧). قرأت في «الأخبار» عن شخص ضُبط، وهو تحت تأثير مخدر، مقرفصًا وعاريًا في زقاق، وكان يأكل وجه شخص آخر. وفي خبر آخر: شخصٌ ما، ربما تحت تأثير مخدر هو الآخر (وترعبني احتمالية ألا يكونا تحت تأثير مخدر)، ضبطته الشرطة. (وفي ردة فعله، يشق بطنه ويمزق أحشاءه ويرمي بها بعنف في وجه الشرطة). ويحدثني أحد طلابي عن شخص يدلف إلى متجر كبير لبيع الأدوات والمعدات، ويتناول منشارًا، ثم يبدأ بقطع ذراعيه (إنني مندهش، بل متعجب، من انعدام التبصر هنا...).

~ * ~

---

(١) العنوان هنا يحيل إلى إحدى روايات الفيلسوف والكاتب الفرنسي الشهير ألبير كامو، وهي «A Happy Death». (المترجم).

بالمقياس الصحيح، كل شيء موجود بالنسبة إليَّ، وكل شيء مفهوم. وحين يتم تضخيم الأشياء أو تصغيرها، يفقد العالم الأكبر والعالم الأصغر تدريجيًّا تمايزهما، مما يجعلني مجرد ذرة من ذرات غبار نجمي لا مناص لي ولكلِّ من حولي من العودة إليه في نهاية المطاف.

للأسف، لا تزال ضآلة الشأن في كل ذلك حاضرة بشدة.

~ * ~

خلال ندوتنا الأخيرة، أحاول أنا و«س» تلخيص الموضوعات الرئيسية للفصل الدراسي. يلخص «س» أفكارنا عبر طرح السؤال التالي، «كيف يجب أن تصبح الفلسفة حتى تأخذ الزهد على محمل الجد؟».

وفي تعليقه على اختلافاتنا في طريقة التدريس، يشير «س» إلى عادتي في الكتابة بشكل مرتب وأنيق في دفتري الخاص، مقارنةً بصفحاته المطبوعة «صعبة الفهم» وولعه بـ«هوس الأسلوب» في الفلسفة مقارنةً بـ«بساطتي الروحية».

وفي لحظة ما، وردًّا على سؤال ما، أظن أن «س» قال، «نحن نصبح زُهَّادًا في كل مرة نخلد فيها إلى النوم»...

~ * ~

هنالك نوعان من التشاؤم - أحدهما منبثق عن التجربة والآخر منبت الصلة بالتجربة. وهذا النوع الأخير من التشاؤم غير مشروط - لا توجد تجربة يمكنها أن تفسره تفسيرًا كافيًا. ويمكن للمرء أن يخلط بسهولة بينه وبين الإلهام.

~ * ~

هدوء في الفراغ. ورزانة في الاتساع.

~ * ~

نحن النوع الذي ضحى بأنفاسه من أجل الكلام.

~ * ~

في يومياته يكتب ماريو دي سا كارنيرو[1]: «أتخيل الدمار الكامل لحياتي كسلسلة من أقراص زنك لوزينجز، ومصابة بكدمات والتواءات، متناثرة بألوان مختلفة، وبالأخص، بظل أحمر متسخ». وبعد ذلك: «وفي ليالٍ كثيرة، في الفراش، أنظر في الغثيان الراكد لوجودي وينبثق داخلي شوق سخيف لأن أجعل من جسدي مثلثًا وأن يتم شحذ الرؤوس الهندسية لتصبح شفرات فولاذية حادة». شبكة من العبث وهندسة للفشل.

~ * ~

أنا نسخة محنطة من حياتي.

~ * ~

صمت الرفض.

~ * ~

(١) شاعر وكاتب برتغالي بارز تُوفي عام ١٩١٦. (المترجم).

يتفكر أحد شخوص رواية توماس برنهارد «الخاسر» في انتحار صديقه الذي جرى مؤخرًا: «... تبقى الحقيقة أن الناس يشقون أكثر مما يسعدون»، هكذا قال، حسبما أتذكر. ولأنه كان كاتب شذرات، وكانت لديه شذرات لا حصر لها، فإن للمرء أن يفترض أنه أتلفها، أنا أكتب شذرات، كان لا يفتأ يردد ذلك، حسبما أتذكر، وهي أحد الفنون الصغرى للربو الفكري الذي اعتاش عليه بعض الناس، وتحديدًا في فرنسا، وما زالوا يعتاشون عليه، وكذلك مَن يُسمون بأنصاف فلاسفة الطاولات الخاصة بأَسرَّة المرضى، ويمكنني أيضًا أن أقول وفلاسفة الرزنامة للجميع ولأي أحد، والذين تجد مقولاتهم المأثورة طريقها في نهاية المطاف إلى حوائط غرف الانتظار في عيادات كل طبيب من أطباء الأسنان... ويتواصل المونولوج: «لكنني لم أستطع التخلص من عادتي في كتابة الشذرات، وفي النهاية أخشى أن أجد لديَّ الملايين منها وسيكون من الحكمة أن أشرع في إتلافها لأنني لا أعتزم أن أكسو بها ذات يوم حوائط عيادة كل طبيب أسنان وكل كنيسة، كما هي الحال الآن مع جوته وليشتنبرج والرفاق». ويُضاف إلى ذلك: «ولأنني لم أولد لأصبح فيلسوفًا، فقد جعلت من نفسي كاتب شذرات...»، وبعد ذلك: «إذا نظرنا إلى الأشياء نظرة مباشرة، فإن الشيء الوحيد الذي يتبقى من أعظم المشاريع الفلسفية هو أثر مذاق شذرات بائسة...»، و: «فلاسفتنا الكبار وأعظم شعرائنا يُختزلون في جملة واحدة ناجحة...»، وأخيرًا: «نحن في الأساس نقدر على كل شيء، وبالقدر نفسه في الأساس نفشل في كل شيء...»، (ولكن ذلك ليس «أخيرًا». لأن كتاب برنهارد بأكمله مونولوج واحد لا ينتهي).

~ * ~

الإنسان - ذبيحة حية تُقدم للإله.

~ * ~

شيء يجب أن أفعله، وشيء يجب أن أقوله، وشيء أفضل ألا أفعله، وشيء أفضل ألا أقوله.

~ * ~

سُلَّم لا يستطيع المرء صعوده ولا نزوله.

~ * ~

دليل وجود الإله لدى نيتشه. «ينبغي أن توجد مخلوقات تتمتع بحس من الدعابة يفوق ما لدى البشر، فقط حتى نستمتع بالدعابة التي تكمن في رؤية البشر لأنفسهم باعتبارهم غاية الوجود بأسره...».

~ * ~

تدنيس الحاضر.

~ * ~

الكوكب ينعم بتأمل صامت. ورعب النوع البشري هو برهانه.

~ * ~

مرض. اعتدت أن أخشى ممارسة الرياضة. كان ذلك قبل أن أواجه هذه المتاعب الصحية. أما الآن فأخشى ألا أمارس الرياضة. هي الخشية ذاتها.

~ * ~

إذا فشل أحدهم، فقد نجح آخر. وإذا نجح أحدهم، فقد فشل آخر. ما يسعى إليه التشاؤم ليس هذا ولا ذاك. وإنما نشوة الحالة الصفرية.

~ * ~

معمودية يقوم بها الزمن.

~ * ~

مذهلة هي حماقة البشر. غالبًا ما تتطلب موقفًا روحانيًّا لقبولها - وخصوصًا في دخيلتنا.

~ * ~

بوصفي فيلسوفًا، فأنا أكثر اهتمامًا بتلك اللحظات التي تفشل فيها فلسفة ما (وكل فلسفة مآلها الفشل... في نهاية المطاف).

~ * ~

الخطأ خطئي. كيف يمكن أن يكون كل شيء صاخبًا إلى هذا الحد ولكنه مع ذلك ليس مهمًّا إلى هذا الحد؟

~ * ~

مشاهد قليلة هي تلك الأشد حرجًا (أو إحراجًا) من تلك الخاصة بوجود البشر في الطبيعة.

~ * ~

حين يُطرح سؤال يستثير التفكير، ينظر بعضهم إلى السقف فيما ينظر آخرون إلى الأرض. وهناك صنف ثالث يغمض عينيه.

~ * ~

من مفكرة جوزيف جوبير في عام ١٨١٠: «كل الصرخات وكل الشكاوى تزفر بخارًا، ومن هذا البخار تتشكل غيمة، ومن هذه الغيوم الركامية تأتي العواصف والرعود وحالات الطقس القارس التي تدمر كل شيء». الجبال تتشكل من تلال صغيرة.

~ * ~

فلسفة «لا». يوم بارد لكنه صحو في أواخر يناير. أقوم بإعداد قائمة القراءات الخاصة بمحاضرتي عن التشاؤم (وهي بعنوان «التشاؤم»). يخطر لي أنه بعد قراءة كل فلاسفة العبث هؤلاء، سيكون محالًا غالبًا على أي أحد بالقاعة أن يسلم ورقة بحثية نهائية. بعد قراءة كل هذه الأعمال غير المكتملة أو المتناثرة، وبعد قراءة بسكال وبيسوا، وبعد كتاب «زيبالدوني» (Zibaldone) و«دفاتر المسودات» (Sudelbücher)، وبعد يوميات كيركجور وكافكا وأونيكه تسورن، وبعد الاتهامات العنيفة التي أطلقها كلٌّ من شوبنهور وبرنهارد وتاكوبوكو، وبعد طُرَف شامفور أو سيوران، بعد كل ذلك، لماذا بحق السماء

يمكن لأي أحد أن يكمل ورقة بحثية؟ ينبغي ألا ينجح عندي سوى هؤلاء الطلاب الذين يعجزون عن إكمال المقرر الدراسي.

~ * ~

كل شيء، بما في ذلك وجودنا ذاته زائف.

~ * ~

«وأنا أفتقر عمومًا إلى الصبر الذي يتطلبه عيش الحياة...». (كيركجور).

~ * ~

أن تموت من الشيخوخة - بغض النظر عن عمرك.

~ * ~

الاكتئاب هو الدافع النهائي للحياة.

~ * ~

الدماغ الروحي. «المنطق في جوهره تفاؤل». (نيتشه).

~ * ~

ظهورنا المحدودبة مرقَّطة بعلامات بِلى عصية على الفهم، وتنوء بأخف تنهيدة تصدر عنها. وضع محزن ومحروم حتى من التحلل.

~ * ~

في مقابل كل يوم في الفلسفة، هنالك ليلة من المشي نائمًا في الشذرات.

~ * ~

ما يشير إليه لقب «دكتوراه في الفلسفة» هو: كثير من القراءة وقليل من الحفظ.

~ * ~

استهلال ونقش مكتوب على شاهد قبر. «الحياة شيء بغيض. وقد وطدت نفسي على أن أقضيها وأنا أفكر فيها» (شوبنهور، في الثانية والعشرين من عمره، متحدثًا إلى الشاعر كريستوف مارتن ويلاند البالغ من العمر ثمانية وسبعين عامًا).

~ * ~

تزداد ذاتوية الأنواع في تناسب عكسي مع أهميتها.

~ * ~

نصف ممتلئ ونصف فارغ. ما يحدث لي ليس جزءًا مني.

~ * ~

«يقولون إن انعدام الدهشة إزاء أي شيء هو علامة على ذكاء كبير. في رأيي، ربما يكون أيضًا علامة على غباء كبير». («الأبله» دوستويفسكي).

~ * ~

يحدثني «سي» عن رجل مر به وهو في طريقه إلى العمل هذا الصباح. كان يقف في الزاوية، حاملًا لافتة ضخمة مكتوبة بخط اليد: «أنا أكره حياتي». لم يكن هناك حتى قبعة أو إناء لإلقاء النقود.

~ * ~

لم أحب الأطفال يومًا – حتى حين كنت طفلًا. لكن ذلك لا يعفيني من أن أصبح بالغًا.

~ * ~

ما قاله بسكال عن أولئك المغرمين بالدين يمكن أن ينطبق أيضًا على أولئك المغرمين بالفلسفة: «نرفع أعيننا إلى أعلى، لكننا نتكئ على الرمل، وسوف تتحلل الأرض وسوف نسقط ونحن ننظر إلى السماء».

~ * ~

التعبير عن معاناة مكتومة.

~ * ~

في يومياته، أشار إميليو لاسكانو تيجوي[1] ذات مرة إلى أن الكتاب هو اللباب النباتي لمؤلفه. وهو يعني ذلك حرفيًّا، على ما أعتقد.

~ * ~

في بطلان الوجود. هؤلاء الأشخاص الذين يمشون بوتيرة أبطأ مني بلهاء. وهؤلاء الذين يمشون بوتيرة أسرع مني حمقى. ولا شيء أشد إزعاجًا من غريب يمشي بالوتيرة ذاتها التي أمشي بها تمامًا.

~ * ~

أجلس بالمقهى نفسه الذي كنت أقصده خلال الأسابيع القليلة الماضية. «كالمعتاد؟»، أقول «نعم»، وأنا أكتم ابتسامة. عندما أغادر يقول النادل «نراك غدًا...»، أعرف بالفعل أنني، لسبب ما، سوف أذهب غدًا إلى مقهى آخر.

~ * ~

الخميس، في ٤:٠٥ صباحًا. إن أشد أنواع المعاناة هي ببساطة تمضية الوقت بأجسادنا.

~ * ~

(١) كاتب وروائي أرجنتيني بارز، يشتهر بروايته «في الأناقة خلال النوم» أو «On Elegance While Sleeping». (المترجم).

أكاليل العوالق التي تتغذى في أثناء النوم تتسرب بهدوء من كل الفتحات.

~ * ~

إن نقطة علامة التعجب هي ابتذال للغة.
(كم أتمنى لو يخترع أحدهم علامة ترقيم لليأس...).

~ * ~

عندما يسألني أحدهم بشكل عابر «كيف حالك؟»، أجدني أحيانًا مترددًا، كما لو أني أصبت بتخشب عصبي جزئي. السؤال تافه وذو طابع كوني في الوقت ذاته. ثم أتذكر: قل «بخير» وكفى.

~ * ~

القربان المقدس. على الرغم من كل جهودنا، يبدو أنه من الصعب حقًّا التخلص من الجثث. في الثقافات الغربية، تمارس الطقوس الجنائزية لعبة التخفي. نواري الجثة ثم نميز مخبأها بشاهد قبر (... لماذا لا يوجد المزيد من المقابر المخفية؟). ونفعل بالجثث كل شيء - ندفنها ونحرقها ونحنطها ونصنع منها أقنعة موت ونتبرع بها في سبيل تقدم الطب أو لأحد المعارض. لكن المقابر قد تغمرها المياه أو ربما تُشترى الأرض المقامة عليها ويُستخرج الرفات. وهكذا تظل الجثث تعود من جديد. وحتى حين حرقها، يتبقى لدى المرء الرماد والجرَّة، أي ما يشبه تابوتًا مصغرًا. وفي الحرق هنالك الريح التي ترتد في الاتجاه الخاطئ أو انعدام وزن الرماد حين تتأرجح الجرة إلى أعلى وإلى أسفل على ضفة نهر يتجه صوب البحر. إن استمرار بقاء الجثة

هو بمنزلة دليل على فكرة أن الموت ليس النهاية. ولعل استمرار بقاء الجثة هو أعظم كوميديا مأساوية.

~ * ~

«وحدهم المتفائلون هم من ينتحرون». (سيوران). ووحدهم المتشائمون هم من يفكرون فيه.

~ * ~

معجزة الولادة هي أن المرء لم يمت بعد. ومعجزة الموت هي أن المرء لم يمت في الحال.

~ * ~

تنهيدات تحجب الحياة كليًّا.

~ * ~

في أثناء ركوب قطار الأنفاق. يرتفع فوق سطح الأرض. وعند النظر إلى الأسفل، أرى الشوارع والمتاجر والناس يمشون. يمر القطار بمساحات هائلة من المقابر التي تمتلئ بشواهد قبور لا حصر لها، وهي مصفوفة بعناية ولكنها تبدو هائلة الحجم وخربة. تبدو أكبر من جميع الشوارع وجميع المتاجر التي تصطف في الشوارع. أتخيل أنها تمتد بطريقة غير محسوسة وفقًا لمنطق غير معروف حتى لأصحاب العقارات المتواطئين.

ومثل هذه المقابر - الشاسعة جدًّا - تدعم ملاحظة مونتَني التي تقول إن مهنتنا الوحيدة هي أن نموت.

~ * ~

ما الأقل إحباطًا؟ الانتقال من احتقار الغير إلى احتقار الذات، أم العكس؟

~ * ~

من الأعماق[١]. يشير شوبنهور مرارًا وتكرارًا إلى «إرادة» عمياء ولا عاقلة تدفع كل ما هو موجود لأن يوجد، وهي تنشأ في هاوية بدائية ومجهولة. وبالمثل، فإن ناسكات من أمثال هادويش وماتيلدا من مادجبورج ومارجريت من بوريت يلمحن مرارًا وتكرارًا إلى الحب الإلهي باعتباره هاوية مشتركة. في كل حالة، يهوي المرء فيما هو ألوهي.

~ * ~

عالمية المعاناة. إنني مقتنع، عن شفقة أو ضغينة، بأن الحياة بلهاء ورتيبة، وحتى في أفضل الأحوال، تكاد لا تستحق العناء. حالة من الاهتياج المشوش الذي يمتد بلا هوادة عبر الزمن، ولا يستثني حتى جثمانًا يتألم ويتلوى - وبعد ذلك، ولحسن الحظ وعلى سبيل الرحمة، ولا حتى ذلك.

~ * ~

---

(١) الإحالة هنا قد تكون إلى رسالة المسرحي الإنجليزي الشهير أوسكار وايلد التي كتبها وهو في السجن وهي «من الأعماق» أو إلى «مزامير الاعتراف» في العهد القديم والتي تبدأ بعبارة «من الأعماق...». (المترجم).

نيتشه متأملًا في تفرد البشر: لقد عانينا كثيرًا حتى اضطررنا إلى ابتكار الضحك.

~ * ~

الشيء الوحيد الأشد إفزاعًا من الشخص الذي ليس لديه أي شيء هو ذاك الذي لديه كل شيء. لا يمكن للأمور إلا أن تزداد سوءًا بالنسبة إليهما. كلما كثر ما لديك، كثر ما يجب أن تفقده. وفي النهاية لا بد أن يُفقد كل شيء. هل الأفضل ألا يرغب المرء بشيء على الإطلاق؟ ربما، ولكن ماذا عن بقيتنا، ممن لديهم بعض الأشياء، التي نديرها بحكمة، مثل أمناء المحفوظات؟

~ * ~

كائنات لامبالية. تقدم حكاية «شياهم شوبنهور» نموذجًا لسلوك المتشائم: في بحثها عن الدفء، تتجمع حيوانات الشياهم معًا، ولكنها حين تدنو بشدة بعضها من بعض يبرز شوكها، فيدفع كلٌّ منها الآخر بعيدًا. لكن هب أن المتشائم لا يبتغي شيئًا من الآخرين في الأصل؟ أي حكاية من حكايات الحيوانات ستكون ملائمة لمثل هذا السلوك؟ لا يتجنب السلطعون الناسك الآخرين فحسب، بل العالم الخارجي كله، حيث يحيط نفسه بسلسلة من الأصداف التي يتم تنظيفها والتخلص منها. وهناك الخُلد، الذي يحفر باستمرار، ويرفض الاعتراف بالعالم على الإطلاق، أو هناك العثة، التي تبصر كل شيء وتعمي نفسها في نكران واضح للذات. وفوق ذلك، هناك حيوانات لا تختبئ أو تهرب بل تبقى متبلدة وفي حالة استسلام مطلق ويمكن التحقق بسهولة من وجودها شبه المعدوم - مثل أسراب قنديل البحر وحقيقيات النوى غير المحسوسة والأشنة والفطر الغريب... إن مثل هذه الحيوانات

اللامبالية هي بمنزلة مرشد روحي للمتشائم، وهي مخلوقات عديمة الحس وعديمة الجدوى.

~ * ~

إن مما يثير الاشمئزاز من الأطفال - جميع الأطفال - ليس كونهم لم ينضجوا بعد، بل كونهم قد نضجوا بالفعل. فهم يتذمرون وينغمسون في ذواتهم ويطالبون بالاهتمام ولا يقدرون على العناية بأنفسهم ويستشيطون غضبًا حين لا تمضي الأمور بحسب هواهم. وبغض النظر عما نقوله لأنفسنا، فإن الأطفال هم أوجز تعبير عن الإنسانية. والأطفال لا يدركون ذلك على الأقل.

~ * ~

لست وحدي الذي يضمحل بل الكوكب نفسه يضمحل (... والشمس... والنجوم... والكون المضمحل...) - أهذا ما يجعل التشاؤم «فلسفيًّا»؟

~ * ~

الاختزالية هي اللذة الآثمة للفلاسفة. (نقيصة التشاؤم هي أنه يخلو من الشعور بالإثم إلى حدٍّ يتعذر معه أن يكون فلسفيًّا).

~ * ~

أقفاص للشك.

~ * ~

هل الأشق على المرء أن يشاهد الآخرين وهم يشيخون أم يشاهد ذاته؟ هل يبدو موتي أمرًا محتومًا تقريبًا؟

~ * ~

لا أؤمن بقول أي شيء ما لم يكن لديَّ ما أقوله. وبمرور الوقت، يقل كلامي. ضجر واكتئاب ورباطة جأش.

~ * ~

كتب فرويد ذات مرة: «لقد طُرح سؤال الهدف من الحياة البشرية مرات لا حصر لها». «لم يحظَ حتى الآن قَطُّ بجواب مُرضٍ ولعله لا يرضى بأي جواب». وليست الطبيعة الاستعصائية للسؤال هي ما يثير اهتمام فرويد فحسب، ولكن ما يصحبه من إلحاح. «وقد أضاف بعض هؤلاء الذين طرحوه أنه إذا ما تبين أن الحياة ليست بذات هدف، فإنها ستفقد لديهم كل قيمة». إذن، فالسؤال الأشد إلحاحًا هو أيضًا السؤال الذي لا يوجد له جواب شافٍ.

يرد فرويد: «لكن هذا التهديد لا يغير من الأمر شيئًا». «ويبدو، على العكس من ذلك، كما لو كان للمرء الحق في رفض السؤال، الذي يبدو أنه ينبثق عن الصلف البشري، والكثير من مظاهره الأخرى مألوفة لدينا بالفعل». (ثم يضيف: «لا أحد يتحدث عن الهدف من حياة الحيوانات، ما لم يكن، ربما، من المفترض أنها مُسخرة لخدمة البشرية»).

~ * ~

مفارقة كوبرنيكوس. كلما زادت معرفتنا عن العالم، قلَّ فهمنا له.

~ * ~

«... ما يُسمى سببًا للعيش هو أيضًا سبب وجيه للموت». (كامو).

~ * ~

دليل التأمل. حين يستلقي المرء على ظهره، لا يجد ما ينظر إليه. وحين يستلقي على بطنه يجد الأمر نفسه (ويصبح التنفس أصعب).

~ * ~

لا أحد قَطُّ كان يأمل في شيء وحقق آماله كاملة. هناك تنازلات ومواءمات وأمور طارئة. في النهاية، يتعذر تمييز الأمل عن الاستسلام.

~ * ~

جميع الممارسات اللاهوتية الليلية يبطلها ندم شاحب ذو رأس أسود مطأطأ.

~ * ~

سوف أدفع أكثر كي أتفادى المساومة.

~ * ~

في أفضل حالاته يثير التشاؤم أخف ابتسامة ممكنة.

~ * ~

في نحو عام ١٩١٣، ينتقل كافكا بعدما أصابه داء السل، للإقامة مع عائلة شقيقته في مزرعتهم، بالقرب من قرية «زوراو» السويسرية. وهنالك يكتب شذرات، ربما كشكل من أشكال النقاهة. تقول إحداها: «قفص خرج بحثًا عن طائر».

~ * ~

ألم بالظهر وتقرح بالكتفين والتهاب بأوتار مرفقي الأيسر، والآن اكتشفت ألمًا غريبًا بإبهامي، لا شك أنه بسبب قبضتي بشدة على قلمي. هناك أفواه في جميع أنحاء جسدي، في عمودي الفقري وكتفي ومرفقي وركبتي، وجميعها تئن بأصوات لا حصر لها. يبدو وكأن جسدي يأبى أن يكتب، إنه نوع من رفض بارتلبي جسدي.

~ * ~

هناك أوقات أشعر فيها بعداوة لا حد لها - عداوة شديدة القداسة حتى إنه يتعذر أن نسميها «تشاؤمًا» وحسب.

~ * ~

يرسل إليَّ «ن» هذا السطر المقتبس من كتاب في التصوف: «ابكِ في دخيلتك دائمًا، ولكن في ظاهرك ابقَ طبيعيًّا ومبتهجًا».

كم هو أمر مرعب - أأنا خلاف ذلك؟ متجهمٌ في ظاهري ومبتهجٌ في دخيلتي.

~ * ~

الإنسان هو الحيوان الذي يتنهد.

~ * ~

هناك أوقات يكون فيها غباء نوعنا البشري خانقًا إلى حدٍّ لا يجدي معه حتى الانقراض. وعندئذ أدرك، ولو بشكل عابر، الدافع الآخر للمنتحر، وهو الحاجة - الحاجة الماسة - إلى التخلص من الآخرين.

~ * ~

الكون يتأمل - ونحن نفكر فقط.

~ * ~

ميزة المعاناة.

~ * ~

«لدينا ما يكفي من الأسباب كي نتعامل مع الحياة بريبة، فكثيرًا ما سلبتنا آمالنا الأثيرة». (شيستوف).

~ * ~

أفكار مبهمة كما الضباب.

~ * ~

«الاستسلام إلهام».

~ * ~

لقد كان كل ما كتبته يدور حول أحد شيئين - اللاإنساني خارج الإنسان، أو اللاإنساني داخل الإنسان.

~ * ~

يخبرني «چ» عن كابوس اعتاده وهو طفل. ما بين اليقظة والنوم، وفيما يشبه الخدار، كان يشعر بأن كل ما حوله «ممتلئ بالفراغ». الغرفة وسريره وحتى جسده - كل شيء منتفخ بفراغ لانهائي. إنه يذكرني بالتأمل.

~ * ~

رسالة في الإنسانية.

البشر قادرون على تدمير أي شيء. وكل شيء هو «شيء».

~ * ~

دين من دون إله. بسكال: «لا شيء أشد قسوة من حالة الهمود التام، التي

تنعدم بها الرغبة وينعدم العمل وينعدم اللهو وتنعدم الوظيفة. في هذه الحالة يغدو المرء واعيًا بعدمه ووحدته وعجزه وتبعيته وخوائه وانعدام جدواه. هنالك في الحال ينبثق بغتة من أعماق الروح سأم وكآبة وبؤس وسخط وإحباط ويأس». بعبارة أخرى، ألوهة.

~ * ~

أنا و«پ» نائمان في غرفة الضيوف. يبدو السرير وكأنه كتلة غير متساوية من ورق مقوى قديم ويصدر صريرًا مثل بدن سفينة قديمة مهجورة، مما يجعل النوم خليطًا مشوشًا بأحلام مزعجة وعضلات منهكة. لماذا لا يتطلب اتخاذ موقف سلبي أي جهد؟ أي جهد بالمرة حتى يكاد يكون مطلقًا.

~ * ~

وصف كيركجور ذات مرة الإيمان بأنه بمنزلة «طفو فوق ٧٠ ألف قامة من الماء». لذلك فإن ثقل خيبة الأمل سرعان ما يجعل منا جميعًا مخلوقات تعيش في قيعان البحار.

~ * ~

أبوريا[١]. لا يتعلم المرء الضحك إلا بعد تعلمه المعاناة. ولا يتعلم المعاناة إلا بعد تعلمه الضحك.

~ * ~

(١) لفظة يونانية تعني حرفيًا لا مخرج أو لا سبيل، وتُستخدم مجازيًا بمعنى المعضلة أو اللغز المنطقي الذي يفضي إلى الحيرة والالتباس. (المترجم).

شفقة اللاعاقل.

~ * ~

محو كل ضرورة.

~ * ~

بعض الأشخاص يقبلون على الحياة - ويتقافزون ويرقصون بفرح جامح. وهناك آخرون ينفرون من الحياة، ويجلسون في الركن البعيد، انتظارًا لانقضائها كلها. ومع ذلك، يَعُد كلاهما أن عيش الحياة أمر يجب التعامل معه وكأنه ثؤلول أو خُرَّاج أو تشوه.

~ * ~

أن تعيش في خوف دائم من الحياة. وشعور المرء بالإنهاك قبل بذله الجهد. أن يحاول الضحك على كل شيء، حتى يصبح الضحك مشوبًا بالحزن، وحتى يغطي الملل كل شيء بضبابه الرقيق.

~ * ~

«لم يبقَ شيء ليس ضارًّا». (أدورنو).

~ * ~

مِن كتاب عن الفلسفة الألمانية في القرن التاسع عشر: «في قاعات الجعة في ميونيخ، حين يُسمع أحد الطلاب وهو يحدد قواعد شيء لا يفهمه إلى رفيق لا يبالي البتة بالموضوع، يصبح مفروغًا منه أن الاثنين يتحدثان في الماورائيات».
تُرى أيهما المتشائم: الشخص الذي يتحدث أم الشخص الذي لا يصغي؟

~ * ~

الخروج من الجسد[1]. كلما تحدثت أكثر إلى الناس، تضاءل عندي المغزى من أي حديث. وكثيرًا ما كنت أنهمك في حديث ما، ثم فجأة، ومن دون قصد مني، أجدني قد انتُزعت منه على نحو مبهم، وأصبح كما لو كنت أتابع الأمر برمته بشعور غريب من الكآبة المنعزلة، مثل تجربة الخروج من الجسد. لماذا بالضبط نتحدث؟ ماذا نقول بالضبط؟ ومنذ متى ونحن نتحدث؟ يبدو الأمر كما لو أننا نتحدث من أجل إبطاء مرور الزمن، ومن ثَمَّ نطيل خلسة نصيبنا من الخلود، ولو قليلًا.

~ * ~

تسرد رواية «على الأقل يمكننا الاعتذار» للكاتب الكوري الجنوبي لي كيهو، الحوادث التي تواجه الراوي ورفيقه سي-بونج. يعيش الاثنان في مؤسسة ما لا يُذكر اسمها فيما ينحصر عملهما اليومي على ما يبدو في وضع ملصقات على قطع صابون وتعبئة جوارب وتناول أدوية والتعرض للضرب بشكل منتظم من المشرفَين عليهما. في لحظة ما، يدرك الراوي وسي-بونج أنهما سيتعرضان لضرب أقل كلما اعترفا بارتكابهما خطأً ما: «قال المشرفان إن ارتكاب الخطأ

(١) الإسقاط النجمي. (المترجم).

نفسه مرة أخرى سوف يُعَد دائمًا خطأً أكبر. لذلك كان علينا أن نأتي كل يوم بأخطاء جديدة. أصبح بعضها «أخطاءً» فيما أصبح بعضها الآخر «أخطاءً أكبر». في الأيام التي كنا نرتكب فيها أخطاءً، كنا نتعرض لضرب أقل، وفي الأيام التي كنا نرتكب «أخطاءً أكبر»، كنا نتعرض لضرب أكثر، وفي الأيام التي لم نكن نعترف فيها بأي شيء، كنا نُضرب مرارًا طوال اليوم». ويضيف الراوي: «كنا بعد أن نعترف بخطأ ما، نحرص دائمًا على ارتكابه».

ولاحقًا، بعد مغادرتهما المؤسسة وبعد عجزهما عن الحصول على أي عمل، يخلص الراوي وسي-بونج إلى استنتاج مفاده أنهما لا يجيدان سوى شيء واحد. فيصنعان لافتة ويعلقانها في الحي: «نعتذر إليكم! أيها الآباء والأزواج والأشقاء والمعارف والأصدقاء والجيران وزملاء العمل ولكل ذي صلة بنا! سواء كنتم تعرفون أنكم تفعلون ذلك أو لا، فإننا نتقدم بالاعتذار عن أي أخطاء ارتكبتموها نحو شخص ما. لذلك لا ترددوا، اتصلوا بنا!».

~ * ~

بسبب هوسنا المعاصر بالاحتفاظ بكل شيء، لم نعد نفقد شيئًا. لقد ولَّت تلك الأيام التي كان يمكن فيها حرق مخطوطة - والتي كان يمكن فيها تحويل النصوص إلى رماد ودخان...

~ * ~

قائمة انطباعات (٨). النوم الزائد أو قلة النوم (فرط النوم أو الأرق)، انعدام الدافعية وتناول طعام لا يكفي و/ أو التغير الملموس في الوزن وتناقص المتعة أو اللذة بممارسة الأنشطة، واهتياج المشاعر معظم اليوم (أو كل يوم تقريبًا)، والشعور المستديم بالحزن و/ أو بالخواء والمظهر الباكي (ملاحظة

انتبه إليها آخرون)، والشعور بالذنب المفرط أو غير المبرر، والهياج النفسي الحركي أو التخلف النفسي الحركي، والتفكير في الموت أو الانتحار (بما في ذلك الانشغال بفكرة الانتحار من دون الإقدام عليه)، والتعب ونفاد الطاقة والشعور الدائم بانعدام القيمة وتضاؤل احترام الذات والثقة بالنفس، والشعور المتغلغل بالقلق و/ أو اليأس، والانسحاب من المجتمع والأجواء التي تتطلب تفاعلًا اجتماعيًّا، وتراجع القدرة على التفكير أو تركيز الانتباه، والانغماس المرضي في الشعور بانقطاع الأمل والتردد الموهن للعزم كل يوم (أو كل يوم تقريبًا)، والسلوك المستكين والسلبي والمعارض في المواقف الاجتماعية، والخشية الدائمة من أن مكروهًا قد يقع.

~ * ~

من مراجعة لكتاب: «... تمتمة رجل عجوز لا يبدو أنه حقق انتصارًا نفسيًّا كاملًا على مراهقة قلقة...».

~ * ~

أطلق نيتشه على نسخته الخاصة من التشاؤم اسم «تشاؤم ديونيزي»[1]. إنه تشاؤم يحتفظ بالانتقادات اللاذعة وبغض البشرية المبثوث في فلسفة شوبنهور، فيما يتخلص من ضجرها بالعالم. وسوف يصبح هذا التشاؤم الديونيزي - بالنسبة إلى نيتشه - منبعًا للبهجة ومصدرًا لأعظم وأصعب إثبات. كل ما نجله سوف يوجد من دون اكتراث جنبًا إلى جنب مع كل ما

(١) الصفة هنا مشتقة من الاسم «ديونيزيوس» وهو أحد أشهر الآلهة في الميثولوجيا الإغريقية، ويرمز إلى الابتهاج والنشوة والانبعاث. وقد جعله الإغريق إلهًا للخمر وخصوبة الطبيعة. (المترجم).

ندينه، والأرفع شأنًا مع الأحط قدرًا والأكثر تشبعًا بالمعنى مع الأشد خواءً من المعنى... وسوف يهتف بـ«نعم» مدوية، بل وحتى مصحوبة بنغمة موسيقية، لكل ما هو كائن، بما هو عليه...

وقليلون منا هم من لديهم القدرة على مثل هذا التشاؤم - وإن شئنا الصدق، فحتى نيتشه لم يُؤتَ هذه القدرة. لكن ما ينبثق عنه هو معنى غريب ومبهم وخاوٍ للابشري. وحتى نيتشه كان يعي ذلك. وفي أحد دفاتره الأخيرة، يكتب قائلًا: «ينتهي تشاؤم القوة هذا بالعدل الإلهي».

~ * ~

إنني غالبًا ما أستسلم لتلك المعتقدات الدينية ذات الأساس العلماني والتي تقول إن الأشخاص المتدينين قد أفسدوا الدين. ولكني ألتمس العذر لنفسي في ذلك. هناك مهزلة تجري خارج المبنى الذي نسكن به مباشرة. فقد أنشأت جماعة تابعة لإحدى كنائس الحي نظام مكبرات صوتية. وما يستتبعه ذلك هو ضجيج شيطاني من التبشير والغناء النشاز، ويكتمل ذلك بالارتجاع الصوتي للميكروفون. يصبح محالًا أن أفعل أنا و«پ» أي شيء - مثل القراءة أو العمل أو التحدث أو النوم... لا أستطيع حتى سماع نفسي وأنا أفكر. لا أريد لهم إلا أن يتوقفوا من فضلهم. أتمنى أن تباغتهم عاصفة رعدية، وتحديدًا تستهدفهم صاعقة برق أو غارة جوية أو تنقطع الكهرباء أو تداهمهم شرطة مكافحة الشغب أو عصابات من اللصوص أو جرافة أو أي شيء... معجزة.

في قلب الفوضى، يكون عزائي الوحيد هو لامبالاة اليوم الغريبة والمطلقة - الحافلات تتوقف وتنقل الركاب والناس يمرون وهم يحملون مشترياتهم من البقالات والأطفال يلهون في الملعب والهواء يبرد والشمس تغيب. إن لامبالاة الحياة اليومية تتغلب علينا جميعًا.

~ * ~

في مقهى في الهواء الطلق، وبُن طازج مطحون ونعاس ما بعد الظهيرة. بالنسبة إلى بقية العالم - من الحجر والنبات وهذا الدفتر وذلك الكرسي وفنجان القهوة وأصوات صراصير الليل وقطط الشوارع ودخان السجائر غير المرغوب به - فإن وجودهم يكفيهم. وحدهم البشر قادهم حظهم العاثر لاختراع شيء يُسمى «الحياةّ» مما زاد الطين بلة.

~ * ~

أخاف حين أكون سعيدًا. وأسعد حين أكون حزينًا.

~ * ~

أن تتخذ قرارًا هو أن تجد حلًّا وسطًا.

~ * ~

أن ينال إعجابك كارهٌ للبشر.

~ * ~

لا أجدني قَطُّ متفائلًا أو متشائمًا بقدر ما أظنني عليه.

~ * ~

الغابات الصاخبة في جماجمنا الهادئة هي مساحة ليلية يمكن سماعها بهدوء

حيث يتردد صداها بلطف أسفل الأقواس الطويلة المقببة والمليئة بالطحالب في تشريحنا المتكلس.

~ * ~

صياغة أخرى لمقولات كلٍّ من لا روشفوكو وليوباردي وليشتنبرج: التواصل البشري هو التقيؤ المتتالي للمعلومات. ونحن لا نصغي بقدر ما نتخم أنفسنا. نحن لا نتحدث بقدر ما نتجشأ ويسيل لعابنا وننوح. ولسوء الحظ تعلمنا أيضًا القراءة والكتابة.

~ * ~

أتزود بالبهجة كي أحتمل معاناتي. وأستعين بالصبر كي أحتمل بهجة الآخرين.

~ * ~

علامات الأزمنة[١]. أن تكون مرئيًّا أهم من أن تكون موجودًا.

~ * ~

قليل من التفلسف يورث الدهشة من الحياة. وكثير من التفلسف يورث ازدراءها.

~ * ~

(١) العنوان هنا يحيل إلى مصطلح إنجيلي وكنسي هو «Signs of the Times» ويعني قضايا وأزمات ومستحدثات كل عصر التي تسعى الكنيسة لتفسيرها وعلاجها. (المترجم).

كان نيتشه يصر على التفرقة بين نسخته الخاصة من التشاؤم وبين «التشاؤم الرومانتيكي» السوداوي الذي كان ينسبه إلى شوبنهور. وباعتباره فيلسوفًا، أدرك نيتشه أن ذلك يتطلب منهاجًا ما. وباعتباره شاعرًا، أدرك أيضًا أن كل منهاج يخفي بداخله رعونة ما. وهكذا حاول نيتشه تجاوز التشاؤم عبر اختراقه - لكن الحيلة لم تكن مجرد الخروج من الجهة الأخرى متفائلًا. وعن الشذرات التي أوردها في كتابه «إنساني، مفرط في إنسانيته» يقول: «وفيها يتحدث بجرأة متشائم تجعله رؤاه يخرج من جلده فزعًا ولكنه يعرف دائمًا كيف يعود إليه مرة أخرى، متشائمًا، أي يستحسن التشاؤم...».

~ * ~

كنت أحسبني سأكون أكثر حكمة. أجدني بدلًا من ذلك أكبر سنًّا وحسب.

~ * ~

هنالك مَطهر من نوع خاص يكابده مَن هم بانتظار شيء لن يجيء.

~ * ~

«وحدهم العقلانيون من ذوي النزاهة الأخلاقية يحق لهم التشكيك في العقل... أي شيء من دون ذلك هو شكوى، وليس انتقادًا». (براسييه)[1]. ومن دون أن ندرك، فقد انتقل التشاؤم، من دون عناء تقريبًا، من الأولى إلى الثانية.

~ * ~

(١) «راي براسييه» فيلسوف بريطاني يشتهر بأعماله في الفلسفة الواقعية ومن أبرز مؤلفاته «Nihil Unbound: Enlightenment and Extinction». (المترجم).

على الرغم من حُسن الطالع، فلن يكون في انتظارك سوى اليأس.

~ * ~

نحن نعرف أكثر مما ينبغي عن أنفسنا كجنس، بما يتعذر معه أن نكون حقًّا متفائلين.

~ * ~

الحاضر - لا يستحق الوقت الذي يضيع فيه.

~ * ~

القديس بولس: «حين أضعف، أكون قويًّا».

نيتشه: «ما لا يقتلني يقويني».

سيوران: «وحده الأبله هو المُهيأ للتنفس».

~ * ~

الجنس الممروض. إن التشاؤم قد يكون له أساس طبي، فهذا ما أثبتته دراسات لا حصر لها بحق الاكتئاب السريري (ومنذ عهد ليس ببعيد كنت أستخدم مصطلحات مثل «ملانخوليا»، أو كما كان يقول قدامى الإغريق، «العصارة السوداء»). بل إن بعض الدراسات قد كُرِّست لفحص فنانين وكُتَّاب وفلاسفة. وأود أن أسمع رد شوبنهور على تشخيصه - ولعله حتى يوافق رأي الأطباء...

ويمثل العالم آلفريد تسيجلر قضية الطب التشاؤمي. وبحسب تسيجلر، فإن المرض لا الصحة هو الحالة الطبيعية للإنسان ويقول: «... والبشرية بحكم

طبيعتها مريضة مرضًا عضالًا». وما هوسنا بممارسة التمارين الرياضية وتناول الطعام الصحي إلا إقرار غير واعٍ بطبيعة معطوبة في صميمها. وتتفوق قابلية أبداننا للإصابة بالعلل على أي «تفاؤل يقول به جاك روسو». ويشتق تسيجلر مصطلح «الممروضية» لوصف هذه الرؤية، وهي رؤية مفادها أن «الجنس البشري بحكم طبيعته ممروض ولا يمكنه أن يفلت من مصيره إلا عبر الموت».

ولذلك يظل هنالك أمل على الرغم من كل شيء.

~ * ~

رضيع يبكي هو أنصع تعبير عن سفاهة أن تكون إنسانًا.

~ * ~

كلام تناهى إلى سمعي في قطار الأنفاق: «... نعم، لقد كنت هناك، هل تعرف؟ لقد سئمت من سأم السأم...».

~ * ~

يقين الشك وتراكم الكائنات الحية الذابلة والطيفية.

~ * ~

لا توجد تجليات هنا.

~ * ~

ارتباك وإحباط واكتئاب وضغينة. ارتباك حول ما يفترض بي أن أفعله،

وإحباط من ظروفي، واكتئاب لكوني أشعر بالإحباط والارتباك، وضغينة عامة تجاه العالم والناس جميعًا. كل يوم. ولا يساعدني في ذلك سوى الخروج للنزهة والكتابة في هذا الدفتر الكئيب، ولو قليلًا.

~ * ~

عدم قدرتنا على التغيير لا يضاهيه سوى قدرتنا على تحمل المعاناة.

~ * ~

عصر الإنسان (الأنثروبوسين): خراب محقق.

~ * ~

الفلسفة حين تُختزل في كونها ذريعة لوجود المرء - ولجميع الموجودين. غرور. خوف.

~ * ~

«... يموت معظمنا لأننا لا نعرف طريقة تجنبنا الموت». (لا روشفوكو).

~ * ~

حديقة بروسبكت، بعد ظهيرة الأحد. أن تشعر برهاب الحبس حتى وأنت وسط «الطبيعة».

~ * ~

عند قراءة دوستويفسكي. الجميع مذنبون. ولا سيما الأبرياء.

~ * ~

أن تحسب الحماس تفاؤلًا...

~ * ~

«أنا لا أعلمكم أي شيء».
«نعم، أنت لا تعلمنا أي شيء!».

~ * ~

على النقيض مما يقوله جميع الباحثين، كان شوبنهور محقًّا في رأيه حيال البوذية - هي في جوهرها تشاؤمية، وتشاؤمها من دون قيد أو شرط. لكن لا أحد يصدق هذا...

~ * ~

لا توجد A_1، ولا توجد A_2، ولا توجد A_3... لا توجد $A_{س}$.

~ * ~

التعبير البشري بالغ اليأس.

~ * ~

أطلق بيسوا على أحد نصوصه عنوان «فصل في اللامبالاة أو شيء من هذا القبيل». وفي المخطوطة وضع العنوان بين قوسين.

~ * ~

إذا كانت هناك عدة خيارات لتخفيف ألم ما، فعادةً ما يعني ذلك أن أيًّا منها لن يفلح. والشيء نفسه يقال عن المعاناة.

~ * ~

كلما أوغلنا في نقاش ما، زادت أهمية التفاصيل وقلت أهمية الاختلافات، وبهتت ألوان الأفكار، حتى لا يتبقى لها أي بريق على الإطلاق. وبعد ذلك يظل كل شيء كما هو عليه.

~ * ~

قرأت مؤخرًا «كوآن»(١)، أظنه يعود إلى دوجن، وهو يصف أفكارنا بأنها نسائم تهب على وجه المرء. وخلال التفكير يدعها المرء تمر وحسب.

في وقت لاحق من ذلك اليوم ذهبت إلى المدينة. تهب رياح نوفمبرية باردة عبر الشوارع الضيقة، ما يجعل المشي عملًا صعبًا. يثير ذلك غضبي – وأنزعج من الرياح.

~ * ~

(١) «كوآن» أو «kōan» هو سؤال أو لغز من تراث بوذية الزن يُستخدم للتمرين أو لقياس مدى التقدم الذي يحرزه الشخص الذي يمارس بوذية الزن والإشارة هنا إلى أحد أبرز معلمي بوذية الزن وهو دوجن كيجن. (المترجم).

شذرات وأقوال مأثورة وأمثال وحكم وتعبيرات اصطلاحية وطُرَف وعبارات مبتذلة وشعارات وإبيجراما وألقاب وشظايا... في الكتابة، أشعر بنشوة غريبة... هناك طرق كثيرة لقول لا شيء.

~ * ~

هل هي حجة مؤيدة للانتحار أم معارضة له؟ يعيش المرء على الرغم من الحياة.

~ * ~

الصدق يثير التقزز بقدر ما تثيره جميع أشكال السخرية. يخدع المرء نفسه خداعًا متقَنًا.

~ * ~

الوجه - هو ندوب الحياة.

~ * ~

حين يشكو أحدهم أن حياته لم تسفر عن شيء، فإن علينا أن نكافئه لا أن نواسيه.

~ * ~

إغواء امتلاك أفكار يفوق الاضطرار للعيش بها.

~ * ~

قال فيلسوف، هو على الأرجح شيستوف - ذات مرة بما أن الفلسفة تتعامل مع أصعب قضايا الوجود وأهمها، فإن الفلاسفة يَعُدون أنفسهم الأهم بين الناس. ثم يوضح فيما بعد: «موظف البنك، الذي دائمًا ما يقدم النقود للآخرين، ربما يَعُد نفسه أيضًا مليونيرًا».

~ * ~

مركزية الإنسان في الكون مبتذلة كإعلان دعائي ومدمرة كفيضان سريع وعديمة الأهمية مثل الوقت.

~ * ~

في فبراير عام ١٩٤٢، كتب كامو في أحد دفاتر يومياته: «إن ما يحول دون اكتمال عملٍ ما يصبح هو العمل نفسه». وهي إحدى آخر التدوينات.

~ * ~

غالبًا ما يقال إن المرء كلما أصبح أكثر روحانية، ازداد تواضعًا. وفي النهاية، يتلاشى تمامًا.

~ * ~

عَيش الحياة: هو ذروة «التفاؤل القاسي».

~ * ~

مبدأ السبب الكافي. هشاشة الزمن ليست شيئًا إذا ما قورنت بهشاشة الجسد.

~ * ~

ثمة مقولة تعود إلى رهبان الصحراء تقول: «كم هو مخيف أن تموت، ولكن الأخطر من ذلك هو أن تعيش حياة مديدة». ليت التشاؤم كان له تفاني الزهاد.

~ * ~

إن التشاؤم في حقيقة الأمر ما هو إلا نوبة غضب تتكرر عبر نبرات مهدئة للغز.

~ * ~

الإيمان، مثله مثل العقل، يقع خارج نطاق قدرة الإنسان على السمع.

~ * ~

المعرفة توجد في تناسب عكسي مع المعنى.

~ * ~

هناك عبارات شديدة الإيجاز حتى إنها تجعل كل ما كتبته فائضًا لا ضرورة إليه. سيوران: «إن تكاثر نوعنا يكاد يكون فحشًا، وأن يتعين علينا أن نحب ذلك فهذا مما يكاد ينافي العقل».

~ * ~

ذكر شامفور ذات مرة أن أربعة أخماس الباريسيين يموتون كمدًا. لعل الخمس الآخر - وبقية سكان العالم - يموتون بسبب تمضية الوقت وحسب، وهو أمر لا يستحق اللوم أكثر مما يستحقه جيرانهم ذوو الطباع السيئة.

~ * ~

لامبالاة لا تنفد.

~ * ~

محلاق متدلٍّ من شجر الأكاسيا. وقرون محترقة من شجرة مطر وكافور. سكون موسيقي. شك وكآبة. كركديه بحري وأوراق ساتان.

~ * ~

شيطان ديكارت وتنهيدة كانط على فراش الموت وضحكات نيتشه المجنونة - إذا كان للفلسفة أن تبلغ أي شيء، فهي دليل على الإدراك الصارخ أن الفكر انحراف. ونحن نخطئ حين نحسب أن هذا الفكر يخدمنا بوصفنا بشرًا ويخدم آمالنا ورغباتنا. إن الفكر يخذلنا - الفكر يضر بمصلحتنا. يا له من غرور أن نحسب أن هذا الفكر يوجد «داخل» جماجمنا المجوفة التي تشبه الكهوف...

~ * ~

«كيف حالك؟».

«لا بأس».

«اصبر بعض الوقت».

~ * ~

التفكير - أقصر طريق بين الوجود والعدم.

~ * ~

من أعظم ما تعلمته وأنا طالب هو كيف أعلم نفسي. وعقابًا لي صرت معلمًا.

~ * ~

كيركجور مولع بالتنبيه على أن المرء يصل إلى الإيمان «بحكم العبث» - «العبث» الذي أعتبره يعني ما لا يمكن أن يحدث ولكنه يحدث. «أنا، بوصفي كائنًا عقلانيًا، يجب أن أتصرف في حالة يخبرني فيها عقلي، وقوى التفكير الخاصة بي: يمكنك أيضًا عمل شيء».

لكن أليس عبثًا أن يحدث أي شيء على الإطلاق؟

~ * ~

الشذرة: الاختزال الشديد.

~ * ~

الحرج من ألا يكون لديك ما يقال.

~ * ~

الوجود عمل مرهق.

~ * ~

التقدم في العمر والإصابات والمرض والأوجاع والآلام ومُضي الزمن. أن يصيب العطب الجسم هو أمر مرعب لأنه ليس شأنًا شخصيًّا.

~ * ~

ضآلة شأن مكترثة.

~ * ~

جسم الإنسان - أغرب جغرافية في العالم.

~ * ~

«إنك تصبح ميتًا بعد انتهاء الحياة، ولكنك تموت في أثناء الحياة». (مونتني).

~ * ~

ليس هناك أسوأ من الثقافة الإنسانية إلا الطبيعة الإنسانية.

~ * ~

المشي والركض والمشي للتنزه وركوب الدراجات والتسلق والتجديف والتخييم وركوب القوارب والطيران - يبدو أننا شغوفون بأن نرى أنفسنا في كل مكان، حتى في الأماكن النائية. (أذهب أنا و«پ» إلى غابة نائية، لنفاجأ بمسارات مزدحمة وسائحين ثرثارين...).

مقترح - يجب أن تكون الطبيعة كلها محمية طبيعية، لأن أي محمية طبيعية حقيقية لن تسمح بوجود أي إنسان على الإطلاق - ولكنها عندئذ لن تكون طبيعية أو محمية. ستكون مجرد مكان يخلو من الناس (ومن ثَمَّ لا شيء طبيعيًّا...).

~ * ~

إن فعل الكلام في حد ذاته ينطوي على شيء من التعالي.

~ * ~

في الصباح الباكر. أجواء معتمة وباردة وصافية بالخارج. أستلقي أنا و«پ» هناك، بين النوم واليقظة فيما يتملكنا التعب. صرير في المفاصل وأنفاس بطيئة. جميع الطقوس الصغيرة التي نقوم بها هي لمجرد الحفاظ على قوتنا. في طريقها إلى الحمَّام، تقول لي «پ»، «كيف خُدعنا في الحياة؟».

~ * ~

في أثناء قراءة قصة هرمان ملفل «بارتلبي النسَّاخ»، قادني ذلك إلى كتاب «بارتلبي وشُركاه» (Bartleby & Co) للروائي فيلا ماتاس، الذي يضع لائحة بـ«كِتاب الرفض». وبالتفكير في توماس شاترتون وإريك ستينبوك وجاك ريجو وخوان رولفو وساكوتارو هاجيوارا وبالطبع آرثر رامبو، بدأت أتساءل عما إذا كان سبب توقف هؤلاء الكُتَّاب عن الكتابة هو أيضًا سبب بدئهم الكتابة: العبث والملل والكسل وخيبة الأمل والأوجاع والآلام...

~ * ~

هل لديَّ تطلعات عالية ومعايير متدنية أم معايير متدنية وتطلعات عالية؟

~ * ~

تُعَد رواية لاجركفيست[1] «القزم» إحدى الروائع الأدبية في كراهية البشر. وفيها يحمل القزم ازدراءً كبيرًا للبشر حتى إنه ليضع نفسه في منزلة أدنى من منزلتهم.

~ * ~

أسبح في البحيرة وأطفو على ظهري، أتوقف عن الحركة وأسكن - وأهوي في السماء.

~ * ~

(١) بار لاجركفيست روائي سويدي فاز بجائزة نوبل في الأدب لعام ١٩٥١. (المترجم).

تأخذ الكهوف والكاتدرائيات الشكل نفسه الذي تأخذه أسقف أفواهنا. (لو أن صمتنا كان شديد الغموض).

~ * ~

رعب مؤقت. طاقة مستهلكة ووقت مهدَر.

~ * ~

التخلي. اليأس. الاستسلام.

~ * ~

نعيم الجهالة وجهالة النعيم.

~ * ~

حين تنهك الحياة اليومية المرء حتى تجعله يقبل بأي شيء. فشل روحي.

~ * ~

«يسهل دائمًا أن تكون منطقيًّا. ويكاد يكون محالًا أن تظل منطقيًّا حتى النهاية». (كامو).

~ * ~

أفكار محجوبة. في فصل الشتاء، في الساعة ٨:٤١ من صباح الثلاثاء. في أثناء التأمل - وفي محاولة للتأمل - أسمح لجميع الأفكار بأن تخرج من رأسي. وشيئًا فشيئًا، تبدأ بالتشكل نقطة غير واضحة - هاوية. أنظر إليها ولكنني لا أنظر إليها. ببطء وبشكل غير محسوس، تحجب كل الأفكار الأخرى، كل شيء بداخلي وكل شيء من حولي. بدأت ألاحظ، بعينين نصف مغمضتين، موجات فوقها موجات من دوائر متحدة المركز، وسبجًا ضبابيًّا داكنًا يتوسع باتجاه الخارج. نقطة مظلمة وغامضة وتحجب كل الأفكار. (حقًّا، أعتقد أنني كنت أدخل في النوم للتو).

~ * ~

حركة بالخارج وسكون بالداخل.

~ * ~

هناك شيء هزلي بشأن كتب السير الذاتية، ولا سيما تلك الأعمال التي تتألف من مجلدات تصل إلى ألف صفحة من التأملات الذاتية، بدايةً من مارسيل بروست وحتى كارل أوفه كناوسجارد. وكلما أُخذ العمل نفسه بجدية أكبر، جاءت الهزلية أشد. وأنا أحسب أن المؤلفين على دراية بذلك - وهم يدركون ذلك بسعادة.

أين هي سيرنا الذاتية العظيمة والمليئة بالحكمة؟ كتب الفيلسوف الياباني كيتارو نيشيدا ذات يوم: «أمضيت النصف الأول من حياتي في مواجهة السبورة، والنصف الثاني موليًا ظهري لها».

~ * ~

في ظهيرة صيفية في حديقة بروسبكت بارك. ما يذهلني هو مدى صخبنا وعدوانيتنا، وعدم إدراكنا الشديد لكيفية تطفلنا على «طبيعة» أنشأناها. نحن قبل كل شيء جنس دخيل.

~ * ~

الغيوم الهائلة وغير المكترثة وساعات الشفق والحركة المتباطئة لأسراب قناديل البحر. وفي مقابل كل تجسيد للعالم، يجب أن نرد بتجريد مساوٍ لأنفسنا حتى يصبح الشكل المؤسف والأبله والمتردد الذي يُسمي نفسه إنسانًا، لا شيء سوى آثار لاحقة للمناخ أو للظروف الجوية.

~ * ~

غربلة وفرز. تتكون المخطوطة الأصلية من نحو ثمانمائة صفحة. وتأتي المسودة الثانية في نحو مائتين وخمسين صفحة. والثالثة في نحو ثمانين صفحة. والرابعة في أقل من عشر صفحات. لا توجد خامسة. الكتابة بوصفها عملية حذف.

~ * ~

جميع الحوادث حوادث سعيدة... بعض الحوادث مؤسفة... لا توجد حوادث سعيدة...

~ * ~

«هذا هو رأس الحكمة – أن أزدري العالم وأدنو يومًا وراء يوم من ملكوت السماء». (القديس توما الكمبيسي). إنني أتفوق في الأولى ولكني أخفق في الثانية – بشدة حتى إنني أزدري أيضًا ملكوت السماء.

~ * ~

الأربعاء، الساعة ١٠:٤٠ صباحًا. أحضرت هذا الصباح مجموعة من الكتب لبيعها لمتجر «ذا ستراند». يُقسِّمون الكتب إلى كومة كبيرة، وفي مقابلها يمكنهم إعطائي رصيدًا في المتجر بقيمة ٣٠ دولارًا تقريبًا (٢٧ دولارًا نقدًا)، وكومة صغيرة تضم أربعة إلى خمسة كتب لا يمكنهم شراؤها. ويخبرونني أن بإمكاني أخذ الكومة الصغيرة معي أو سيضعونها في الخارج في صناديق الدولار الواحد. توجد بين الكتب الموجودة في الكومة الصغيرة نسخة من كتابي الأول، الذي ألفته قبل سنوات – نسخة فائضة لست بحاجة إليها. أتوقف لبرهة وأسأل نفسي ما الدرس الذي يجب أن أستخلصه من ذلك. إذا كانوا لا يستطيعون إعادة شراء كتاب، فهذا يعني إما أن الكتاب في حالة مزرية وإما يعني ألا أحد يرغب في أن يدفع فيه أكثر من دولار واحد. أحاول مواساة نفسي بالانتباه إلى أن أحد الكتب الأخرى التي لا يمكنهم أخذها هو نسخة من مقالات وشذرات شوبنهور (نسخة فائضة أخرى لديَّ). لكن هذا الكتاب حال لونه بشدة واهترأت زوايا صفحاته وتغضن غلافه وتشقق كعبه. أما كتابي فهو جديد تمامًا. أخبرهم أن بإمكانهم وضع الكتب في صندوق الدولار الواحد وإعطائي رصيدي في المتجر.

~ * ~

في كل ليلة مسرح ملائكي يشل العضلات والأعصاب واللحم في توقف نجمي أسود. ألف نقطة من الخدر ترتجف بلطف من دون الكشف عن هويتها.

~ * ~

في لقاء يجمعني مع «ر» في مقهى. يدور حديثنا عن الفلسفات التي تجعل اللاوجود وليس الوجود التزامها الأول. يُذكرني بالفيلسوف الغامض بيرون، الذي لم يكن النفي عنده يعرف نهاية - فلا شيء يمكن معرفته يقينًا، بل وحتى ذلك ليس يقينيًّا، وبالتالي لا بد أن لا وجود خاويًا يكمن في أصل كل وجود. (في اليوم التالي، أتذكر مثال جورجياس، الذي أكد - ويجب عليَّ أن أبحث عن ذلك - أنه (١) لا شيء له وجود، (٢) وحتى إذا كان ثمة شيء له وجود، فلا يمكن معرفة أي شيء عنه، و(٣) حتى إذا أمكن معرفة شيء عنه، فلا يمكن التعبير عن ذلك). ولكن كل ذلك لا يعدو أن يكون تفكيرًا. بالنسبة إليَّ، التفكير ليس أمرًا مميزًا إلى ذلك الحد، ولهذا السبب غالبًا ما أنسحب من اللعبة قبل نهايتها. (هذا هو عيبي وليس عيب «ر») ما زلنا في أول المساء. يشرب جعة فيما أتناول قهوة.

~ * ~

في التشاؤم، لا يوجد مؤمنون، بل أتباع.

~ * ~

متعب. الفارق نفسه.

~ * ~

هناك المغامرون الذين يجربون الحياة. أما أنا فأضع نفسي في فئة أخرى، حيث يداخلني شك دائم أن الحياة هي التي تجربني.

~ * ~

حرَج التشريح.

~ * ~

في ليلة سرمدية، أحرق كلٌّ منا غابة من أجل رؤية أوضح. وفي صمت تنطلق أسراب من الغربان إلى أعلى، فتحجب النجوم.

~ * ~

المتشائم يحزن لكل شيء عمومًا، ولا يحزن لأي شيء بعينه.

~ * ~

السعادة هي ذلك الشعور الذي يكون لديك مباشرة قبل وقوع حدث سيئ.

~ * ~

أن يتظاهر المرء بأفكار ليست لديه.

~ * ~

أن تكون قد بدأت بنظام ما وأن تنتهي بذاتوية.

~ * ~

التشاؤم هو ترف الشك فيما هو واضح جلي.

~ * ~

الالتزام بألا تبكي.

~ * ~

الرهان بلا نتيجة.

~ * ~

«يأس مكتسب» هو مصطلح علاجي.

~ * ~

فلسفة نسقية تشكلت عن طريق المصادفة.

~ * ~

التفاهات تُعزَى خلسة إلى أسماء براقة.

~ * ~

شتاء. وثلج بالخارج. تقول لي «پ»: «تخيل كم ستكون الحال هادئة إن نحن تحدثنا من دون إصدار أحكام...».

~ * ~

تأثير ما يبدو أن المرء قد قاله.

~ * ~

نحن نعيش في عصر نستطيع فيه أكثر من أي عصر آخر أن نصنع أخبارًا سيئة.

~ * ~

هناك مبالغة في تقدير قيمة الشذرة، كما لو كانت جوهرة صيغت بعناية تفوق الوصف وجاءت نتاج تأمل ملتاع ذبل من أثر السنين. والشذرة ليست مقدسة ولكنها مدنسة. تأتي الشذرات من المواقف الأشد وضاعة

مثل نفاد الصبر والكسل والإحباط والبغض والحيرة والاستسلام. اذهب إلى مقهى أو مطعم أو حديقة أو اخرج في نزهة للمشي أو اذهب إلى أي مكان به ناس (ودائمًا هناك ناس). ولا تكاد كتابة الشذرات تستحق عناءها.

وفي إحدى المقابلات قال سيوران ذات مرة إن المرء يلقي بالشذرة، كي يتخلص منها.

~ * ~

هل وراء كل فلسفة صغرى توجد فلسفة كبرى، هي أكثر ادعاءً؟

~ * ~

من الإخوة كارامازوف:

«للمرة الأخيرة، حتمًا: هل يوجد إله أم لا؟ هذه هي آخر مرة سأسأل».

«للمرة الأخيرة، لا».

«إذن مَن الذي يستهزئ بالبشرية؟».

~ * ~

عجوز في إحدى حجرات ستراندبرج يعزف نوتة موسيقية، «لقد جعلت الناس تعساء وجعلني الناس تعيسًا. هذا يعادل ذاك».

~ * ~

«... الخوف من شيء بعد الموت...».

~ * ~

النوع البشري نوع فاشل. ماذا ينبغي للفلسفة أن تصبح كي تنطلق من هذا الموقف، بدلًا من أن تنتهي إليه؟

~ * ~

بغض سطحي مثل فضاء سحيق، ومثابر مثل زمن عميق.

~ * ~

أوضح ليشتنبرج ذات مرة أن هناك طريقتين لإطالة العمر، الأولى هي تلك التي يبتعد فيها الميلاد عن الموت كأقصى ما يكون والثانية يُترك فيها الميلاد والموت حيثما هما، ولكن يعاش الوقت الذي يفصلهما ببطء أكبر.

ويمكن أن نضيف إلى ذلك طريقة ثالثة. وهي الصمت والسكون والهدوء المطلق للوجود خارج الزمن. وهدوء الثالثة فجرًا والصباحات الباكرة أيام الأحد في الخريف وأوقات الغسق في الشتاء.

~ * ~

في أفضل أحوالنا، البشر ليسوا منزهين عن العيوب. وفي أسوأ أحوالنا، نمجد ذلك بوصفه فضيلة.

~ * ~

التفكير في اللحظة التي يكتشف فيها أنه من دون أساس.

~ * ~

جميع الفلاسفة هم فلاسفة تنظيريون.

~ * ~

كراهية للبشر تغمر كل شيء وتعانقه.

~ * ~

«نحن» هي مجرد طريقة أخرى لقول «أنا» - ذاتوية تتفرع عبر حسابات اللاجدوى.

~ * ~

روماتيزم المفاهيم. فلسفة الأوجاع والآلام.

~ * ~

الإرهاب الأبشع هو ألا يكون هنالك سوى بشر، وأن هؤلاء البشر وحدهم هم الذين وُجدوا لغاية. إرهاب ديني.

~ * ~

لماذا في لحظات بعينها يبدو كل شيء من حولك مشبعًا بالدلالة؟ يثير ذلك انزعاجي وقلقي. أمشي أنا و«پ» عبر نفق، في طريقنا إلى موعد مع طبيب. أرى الكلمتين «الإيمان» و«القدر» متجاورتين على الحائط. وتمر بنا امرأة ترتدي «تي شيرت» أسود كُتبت عليه كلمة «Cats»، وتوجد أمامي رُقعة لُصقت على جانب حقيبة ظهر وقد كُتب عليها «Alone» فيما كُتب الحرف «A» بطريقة تشبه رمز الأناركية... ثم تقفز مزيد من العلامات من أغلفة المجلات مثل رسوم الجرافيتي ولوحات واجهات المتاجر - «your story» و«a new beginning» و«useless» (أو هل كانت «use less»؟)... لا تجليات ولا تفاهات، أشعر بتعب من غزارة الدلالات، فهي تتجاوز كل تأويل.

~ * ~

أن تكون قد عشت حياة لم تُسفر عن شيء، ومع ذلك تجد نفسك مثقلًا بشيء يشبه الرماد.

~ * ~

المعرفة التي توجد في تناسب عكسي مع الإتقان.

~ * ~

انتحار: يعني أن هناك أملًا...

~ * ~

معايير الفشل. وعود العبث.

~ * ~

وحده عجزي هو ما يُنسب إليَّ (وحتى ذلك محض غرور).

~ * ~

خربشات مكتوبة على كشك استحمام بمرحاض أحد المطارات:

الحياة هي أن

~~تؤدي عملك~~

~~تؤدي عملك~~

~~تؤدي عملك~~

~~تؤدي عملك~~

تؤدي عملك

تؤدي عملك

ثم تموت.

~ * ~

دليل شوبنهور للحياة. ليس السؤال هل ستعاني، ولكن السؤال هل سيكون لمعاناتك معنى. هكذا أقول لنفسي.

~ * ~

ليس هناك كاتب يكمل كتابًا أبدًا - بل يتخلى عنه.

~ * ~

إنني أدعم القضية - كل ما هنالك أني لا أؤمن بها.

~ * ~

في هذا الصباح، تقول «پ» من دون اكتراث، «أعتقد أنني مبادِرة كسولة...».

~ * ~

يقدم لنا كتاب هانز يوناس «الديانة الغنوصية» لمحاتٍ عن دين تشاؤمي. ليس في العالم نظام ولا تناغم (الكون اليوناني) وليس محكومًا بالحتمية والقدر (اللوجوس اليهودي). العالم غريب على الأرض وعبثي، وعالق بين «غورٍ» لا سبيل لسبره و«صمتٍ» تعجز عن وصفه الكلمات، وهما معًا يصنعان «ملأً أعلى»(١) للعالم الدنيوي يحمل سماتٍ من العشوائية والاعتباطية. ويمكن للمرء أن يستشف تشاؤمًا صارمًا لدى مفكرين قدامى من أمثال فالنتينوس: جميع الآلهة تعاني والعالم غلطة والإنسان عالق في وحشة لانهائية. وعندئذ، تكمن الفائدة الوحيدة للمعرفة\الإشراقية في رفضها القاطع لكل شيء... ولكن هذا مفهوم حديث للغاية...

~ * ~

(١) «Pleroma» هو أحد المفاهيم الرئيسية في الغنوصية. (المترجم).

المتشائم - هو الشخص الذي تخلى عن المنطق بيد أنه لم يتخلَّ عن الفلسفة.

~ * ~

أطراف يائسة وأعضاء متجهمة وحزن هيكلي بطيء وثابت.

~ * ~

تجلي اللامبالاة. أشجار وسحب وصخور.

~ * ~

مشاعر الندم على كوني كاتبًا تتغير مع كل كتاب أؤلفه.

~ * ~

نرتكب الخطأ نفسه حين نصف العالم بكونه كتلًا من الخلايا أو الجسيمات من دون الذرية، تمامًا كما نتحدث بإطناب وشاعرية عن سماء خريفية حزينة أو غابة سوداوية. وحتى في أكثر العلوم صلابة يوجد شكل مبهم من التشخيص، وأفضل ما يمكن أن يفعله الأدب هو التوق إلى شاعرية اللاعاقل. كلما كتبت أكثر، شعرت برغبة عارمة وأقوى في قبول ما هو بديهي، ألا وهو أننا سنظل إلى الأبد منفصلين عن عالم لا سبيل لدينا للوصول إليه ولا سبيل لدينا لإثبات وجوده أو إنكاره. والاستسلام يمنح شيئًا من الدافعية...

~ * ~

في أثناء سيري عبر شارع «وايفرلي أفنيو» برفقة «پ»، نمر بعجوزين يجلسان على بسطة درج. يقول أحدهما للآخر: «... وحينئذ أبلغوني أني تصرفت بحماقة - هل تصدق ذلك بحق الجحيم؟».

~ * ~

مفارقة بارتلبي: القبول عبر الرفض.

~ * ~

لا روشفوكو: «لدينا أسباب كثيرة للتقزز من الحياة، ولكن ليس لدينا أي سبب لازدراء الموت». فيما عدا أن الموت يأتي عقب الحياة.

~ * ~

صغير السن بما يكفي للاستمرار في المحاولة، وكبير السن بما يكفي لأن أعرف أكثر.

~ * ~

دائمًا ترغب بالمزيد، ودائمًا تنال ما هو أقل.

~ * ~

عند معالج بالوخز الإبري. تصبح رقبتي وكتفاي وظهري كتلة جليدية من الإجهاد. خرائط لا تشير إلى أي أرض.

~ * ~

«محال أن نرى كل شيء، ومحال أن نعرف كل شيء، ومحال أن نرتفع عاليًا فوق الأرض، ومحال أن نخرق الأرض. ما كان، أصبح غائبًا عن أنظارنا، وما سيكون، لا يمكننا توقعه، ونعلم علم اليقين أننا لن تنمو لنا أجنحة أبدًا». (شيستوف).

~ * ~

صِدق اللاعاقل.

~ * ~

لا بد أنه أمر حسن أن تدرك أن كل شيء سيئ...

~ * ~

في التفاؤل. في شتاء عام ١٩١٥، يكتب كافكا في يومياته:

> «بعد أيام من الصداع المستمر، أشعر أخيرًا ببعض الارتياح وأصبح أكثر ثقة. لو أني كنت شخصًا آخر يراقبني ويراقب مسار حياتي، فسيكون عليَّ القول إنها حتمًا ستنتهي بلا طائل، ويبتلعها شك دائم، ولا تبدع إلا في تعذيب الذات. لكن، لكوني طرفًا معنيًّا، أستمر في التشبث بالأمل».

~ * ~

إلى أي مدى يجب أن نكون واعين حتى نقدر اللاعقلاني الذي يحيط بنا من كل جانب؟

~ * ~

مفارقة برنهارد: أن تصحح عملًا حتى تصل إلى حد طمسه.

~ * ~

تموج أنفاسنا العميقة والمستقرة مع كل الصبر الذي ينطوي عليه الندم.

~ * ~

تتعثر اللغة حيثما يزدهر الازدراء.

~ * ~

«رأسي فارغ وساكن وكأنه مسرح أسدل ستاره على مسرحية». (كيركجور).

~ * ~

لا يُذكر الفلاسفة إلا بأبرز أخطائهم.

~ * ~

«التعاسة أقل صعوبة بكثير من أن تجربها». (فرويد).

~ * ~

الناس أفراد مزعجون كما الناس جماعة.

~ * ~

الحياة بوصفها مرضًا عضالًا.

~ * ~

جوجول وبيكيت وبرنهارد وكرازناهوركاي... براعة النفي...

~ * ~

كل شيء يتبدد. دأب.

~ * ~

تقول شخصية في مسرحية سارتر «لا مخرج»: «الموت مجرد كلمة. أما الحياة فهي أسوأ فأسوأ بكثير».

~ * ~

الثلاثاء في ٣:٠٩ صباحًا. صمت يمحو الزمن، فينتج سكونًا يوشك أن يصبح دُوارًا.

~ * ~

في شظية عنوانها «استسلام»، يلخص أدورنو العبث الكامن في جوهر التشاؤم: «... التفكير يحقق السعادة بالتعبير عن التعاسة...».

ليس واضحًا ما إذا كانت هذه سعادة في خدمة التعاسة أم العكس.

~ * ~

شكوك تفوق كل حجة.

~ * ~

هشاشة طقوس الاحتفال.

~ * ~

رمال بركانية سوداء. في أحلام هواة جمع حبات الرمال، تنطلق قشور من البازلت والجبس بهدوء إلى أعلى، في استعراض مشكوك فيه من الخمول الهادئ.

~ * ~

لا خلاص يستحق وزنه من المعاناة.

~ * ~

لا يمكن فهم «الانقراض» إلا من داخل القبر.

~ * ~

عندما كان نيتشه أقوى، كان أشد ضعفًا - حاول حل مشكلة العدمية. ألم يدرك مغزى عبارته «مفرط في إنسانيته»؟

~ * ~

أن تفسر الصدق بوصفه تهكمًا.

~ * ~

بيداغوجيا الأسوأ[1]. في ظهيرة يوم صيفي، كان معلم الزن هاكوجو يلقي محاضرة في الفلسفة الصينية بكلية «تنداي سيكت». وخلال محاضرته، لاحظ أن كثيرًا من الطلاب كانوا يغفون فيما تتمايل رؤوسهم مثل قصب النهر. توقف عن إلقاء محاضرته في منتصفها وقال: «لا ألومكم على النوم -

(١) تحيل هذه الشذرة إلى كتاب الخبير التعليمي البرازيلي الشهير «باولو فريري» «Pedagogy of the Oppressed» أو «تعليم المقهورين»، وهو أحد النصوص المؤسسة فيما يُعرف بعلم أصول «التربية النقدية»، ويقدم خلاله فريري نقدًا حادًّا لاستبداد المنظومة التعليمية الحديثة ويرى أنها تحول الفرد إلى مجرد وعاء ومتلقٍّ سلبي. (المترجم).

هل تمانعون إذا انضممت إليكم؟»، وهنا أغلق كتابه، واتكأ بظهره على كرسيه وسرعان ما ذهب في النوم. أُصيب طلاب الصف بالذهول واستيقظ هؤلاء الذين كانوا نيامًا على الصمت المفاجئ. جلس الجميع في مقاعدهم وهم في منتهى الانتباه. (بوصفي مدرسًا، أحلم بصف في مثل هذا الانتباه).

~ * ~

التخلي مع التعلق - الارتباط المتجرد.

~ * ~

السطح الداكن قد يوهم بالعمق.

~ * ~

التأويل هو إساءة تأويل.

~ * ~

بديهيات دوستويفسكي. (١) الجميع يعانون. البعض يعي ذلك، والبعض الآخر لا. (٢) ما يزعج في الناس أفرادًا يزعج بالقدر نفسه في الناس جماعةً. (٣) من المحال التحدث بصدق ومباشرة، ولا سيما عند الكذب. (٤) هنالك قوى لا عاقلة تدفعنا وتجذبنا ولا ندركها إلا على نحو مبهم.

~ * ~

زمن سحيق. في يوم رأس السنة، يرسل إليَّ «د» هذا المقتطف، الذي يعود إلى الشاعر الياباني شيكي الذي عاش في القرن التاسع عشر:

في يوم رأس السنة الجديدة
لا شيء سيئًا ولا شيء جيدًا
بشرٌ وحسب.

~ * ~

ألَّا يراودك أي أمل قَطُّ أم أن تظل تفقده كلما لاح لك. أيهما أشد وطأة؟ وأيهما أشد عقمًا؟

~ * ~

يتذمر بلا انقطاع: ضرورة حتمية.

~ * ~

الإنسانية ومناهضة الإنسانية. مران المرء يؤدي إلى نقض المران.

~ * ~

سألني أحدهم ذات يوم إذا كنت أمارس الرياضة، فقلت، «أركض... لكنني لا أجيد ذلك...»، أدهشتني عبثية ذلك، كأن يقول المرء «أحب التنفس، لكنني لا أجيده...» (... موقف سوف نجد فيه أنفسنا جميعًا عاجلًا أم آجلًا...).

~ * ~

«مزمور الرحمة الذي يغنيه معًا جمعٌ خذلته الأقدار يعادل فلسفة كاملة».
(أونامونو).

~ * ~

شكوك تحفز عدم الإيمان.

~ * ~

شذرة. شذرات. نقصان موجز.

~ * ~

حماقة المعاناة. كلما زادت حدتها، زادت قسوتها.

~ * ~

ليشتنبرج: «كي أحصل على فكرة عن اللاوجود الذي يعقب الموت، أتصور الحالة التي كنتها قبل مولدي». يذكر شوبنهور شيئًا مشابهًا، وهو أن العدم قبل مولدي يعادل العدم الذي يعقب موتي ولا يفصلهما سوى «حلم حياة عابر». ومع ذلك، من الصعب ألا تجد مغزى عميقًا في العدم، ولا سيما في لحظة عجزنا عن تصوره. ليشتنبرج مرة أخرى: «حسبما أظن، يصبح المرء أفضل حالًا بالقدر نفسه، في أيٍّ من الحالتين».

~ * ~

تشق الألواح المتعرجة من الصخر ثنائي الذرات طريقها عبر التعريشات المليئة بالطحالب في تشريحنا الشبكي.

~ * ~

التحول إلى المجموعة التالية من الحيوات. في وقت متأخر من أمسية خريفية. أجلس أنا و«پ» معًا بعد تناول العشاء. الأجواء هادئة على نحو غريب. وعبر الاستريو، تُعزف مقطوعة «أداجيو» من أعمال «دفرتمنتو» لموتسارت. يستمع كلانا بهدوء وانجذاب. تذكرني الموسيقى باستوديو والدي، الذي يقترن عندي بصوت المربعات الوترية وصفوف من التسجيلات والكتب واللوحات المعلقة على الحائط وساعات من الأحاديث خلال أمسية خافتة الأضواء. يجعلني الشعور بالسكون أكثر وعيًا بالزمن الزائل. أفكر في صفوف من أشجار التنوب الطويلة التي تتمايل ببطء حول المنزل الذي تربيت فيه.

~ * ~

يرى البعض أن النظرة التشاؤمية نظرة غير مشروطة. ويرى آخرون أنها مشروطة تمامًا، وأنها تخضع لجميع المبهمات والفروق الدقيقة المبثوثة في الحياة اليومية. ولا ينبغي أن يدهشنا أصحاب الرأي الأول بأي حال أكثر من أصحاب الرأي الثاني. كامو: «نحن نتمرس على عادة العيش قبل اكتساب عادة التفكير».

~ * ~

يدخل في النوم. يصحو.

~ * ~

أرض لا أساس لها. في رسالة خطها قرب نهاية حياته، يقول كانط: «الحياة قصيرة، ولا سيما ما يتبقى بعد انقضاء سبعين عامًا، على نحو لا يسمح بأن يكون ختامها هادئًا، وأظن أنه بالإمكان العثور على ركن ما في الأرض».

هل كان مفرطًا في الثقة؟

~ * ~

يوجد إحساس بالارتياح - ارتياح مأساوي - فيما ترفض الحياة أن تمنحه لنا.

~ * ~

حاولت كثيرًا أن أرفع نفسي، لأجدني أغوص أكثر.

~ * ~

«دع الأجيال القادمة ترفضنا، ودع التاريخ يصِم أسماءنا بأنها أسماء خونة للقضية الإنسانية - ومع ذلك نؤلف ترانيم القبح والدمار والجنون والفوضى والظلام. وبعد ذلك - دع العشب ينمو». (شيستوف).

~ * ~

الشذرة - هاوية بلا حواف.

~ * ~

هل الأسهل كره الإنسانية جمعاء أو كره الأفراد؟

~ * ~

دوستويفسكي - شاعر ومهندس وسجين...

~ * ~

المادة أكثر سوداوية من العقل.

~ * ~

الحياة بوصفها تجربة لمقاربة الموت. عيش الحياة يحرمنا حتى من ذلك.

~ * ~

في الجسم السياسي[١]. المرض والإصابة والأوجاع والآلام والعواطف والجاذبية ومرور الوقت. إن منطق التشاؤم هو منطق جسماني - نزاع خفي لا نسمع فيه سوى البراهين النهائية.

~ * ~

---

(١) الإشارة هنا إلى كتاب «في الجسم» (De corpore) للفيلسوف الإنجليزي الشهير توماس هوبز. (المترجم).

دعونا ننَم، دعونا ننَم. وإلا كيف تُكتشف حكمة السائرين نياما؟

~ * ~

همهمة المتجهم. هنالك صوت يتوق المتشائم في دخيلته إلى سماعه، إنه أضعف صدى لا يُسمع إلا في أوج الاستسلام. بالنسبة إلى البعض، سيقول الصوت: «لقد قلت «لا» بما يكفي وانتهى نضالك، والآن آن الأوان كي تكف عن قول «لا» وتدع الأمور تمضي كما تمضي». وإلى آخرين، سيقول الصوت: «لقد قلت «لا» بطريقة قد استوفت جميع مقتضيات النفي، والآن قد تدرك أن قولك «لا» هو في الحقيقة «نعم»، وأن هذا سيكون كافيًا لك وزيادة». وإلى آخرين أيضًا، سيقول الصوت: «لقد قلت «لا» قاطعة تمامًا، أي مطلقة، وبهذا ستكون قادرًا في عجزك».

وهنالك صوت آخر، صوت لم يكف عن الكلام قَطُّ، على الرغم من أن قليلين هم مَن يحسنون الإصغاء إليه حقًّا. إنه مجرد همهمات وتنهيدات وطنين.

~ * ~

قال كامو ذات يوم إن شوبنهور «امتدح الانتحار وهو جالس أمام مائدة ممدودة». أما نيتشه فظل طوال حياته يعاني أوجاعًا بمعدته.

~ * ~

سعادة الآخرين تثير شكي.

~ * ~

سعادتي تثير قلقي.

~ * ~

الصلة التي تجمع الوجود واللاوجود مع الإيجابي والسلبي هي إحدى أكثر العبارات البديهية المبتذلة في الفلسفة. كان كافكا يدرك ذلك تمام الإدراك: «ما يتعين علينا عمله هو تحقيق السلبية. أما الإيجابي فهو موجود بالفعل».

~ * ~

مِن كتاب «قاعة الطحالب» (Hall of Mosses)[1]. تهيم الفكرة في أشكال غريبة، وتنمو في اتجاهات خضراء غير متوقعة. وببطء وعلى نحو غير محسوس، تغطي سطح الدماغ كله. تلف نفسها مثل طحالب لزجة ومبهرة في الصباح الباكر.

~ * ~

أطالع كتاب توماس دي كوينسي «اعترافات متعاطي أفيون إنجليزي» كي أستعد للمحاضرة. وخلاله يصف دي كوينسي هلوساته عن محيطات سوداء وشاسعة ذات تأثير جسدي فيه: «... هذه الصور لاحقتني كثيرًا، حتى إنني خشيت أن حالة الاستسقاء أو ميل الدماغ ربما تصبح (وحتى استخدم كلمة ميتافيزيقية) موضوعية، والعضو الواعي يُسقِط نفسه على موضوعه الخاص».

إن الوتيرة التي تحدث بها المعاناة في شكلها المحسوس - هي تجربة

(١) سلسلة كتب فانتازيا موجهة لفئة اليافعين وهي من تأليف الروائية الأمريكية نيكولين إيفانز. (المترجم).

مفعمة بالرعب ومجهولة المصدر ومستقلة و«موضوعية». ولا توجد أسباب واضحة ولا أحد يلام ولا شيء يمكن فعله. استسلام لا متناهٍ.

~ * ~

الأمل معاناة. والمعاناة معاناة.

~ * ~

أنا و«پ» في طريقنا إلى الغابة الأولمبية المطيرة. في الصباح الباكر، يعطي مشهد السحب المنخفضة بين أشجار التنوب انطباعًا بأن السماء بأكملها قد انفصلت عن العالم. والأمر نفسه يحدث مع الضباب الذي يتدحرج مع انخفاض المد أو مع الجسور العالية التي تمر عبر وديان من الضباب الكثيف، حيث لا يمكن رؤية الأرض ولا السماء. تكمن في جميع هذه المشاهد دراما لا عاقلة، كما لو أن الكوكب قد كشف، للحظة، عن مظهر آخر غير تنفسي يبدو في سكون متوتر وجمود شاعري.

~ * ~

يحمل ضغينة شديدة للبشرية إلى حدٍّ يضفي عليها طابعًا روحانيًّا.

~ * ~

أن يصابوا بحالة من الاغتراب...

~ * ~

كتاب بعنوان، «كيف تقرأ الكتب» - أو بالأحرى، يجب أن يُسمى: كيف تقلع عن قراءة الكتب.

~ * ~

لا يأس المتشائم من الفشل، ولكن من الاضطرار إلى بذل الجهد في المقام الأول. الملل من بذل الجهد - هو الرابط السري بين التشاؤم والشذرة والشظية والفكرة الشاردة.

~ * ~

حين تولد، أنت مَن يبكي. وحين تموت، يبكي الآخرون.

~ * ~

قسوة الزمن. سوف يُثبِّتك في مكان ما، ويجبرك أن تشاهد المحيطين بك وهم يفقدون ذاكراتهم فيما تذوي أجسادهم. وطوال ذلك كله أنت تتخيل أنك ثابت في مكانك.

~ * ~

قائمة انطباعات (٩). في أي مرحلة سوف تستشعر القلق؟ في غضون تريليون تريليون تريليون سنة تقريبًا، سوف يؤدي تمدد الكون إلى محو كل مادة فيه، بما في ذلك المجرات والكواكب وجميع أشكال الحياة... وفي غضون زهاء ٤,٥ تريليون سنة سوف تموت الشمس وتخلف وراءها بردًا

وأرضًا لا يمكن العيش فيها... وفي غضون مليار سنة سوف تجف محيطات الأرض بسبب درجات الحرارة المرتفعة... وفي ظل الزيادات المتوقعة في عدد سكان العالم والانخفاضات المتوقعة في الموارد، يمكن أن ينقرض النوع البشري بحلول عام ٣٠٠٠... يصل متوسط عمر الإنسان إلى ٨٦ سنة... فيما لديك خطط عمل للأسبوع المقبل...

~ * ~

الكتابة دليل يثبت تفاؤل المتشائم.

~ * ~

من يوميات كافكا في يوم ١٥ مارس ١٩١٤: «وحده هذا الانتظار الأبدي عجز أبدي».

~ * ~

لقد كنت كارهًا للبشر منذ قبل ولادتي.

~ * ~

أن تصبح متضخمًا، كأطلال.

~ * ~

بيسوا: «كل ما أطلبه من الحياة هو ألا تطلب مني شيئًا».

~ * ~

ما هو «ديني» عندي هو من مظاهر ضآلة شأن الإنسان.

~ * ~

يعترف المرء دائمًا بأنه متشائم.

~ * ~

هناك كُتَّاب يبعثون على الاكتئاب بشدة حتى إنهم يصبحون ملهمين.

~ * ~

هل يجرؤ المرء على أن يتطلع إلى فلسفة عبثية؟

~ * ~

لا عاطفة تخلو من التكلف.

~ * ~

الهوة التي تفصل الاستسلام عن التقبل.

~ * ~

جميع الفلسفات تعيش في قلعة كافكا، المبنية على حجر أردواز وضباب.

~ * ~

التخلي مع التعلق - الارتباط المتجرد.

~ * ~

البشر وهم مستغرقون في التفكير يشبهون الجثث.

~ * ~

قل «نعم» كي تقول «لا».

~ * ~

عبارة غالبًا ما تُنسب إلى كامو: «هل أنتحر أم أشرب فنجانًا من القهوة؟»، الأمر يتوقف على القهوة.

~ * ~

هذا التابوت الحجري الذي يضم هواءً يمكن تنفسه.

~ * ~

عرَّف كانط (من بين جميع الناس) الضحك ذات مرة بأنه «عاطفة تنجم

عن التحول المفاجئ من توقع كبير إلى لا شيء». تعريف غريب، لطالما اعتقدت أن هذا هو تعريف الحزن.

~ * ~

العبث: انزعاج منزعج من ذاته.

~ * ~

سخرية تتحول إلى تواضع.

~ * ~

«... تعصب الأسوأ...». (سيوران).

~ * ~

الدماغ – اضطهاد التفكير.

~ * ~

الفضاء السحيق – المكان الوحيد الذي يستحق الاكتئاب.

~ * ~

أجد إلهامًا في مقولات اللاجدوى – تكاد تجعل الحياة جديرة بالعيش.

~ * ~

تعفن الأفكار الجديدة.

~ * ~

شذرات مضيئة وتعلوها الطحالب ولا يمكن فصلها عن تكلس أجسامنا.

~ * ~

أيهما أختار، مبدأ السبب الكافي أم الغابة وقت الغسق؟ خيبة أمل...

~ * ~

نَفَس يرغب في الاختناق خلسة.

~ * ~

تجريبية السأم.

~ * ~

الوهج الصامت للاستسلام.

~ * ~

هدوء بائس.

~ * ~

«لم أستطع يومًا أن أقابل أحدًا من دون أن أستصحب معي ابتسامات موجعة وبلاهة المهزوم». (دازاي).

~ * ~

جواهر متجهمة تزحف من حولنا بطريقة تثير الشك في ضوء قمرنا الفاتن.

~ * ~

ألفاظ بها من الفظاظة ما يكفي للتحدث بها مصحوبة بابتسامة واهنة.

~ * ~

لماذا يفعل المرء شيئًا ما بدلًا من آخر؟ ومتى يتغلب «عدم فعل شيء ما» على «فعل شيء ما»؟ في أحسن الأحوال نحن نبدو دمى بخيوط متراخية، خيوط تصعد إلى أثير مظلم ومشكوك فيه. ويعبر كيركجور عن ذلك بإيجاز في حكاية رمزية:

> «لقد حدث معي أمر رائع. عَلِقتُ في السماء السابعة. هنالك كانت جميع الآلهة تجلس مجتمعة. وبفضل اختُصصت به، حظيت بحق يخولني أن أتمنى أمنية. قال عُطارد: «أترغب أن يكون لك الشباب أو الجمال أو القوة أو العمر المديد أو أجمل عذراء أو أي سؤددٍ آخر مما لدينا في الخزانة؟ اختر، ولكنَّ شيئًا واحدًا فقط». للحظة وقفت حائرًا. ثم تحدثت بنفسي إلى الآلهة: «يا أعظم آلهة العصر. إنني أختار هذا الشيء من دون سواه، أن يكون الضحك من حظي دائمًا». لم يتلفظ أيٌّ من الآلهة بكلمة. بل على العكس، انخرطوا جميعًا في الضحك. واستنتجت من ذلك أن أمنيتي قد تحققت، ووجدت أن الآلهة عرفت

كيف تعبر عن ذواتها بفطنة، لأنه لم يكن يليق بها أن تجيب بجدية: «قد أُعطيت سؤلك»».

~ * ~

أيام وليالٍ فيها حتى النجوم تشكو بهدوء لنفسها.

~ * ~

لا معاناة تستحق التعبير الذي يؤكد وجودها.

~ * ~

هناك طرق كثيرة جدًّا لرفض العالم بما يمنع التورط فيه.

~ * ~

إن فكرة وجود تشاؤم أمريكي هي تناقض لفظي، وهو سبب وجيه مثل أي سبب لقبولها.

~ * ~

التشاؤم هو الملاذ الأخير للأمل.

~ * ~

يغدو المتشائم أبعد شخص عن التشاؤم في اللحظة التي يعبر فيها عن ذلك.

~ * ~

تقزز وازدراء واحتقار ورضا ولامبالاة، أيًّا كان...

~ * ~

سيوران: «لولا فكرة الانتحار، لكنت قتلت نفسي على الفور».

~ * ~

رفض مطلق لن يكفي معه أي شيء. كم سيكون التشاؤم شديدًا لو أن الصخرة والسحابة والشجرة سوف تشتكي هي الأخرى... زفرة حزينة لكل مناخ، مناخ من الرفض.

~ * ~

حين تسكن حركتك بما يكفي، تبدأ الغيوم بالحركة.

~ * ~

ساعدني في إدراك مدى عجزي.

~ * ~

كراهية البشر تغذيها كراهية المعاناة.

~ * ~

تحت ظلال غابات اللاجدوى لا توجد استنتاجات ولا قرارات ولا إيحاءات ولا تجليات. لا توجد حتى صفحة أخيرة. يُكمل المرء تأليف كتابه بالتخلي عنه.

~ * ~

«أأنت متشائم؟».

~ * ~

«في وضع مُزرٍ...».

~ * ~

إن أقوى وأضعف حجة مؤيدة للتشاؤم في آنٍ واحد هي أن عدم الوجود لا يضر أحدًا.

~ * ~

الأفكار التي تذبل.

~ * ~

كتب ليف شيستوف في كتابه الذي يحمل عنوانًا ملغزًا «قمة الهاوية»:

«عندما يكون المرء في شبابه يكتب لأنه يبدو له أنه اكتشف حقيقة جديدة ومطلقة وعليه أن يسارع إلى نقلها للبشرية البائسة. بعد ذلك، ولأنه يصبح أكثر تواضعًا، يبدأ بالشك في حقائقه: ثم يحاول إقناع نفسه بها. وبعد مرور بضع سنوات أخرى، يعرف أنه كان مخطئًا في كل شيء، وأنه ليس بحاجة إلى إقناع نفسه. ومع ذلك، يستمر في الكتابة، لأنه لا يصلح لأي عمل آخر، ولأن اعتباره شخصًا لا لزوم له أمر بالغ الفظاعة».

~ * ~

ضجر الإيمان.

~ * ~

الشك في الحقائق.

~ * ~

توهج صامت.

~ * ~

كل شخص لديه نقطة تصبح الحياة بعدها لا تستحق العيش. وبهذه الطريقة نصبح جميعًا متشائمين مستترين.

~ * ~

فلسفة تتكون بالكامل مما ترفضه.

~ * ~

قائمة انطباعات (١٠). يضم جسم الإنسان زهاء ٣٧ تريليون خلية. ويضم الكون زهاء ١٠٠ مليار مجرة. نحن نزدري ما هو أصغر منا، بالضعف ذاته الذي نجل به ما هو أكبر منا.

~ * ~

كنت قد خططت في أول الأمر لتأليف كتاب عن التشاؤم، يضم تاريخًا مكتوبًا بوضوح ومحققًا بعناية، ويحوي أسماء وتواريخ وعناوين كتبٍ غامضة لم يهتم بقراءتها سوى قلة من الناس. لكن بدا ذلك مملًّا بشدة ولا يستحق عناء الجهد المبذول. بالطبع، لا أقول إن هذا الكتاب أفضل حالًا. وربما أكون قد بلغت النتيجة ذاتها عبر مسار آخر.

~ * ~

أن يحظى المرء بذلك الهدوء الذي ينشأ حين لا يعود له وجود.

~ * ~

إنني متشائم بكل شيء فيما عدا التشاؤم.

~ * ~

دوامة من الكريستال وعشب البحر والطحلب تلتف برفق حول معصمي.

~ * ~

ليكن كل ما أعيشه حلمًا منسيًّا.

~ * ~

الاستسلام هو رواسب الفشل.

~ * ~

ليست هناك فلسفة تشاؤمية، وإنما العكس.

المؤلف

يوجين ثاكر فيلسوف وشاعر ومؤلف أمريكي. وهو أستاذ الدراسات الإعلامية بجامعة «ذا نيو سكول» في مدينة نيويورك، وغالبًا ما ترتبط كتاباته بالفلسفة العدمية والتشاؤم.

المترجم

أنور الشامي، مترجم مصري من مواليد عام ١٩٧٥، تخرج في كلية الألسن بجامعة عين شمس، مارس الصحافة لعدة سنوات وكتب في بعض الصحف والمجلات العربية، ترجم عن الإنجليزية عديدًا من الأعمال الأدبية والسير الذاتية، من بينها: رواية «١٩٨٤» لجورج أورويل، وروايتا «ما بعد الظلام» و«رقص رقص رقص»، وثلاثية «1Q84» لهاروكي موراكامي، و«اقتصاد الفقراء» لأبهجيت بانرجي وإستر دوفلو، و«أنا ملالا» للناشطة الباكستانية ملالا يوسفزاي. صدرت له لدى دار الكرمة ترجمة «ظلام مرئي: مذكرات الجنون» لوليام ستايرون، وترجمة رواية «احتضان» لكلير كيجن، و«روبنسون كروزو المسلم: سيرة فرناو لوبيز العجيبة» لعبد الرحمن عزام، و«قديسو التشاؤم» ليوجين ثاكر.



«المتشائم هو ذلك الشخص الذي ينظر في كلا الاتجاهين حين يعبر شارعًا ذا اتجاه واحد» — بابليشرز ويكلي

«نصائح للأوقات العصيبة» — نيويوركر

«يوضع بجوار مؤلفات نيتشه وشوبنهور... صوت ثاكر هادئ، وهمس يائس وسط الفراغ الذي يطارد القلب ويفطره في الوقت نفسه» — إنتو ذا فويد

«يكتب بوضوح لاذع - ولمحات من الفكاهة السوداء - حول مأزق أن تكون إنسانًا» — دومينيك بيتمان، مؤلف كتاب «الخطأ البشري»

هذا الكتاب يتألف من شذرات وشظايا وتأملات، تأتي فلسفية حينًا وشخصية حينًا آخر، يتتبع فيها فيلسوف التشاؤم الحديث يوجين ثاكر السمات العامة للتشاؤم، ويطرح تساؤلات فلسفية عميقة حول الحياة والعالم والمصير الإنساني المحتوم.

في مراوحتها بين السوداوية وكراهية البشر والدعابة السوداء، تتأرجح كتابات ثاكر برشاقة بين فكرة اللاجدوى ولاجدوى التفكير.

يوجين ثاكر فيلسوف وشاعر ومؤلف أمريكي. وهو أستاذ الدراسات الإعلامية بجامعة «ذا نيو سكول» في مدينة نيويورك، وغالبًا ما ترتبط كتاباته بالفلسفة العدمية والتشاؤم.




ISBN 978-977-86783-7-6
9 789778 678376 >